أحمد الشرباصي

في عالم المكفوفين

مطبعة نهضة مصر بالفجالة
القاهرة

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلّي وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتِمِهم محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته بإحسانٍ إلى يوم الدين ، ربنا آتنا من لدنك رحمةً ، وهيِّء لنا من أمرنا رشدا .

إهداء

إلى الذين يُعنَون بشئون المكفوفين، ويريدون لهم الخيرَ، ويحاولون تحقيقَ ذلك الخير لهم قدرَ استطاعتهم ...

وإلى المكفوفين الذين يبذلون جهودَهم، ويُثبتون وجودَهم، ويحتلون أماكنَهم الملحوظةَ فى المجتمع . .

وإلى الذين يعيشون فى نورٍ من بصائرهم، وإن فقدوا أبصارهم ...

* * *

ثم إلى الذين لا يؤدون واجبَهم نحو المكفوفين، وهم على أدائه قادرون ...

وإلى المكفوفين المنزوين الذين لم يعرفوا بعد أنهم يستطيعون الكثير ...

وإلى الذين يخبطون فى الظلمات، وهم يحسبون أنهم ينتفعون بأبصارهم، بينما هم ضالون لأنهم فقدوا بصائرهم ...

* * *

إلى هؤلاء وهؤلاء ـ على اختلاف أوضاعهم ـ أهدى هذا الكتاب ! ...

« القاهرة »

أحمد الشرباصي

نفحة من القرآن الكريم

[ٱللَّهُ نُورُ السَّمَوٰاتِ وَالْأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ]

« سورة النور ٣٥ ـ ٣٨ »

تقـــديم

هذا كتابى « فى عالم المكفوفين » أقدِّمه — على استحياء — إلى كلِّ من يريد أن يطالع شيئاً عن هؤلاء الرِّفاق الذين حرمتهم الأقدارُ نعمةَ الإبصار ، والذين طال إهمالُ المجتمع لهم ، وغفلتُه عن أداء واجبه نحوهم ، وقد آن أوانُ التفكير ودفعِ عَابِ التقصير ...

وأنا لا أنفر — بل أقرِّر حقيقةً مجرَّدة — حين أقول : إن هذا الكتابَ هو — فيما أعلم — أولُ كتاب يظهر بيننا عن عالمَ المكفوفين وشئونهم المختَلفة ، ولا شك أن ارتياد المجال الذى لم تعتد الأقدامُ طروقَه ، يكون محفوفاً بالتهيُّب والتخوف : والثمرةُ التى تؤخَذ من ذلك الارتياد تكون أهلاً للترحيب وحسن الاستقبال ، مهما كان قدرها ...

وماذا تقول فى ميدان من الكتابة يُقبل عليه صاحبُه وليس بين يديه مراجعُ معلومة ، أو مناهجُ مرسومة ، أومُقرَّراتٌ مفهومة ؛ وإنما هى اللمحاتُ العابرة والجزئيات المتناثرة ؛ ولابد حينئذ من الصبر على استخلاص خبر من هنا ، وشاهدٍ من هناك ، وقصةٍ من هنالك ، ثم محاولةِ ربطها ، والجمع بينها فى بحث أو مقال !؟ ..

* * *

وقد بدأتْ صلتى بالكتابة فى شئون المكفوفين منذ سنوات ..

ففى سنة ١٩٥٠ م ألقيت بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين فى القاهرة أربعَ محاضراتٍ عن المكفوفين ؛ ورغِبَ إلىَّ كثيرون أن أسجِّل

خلاصة ما تحدثت به ، فأجملت ذلك فى فصلٍ بعنوان : « فى صحبة المكفوفين » استغرق نحو ثلاثين صفحة من كتابى : « محاضرات الثلاثاء » الذى صدر عام ١٩٥٢ م ...

وتمنى الكثيرون الازديادَ من هذا اللون من الكتابة ، ومواصلةَ الحديث عن المكفوفين ، ولكن الشواغلَ المختلفة لم تهيّئ الفرصةَ لذلك ؛ وفى طليعة عام ١٩٥٥ م تلقيتُ دعوةً من المركز النموذجى لتدريب المكفوفين فى الزيتون ، لإلقاء سلسلةٍ من المحاضرات حول المكفوفين ، على المبعوثين الذين قدموا المركزَ من البلاد العربية ، ليتدربوا على تدريب المكفوفين ، حتى يكونوا نواة التوسع فى عناية الأمة العربية بشئون هؤلاء المكفوفين .

واستجبت للدعوة مقدِّراً وشاكراً ، وجعلت أتحدث إلى هؤلاء المبعوثين أحاديثَ شتى حول المكفوفين ، وكان قصدى الأول من هذه الأحاديث أن أوجد شيئاً يصح أن يكون بدايةً للبحث والتأليف المنهجى فى عالم المكفوفين ؛ مع ميل إلى نزعة التوجيه والتحريض . ونوَّه صديق الدكتور عبدالمنعم نور مدير المركز بهذه المحاضرات أكثر من مرة ، واقترح هو وغيره نشرها أكثر من مرة كذلك ؛ وكانت هذه المحاضرات هى البذرة الأولى لتلك البداية التى تمثلت فى ذلك الكتاب ، مع زيادات هنا وهناك ...

وإذا استطعتُ بهذه الفصول أن أدفع القادرين من الكاتبين إلى مواصلة البحث فى شئون المكفوفين ، وإصدار الكتب عن عالمهم فى تجويد وإتقان ؛ أكون قد حققت أمنيةً تساير القلب والفكر منذ أمد طويل ، وأكون قد أديت واجبا لا يضيع عند المنصفين ...

كما أننى أهيب بولاة الأمور فى الأزهر الشريف وفى وزارات التربية ، والشئون الاجتماعية ، والإرشاد القومى ، والمؤسسات الاجتماعية والقومية

والدينية ، فى مصر والبلاد العربية ـ بل وفى العالم الإسلامى ـ كى يؤدوا واجباتهم نحو المكفوفين ، فقد صرنا إلى عصر أصبح السكوت فيه على إهمال هؤلاء المكفوفين جريمة نكراء ، وأنا لا أستجدى هنا للمكفوفين صدقة أو عطفا أو شفقة ، بل أطالب لهم بحقوقهم ، وحسبهم ما ضاع عليهم من هذه الحقوق فى الماضى .

* * *

ولا يزال العزم معقوداً على أن أعود إلى الكتابة عن المكفوفين ثم أعود ، واللهُ خير مُستعان ، « وعلى الله قَصْدُ السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين » .

أسأله جلَّ جلالُه أن يكتب لنا الصوابَ فى الرأى ، والرشادَ فى القول ، والإنصافَ فى الحكم ، والمشاركة فى الخير ، إنه على ما يشاء قدير ...

أبو حازم

أحمد الشربينى جمعة الشرباصى

كلّنا مكفوفون

أخى المكفوفَ البصير ...

سلامٌ عليك من أخ لك مبصرٍ كفيف ... إنه لا يقول هذا مصانعة لك أو مجاملة أو مخادعة ، بل يقوله حقيقة واقعةً ، وإن كانت مستترة مبرقَعة ؛ فكلُّنا فى هذه الحياة مكفوفون ، وإن اختلفت جهةُ الكفِّ[1] لدى بعضنا عنها لدى البعض الآخر ؛ وكلنا فى هذه الحياة يجب علينا أن نبصر ، وأن نجاهد هذا الكف بكل ما استطعنا من حيلة ، وبجميع ما أطقنا من وسيلة ، حتى نكون فى مجتمعنا بُصراءَ على الرغم مما يعترض سبيلنا من كفٍّ فى هذا الجانب أو ذاك . نعم ، كلنا فى الحياة مكفوفون يجب أن نبصر ؛ فالناس يأتون إلى هذه الحياة العريضة الواسعة ، وليس عندهم كلُّ المقدرة التى تكفل لهم الانتصارَ على متاعبها ومصاعبها ، وليس لهم كل الوسائل الرشيدة المهيَّأة لكى تبلغ بهم غايةَ ما يصبون إليه ؛ بل كلٌّ منهم فيه ناحية أو أكثر من نواحى النقص والقِصَر ، سواء أكان هذا النقص حسياً أم معنويا ، باطنا أم ظاهرا ، وهذا الوجه من وجوه النقص هو كفٌّ للمرء عن بلوغ الهدف فى ميدان ذلك النقص لو لم يوجَد ؛ والكفُّ فى أصل اللغة منع وحرمان ، وصدٌّ عن شيء ، وحجب عن وجهة ؛ ومن ثَمَّ لا تكون هناك مبالغة ولا مجاملة إذا قلت لك : إننا مكفوفون يجب علينا أن نبصر ...

* * *

---

(١) فى المعاجم اللغوية أن الكف يدل على الحجب ، والمنع ، والنقص ، والقصر ... انظر اللسان والأساس والقاموس .

فى الناس من ينشأ وهو قوى البدن مفتول العضل موفور الصحة، ولكنه هزيل العقل ضَحْلُ التفكير، فهو إذن مكفوف فى عقله، ويجب عليه أن يبصر فى هذا الميدان العقلى، فيتثقف ويتعلم، ويحصِّل ما يكون به قويمَ التفكير سليم التدبير..

وفى الناس من ينشأ وهو قوى العقل واسع الفكر، ولكنه ضعيف فى خلُقه، مرذول فى طباعه، مذموم فى خصاله، قد علَت روحَه غشاوةٌ من استغلاق الشعور وبلادة الطبع وسوء الخلق، فهو مكفوف من غير شك فى هذه الناحية، ومن الواجب عليه أن يبصر فيها، حتى يبصر قلبُه كما أبصرت عينه، وحتى تُضىء روحُه كما أضاء عقله، وإلا ضاع أكبرُ الفائدة من هذا العقل الواسع الذى يغتر به، دون أن يكون له قِوَامٌ من مكارم الأخلاق.

وفى الناس من ينشأ كثيرَ المال مطمئن الأحوال عزيز الجاه فى المجتمع، ولكنه لم يُرزق نعمةَ الإحساس بما حوله من مشاهد الطبيعة ومباهج الكون وأسرار الحياة... لم يُرزق الاستجابةَ الوِجدانية لما فى الحياة من آيات الروعة والجمال... لم يرزق المشاركةَ العاطفية مع تلك الروح الكونية السارية خلال الحياة التى لا نراها بأعيننا، ولا نلمسها بأيدينا، ولكننا نشعر بها بقلوبنا الشاعرة وأرواحنا اليقظة وعواطفنا المتقدة؛ فمثل هذا الرجل مكفوف فى ذوقه وإحساسه ووجدانه، وهو محتاج كلَّ الاحتياج إلى أن يبصر فيها، ليستطيع التمتعَ بما فى هذه الحياة، وإلا كان ميت الأحياء...

ليت هذا المغلقَ القلب، المطويَّ الوجدان، يردد هذه «الابتهالات» مع صاحبها ميخائيل نعيمة:

كحِّل اللهم عينى...

بشعاع من ضياك . .
كى تراك ...

في جميع الخَلْق ، في دود القبـــور ، في نُسور الجو ، في موج البحار
في صهاريج البرارى ، في الزهور   في الكَلاَ ، في التبر ، في رمل القفار
في قُروح البرص ، في وجه السليم   في يد القاتل ، في نجع القتيل
في سرير العُرس ، في نعش العظيم   في يد المحسن ، في كف البخيل
في فؤاد الشيخ ، في روح الصغير   في ادِّعا العالم ، في جهل الجهول
في غنى المُثْرى ، وفي فقر الفقير   في قذا العاهر ، في طهر التبول

وإذا ما ساورتها سكتة النوم العميق
فاغمض اللهم جفنيها إلى أن تستفيق ! [1]

* * *

وهناك القوىُّ الجسم الأمىُّ العقل ، فهو مكفوف في ناحية العلم ، يحتاج إلى أن يبصر بالمعرفة ؛ وهناك المبصر في عينه ، المكفوف في قلبه ؛ وهناك المبصر في حسه ، المكفوف في نفسه ؛ وهناك السليم في عينه ، السقيم في شمِّه أو ذوقه أو لمسه أو سمعه ؛ وهناك غير هؤلاء من الذين قضى عليهم نقصُ البشر أن ينالهم الكفُّ في ناحية من النواحى ، أو في أكثر من ناحية ، وإن تمتعوا بالإبصار الحسى أو المعنوى في سواها ؛ وكلهم بحاجة إلى أن يعالجوا هذا الكفَّ ليبصروا ...

فأنت إذن ترى أنى لم أكن مجاملا ولا مخادِعا حينما قلت : كلنا مكفوفون ، وكلنا يجب علينا أن نبصر ...

---

(١) كتاب الشعر العربي في المهجر ، ص ١٣٦ .

لو أحسن المرء محاسبةَ نفسه ومراجعتَها لقال لها : ما أكثر الجهات التى أصابنى فيها كفٌّ حسىٌّ أو كف معنوى . ولقال لها :

هل اطَّلع عقلى على كل ما يجب ـ أو ما يمكنه ـ أن يطلع عليه ، حتى أستطيع الحكم بتبرئته من الكف عن بعض المعلومات ؟ ...

هل استطاع أدبى أو خُلقى أن يحفظ حقوقَ الناس ، فلا يفرِّط فى شىء منها ، ولا يسىء إلى محاسن الأخلاق فى بعضها ، حتى يمكننى أن أنزهه عن الكف أو الحرمان من الإحسان فى بعض هذه الوجوه ؟...

هل تناول إحساسى الشاعرُ المتذوق كلَّ ما يجمل أن يتناوله بالإدراك والسبر والتمتع ، حتى أطهره من لون ما من ألوان الكف فى بعض هذه الجهات ؟ ! . .

ألا ما أقل ما عرفناه ، وما أكثر ما جهلناه ! ... ما أضيق ما رأيناه ، وما أوسع ما لم نره ! ... ما أخفَّ ما أديناه من الواجبات ، وما أثقل ما فرطنا فيه ! ... ما أكثر الوجوه التى أصابنا فيها الكف ، حتى ليصح أن يقال عنا : إننا مكفوفون مُعْرِقون فى كف الحس وكف النفس ؛ ورحم الله امرأ عرف قدرَ نفسه ! ...

* * *

هاهو ذا السكِّير مثلا يدمن الخمر حتى تستبد بعقله ورأسه وجسمه ، وتستبد بماله وحقوق أسرته ، وتهبط به ـ مبنىً ومعنى ـ إلى الدرك الوضيع ، وإلى أسفل سافلين ؛ ولقد تتطلع إليه فتراه حديدَ البصر ، عريض البدن ، طويل القامة ، ضخم الهامة ؛ ولعلك لاترى فى ظاهره ما يقطع بوجود العلة أو المرض ، ولكنك لو خبرت أمرَه الجسمى أو الاجتماعى لوجدته

مكفوفا من هنا ، ومكفوفا من هناك ...

إنه مكفوف لا يدرك المصيرَ الوخيم الذى يسير إليه ، ولا يرى الهاويةَ السحيقة ، التى تردَّى فيها ، أوسيتردى فيها عما قليل ؛ وهو مكفوف لا يشاهد تلك الأنيابَ الشيطانية الرهيبة التى تنهش فى لحمه وعظمه وفهمه ، حتى تتركه شبحاً محطماً ، أو نهباً مقسما بين العلل والأوجاع ؛ وهو مكفوف عما تسببه له بنتُ الحان من مصائبَ فى حاضره ومستقبله ، ومصائبَ فى عرضه وشرفه ، ومصائبَ فى أصدقائه وخلانه ؛ ولو عرف السكير مثلا ما يدار ويُحاك ويُفعل من حوله ، فى بيته وماله وسمعته ، وبين معارفه وأصدقائه ، وبين الكائدين له والحاقدين عليه ، لأدرك أىَّ إدراك أنه مكفوفٌ ، مكفوفٌ ، مكفوف !! ...

لكأن محمداً نبىَّ الإسلام عليه الصلاة والسلام قد رمز إلى قريب من هذا حين قال : «طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس» ، لأن المرء لو أدار طرفَه إلى عيوبه ونقائصه ، والجهاتِ التى أصابه الكف والحرمان فيها ، لوجد له من ذلك شاغلا أى شاغل ، ولم يبق لديه متسع من وقت أو جهد لكى يتطلع إلى عيوب سواه ...

بل كأن القرآن المجيد قد رمز إلى مثل هذا حين قال : « عليكم أنفسَكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، لأن المرء إذا جعل تقويمَ نفسه همَّه فقد شغلها بعمود الأمر وسنامه ، وإذا ما عُنى كل واحد بإصلاح نفسه فقد صلح المجتمعُ كله ، لأن المجتمع بناء يتكون من لبنات هى تلك النفوس ؛ ولو أن كل نفس تناولت جهةَ الكف التى أصيبت بها ، فعالجتها وأصلحت أمرها ، لتسامى شأنُ المجتمع وعلا ...

* * *

وأنت يا أخى المكفوف قد شاءت لك الأقدار أن تختبرك فى بصرك فذهبت به ، وبذلك أصابك الكف عن رؤية المشاهدات ، وإنه لنقص حسى ما فى ذلك شك ، وإنه لحرمان من مطلوب محبوب ما فى ذلك ريب ؛ ولكن هل يدعوك ذلك إلى اليأس ؟ ... هل يحرمك ذلك من كل شيء ؟ ... هل يدعوك هذا النقص الحسى فى جهة واحدة إلى إلقاء السلاح وإعلان التسليم فى الجهات الأخرى ؟ ! ...

لالا أيها الصديق ... إذا كان بصرك قد كُف ، فهناك كثيرمن حواسك وأدوات إدراكك وإنتاجك ونشاطك ، لا تزال لديك صالحةً للاستعمال والاستغلال وحسن التعويض ، والمعوَّلُ على براعتك وتفننك ومحاولتك .

عندك يا صاحبى حاسة اللمس ، تستطيع بها الكثيرَ والكثير ، وإن من وراء أصابعك عيناً تبصر وترى ، فأنت بهذه الأصابع تستطيع أن تكتب ، وأن تقرأ ، وأن تميز بين مختلفِ الأشياء ... « ويد الضرير وراءها عينٌ ترى » ! ...

ألا تعرف يا صاحبى أن هناك من المكفوفين من يستطيع أن يعرف عن طريق اللمس باليد نفسياتِ من يلمس أيديَهم ، وأن يعرف أن صاحبة هذه اليد شقيقةٌ لصاحبة تلك اليد ؛ إلى غير ذلك من غرائب اللمس ؟ ! ...

وعندك حاسة السمع ، تستطيع أن تدرك بها الكثير ، وأن تحصِّل بها الكثير ، وأن تتثقف عن طريقها بالكثير ...

وعندك حاسة الشم ، يمكنك أن تأتى عن طريق تدريبها وحسن استغلالها بالعجائب والغرائب ؛ ولعلك سمعت عن ذلك العالم النباتى المكفوف البصر

الذى يستطيع أن يميز بين الآلاف من أنواع الأزهار والرياحين عن طريق لمسها وشمها ؟ !...

وهل جاءك نبأ المكفوفين الذين يقرأون بألسنتهم أو بشفاههم على طريقة (برايل) ؟ تلك الطريقة الخاصة بقراءة المكفوفين وكتاباتهم .

لا يجولن بخاطرك أبداً أنك فقدت كثيراً ، فقد ذهب منك القليل ، وبقى بين يديك الجليل ، وأنت بحسن تصرفك واستغلالك تجعل نفسك وغيرك لا يحسّون بأنك فقدت شيئاً : فلا تيأس وحاول ! ...

لقد كان أجدادنا العرب يسمون المكفوف باسم « البصير » ؛ ولعل ذلك كان منهم تفاؤلا وتيمنا ، كما سموا المهلكة « مفازة » واللديغ « بالسليم » ؛ وأكاد ألمح فى تسمية المكفوف باسم « البصير » رمزا إلى التحريض على المحاولة ، وعدم الاستنامة العاجزة لذلك النقص الحسى المحدود ؛ وإن المكفوف البصير ليستطيع بنشاطه ومثابرته أن يكون « بصيراً » : يبصر بيديه ، ويبصر بسمعه ، ويبصر بشمه وذوقه ، ويبصر بقلبه وروحه ؛ وصدق القرآن الكريم : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

أيها الصديق المكفوف البصير ... لا يزال الطريق أمامك مفتوحا ، ولا زالت قدماك قادرتين على الخطوات ، فلا تكف عن المسير[1] ...

احمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف

(١) نشرتها فى مجلة الأزهر ، عدد شوال ١٣٧٤ هـ .

المكفوف في نظر الإسلام

قبل أن نعرض لمكانة المكفوف فى نظر الإسلام نذكر أن هناك ألفاظاً كثيرة مستعملة للتعريف بالشخص الذى فقد بصرَه ، وهذه الألفاظ هى : الأعمى ، الأعمه ، الضرير ، العاجز ، المكفوف أو الكفيف .

وأرى أن هذه الألفاظ لا يحسن منها لفظ لإطلاقه بصفة مستمرة على هذا الشقيق الذى فقد بصره إلا اللفظ الأخير منها وهو لفظ (المكفوف أو الكفيف) ، وإنما أستأنس فى هذا الاستحسان الذى أرجو أن يقبله غيرى بقول اللغة العربية : لغتِنا التى نتحدث بها ، ونتفاهم عن طريقها ، ونكن لها الإعزاز والاحترام . . .

فكلمة (الأعمى) مأخوذة من أصل مادتها وهى العماء ، والعماء هو الضلالة ، والعمى يقال فى فقد البصر وفقد البصيرة ، وفى الحديث : «تعوذوا بالله من الأعميين » ، وهما السيل والحريق ، لما يصيب مَنْ يصيبانه من الحيرة فى أمره ، أو لأنهما إذا حدثا ووقعا لا يُبقيان موضعا ، ولا يتجنبان شيئا ، كالذى لا يدرك حين يسلك ، فهو يمشى حيثما أدته رجلاه ؛ وقيل إن الأعميان هما الليل والجمل الهائج ، أو السيل والجمل الهائج .

وعلى كل حال فنحن نرى فى مادة العمى ضلالا واضطرابا ، وحاشا لنا أن نقيم على وصف أشقائنا الذين فقدوا أبصارهم بما يُشعرهم بأنهم على ضلال ، وبما عرفنا تأذِّيهم منه إذا سمعوه مُطلَقا عليهم .

وأما كلمة (الأعمه) فمأخوذة من العَمَه ، والعمه كما فى « لسان العرب »[1]

---

(١) ج ١٧ ص ٤١٤و٤١٥ . وقد رجعنا فى المعانى اللغوية التالية إلى النهاية لابن الأثير ، ومفردات القرآن للأصفهانى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ولسان العرب لابن منظور .

التحير والتردد ، وقيل : العمه التردد فى الضلالة ، والتحير فى منازعة أو طريق . قال ثعلب : هو أن لا يعرف الحجة ، وقال اللحيانى : هو تردد لا يدرى أين يتوجه ، ويقال : العمه فى افتقاد البصر والبصيرة ، وقيل : إن العمه فى البصيرة كالعمى فى البصر ، ويقال : أرض عمهاء ، أى بلا إمارات أو علامات . وحاشانا أن نصف أخانا المكفوف بالتحير والتردد والضلالة ، ونحن الذين نحرص على استقامته واهتدائه .

وحين ننظر فى القرآن الكريم — دستور الإسلام الأعظم — نجد أن مادة (العمه) قد وردت فى مواطن الذم ، ففى سورة البقرة : « الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » . وفى سورة الأنعام : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » . وفى سورة الحجر : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » . وفى سورة النمل : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيَّنَّا لهم أعمالَهم فهم يعمهون » . وفى سورة الأعراف : « من يضلل الله فلا هادىَ له ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » . وفى سورة يونس : « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون » . وفى سورة المؤمنون : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون » .

وأما كلمة (الضرير) فهى بمعنى الأعمى ، لأن الضرارة هى العمى ، والرجل ضرير أى فاقد لبصره ، ولكنَّا نجد الكلمة مأخوذةً من (الضر) وهو سوء الحال ، إما فى نفس الشخص لقلة الفضل والعلم والفقه ، وإما فى بدنه لعدم جارحة أو لنقص ، وإما فى حالة ظاهرة من قلة مال وجاه . ويقال رجل ضرير : أى مريض .

ولا شك أن معنى الضرر ، وهو الشر وسوء الحال مما لا يحسن بنا أن نألف استعماله فى وصف هذا الشقيق الكفيف .

وأما كلمة (الأكمه) فمأخوذة من الكمه ، والكمه هو العمى قبل الميلاد . والأكمه هو الذى يولد أعمى مطموس العين ، وقد يقال لمن تذهب عينه ، وفى « اللسان » أن الكَمَهَ هو العمى الذى يولد به الإنسان : وهو أكمه إذا اعترته ظلمة تطمس عينه . والأكمه الذى يولَد أعمى ، وكَمَهَ الرجل : إذا سُلب عقله ، والكامِهُ الذى يركب رأسه لا يدرى أين يتوجه[1] .

وليس كل المكفوفين يولَدون عمياناً ، فلا يصح إطلاق الكلمة بتعميم واستغراق ، وقد أثبتت الإحصاءات أن أكثر المكفوفين قد أصيبوا بكفّ البصر فى حياتهم ، من جراء الإهمال فى العلاج ، أو تضييع الدولة لرعاية الناشئة ، أو غير ذلك من الأسباب ، فكيف نطلق على هؤلاء الأكثرية كلمة (الأكمه) وهم لم يولدوا مكفوفى الأبصار ؟ . . ثم هناك أيضاً ما فى بعض استعمالات مادة (الأكمه) من إشارة إلى سلب العقل والتحير .

وأما كلمة (العاجز) فهى مشهورة الاستعمال فى الريف المصرى ، والعامة يطلقونها على المكفوف ، لملاحظتهم أنه قد عجز عن الأشياء التى يستطيعونها هم . وقد تكون هذه الكلمة أخفَّ وقعا من كلمتى (الأعمى والأعمه) ، ولكنها مع هذا غير ملائمة ، لأن العجز عدم القدرة ، والعجز — كما فى اللسان — نقيض الحزم ، والعجَز بوزن الخدم : الأغبياء العاجزون فى أمور الدنيا ، والتعجيز التثبيط ، ويقال : هم يركبون أعجاز الإبل ، إذا كانوا أذلاءَ أتباعا لغيرهم ، وثوب عاجز : قصير .

والعجز أصله التأخر عن الشىء ، وصار فى المتعارف اسماً للقصور عن

---

(١) وردت كلمة الأكمه مرتين فى القرآن الكريم : فى سورة آل عمران : « وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » . وفى سورة المائدة : « وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني » .

فعل الشيء، وهو ضد القدرة ، والعجوز : سمّيت بذلك اللفظ لعجزها عن عن كثير من الأمور .

ونحن اليوم في عهد لا نريد أن نُشعر فيه المكفوفَ بأنه عاجز أو متخلف أو متأخر . ولذلك لا أستحسن تعودَ إطلاق هذه الكلمة وهي (العاجز) عليه .

وأما كلمة (المكفوف) فهي الكلمة الجميلة المقبولة التي أستحسنها. وأدعو إلى تعود استعمالها وإطلاقها على مَنْ فقد بصره ، وذلك لأن مادتها لا تذكِّر بما يسوءُ أو يؤلم ، ففي «لسان العرب» : كفَّ الشيءَ يكفه كفًّا جَمَعَه ، والكف اليد ، والمكفوف الضرير ، والجمع المكافيف ، ويكف ماءَ وجهه أي يصونه ويجمعه عن ذلِّ السؤال ، وأصله المنع ، والكفاف أيضاً من الرزق القوت ، وهو ما كفَّ عن الناس ، أي أغنى ؛ وفي الحديث : « اللهم اجعل رزقَ آل محمد كفافاً » ! .

وفي « أساس البلاغة » ما يفيد أن كلمة « مكفوف » مأخوذة من معنى انكفافه عن الشر .

وفي « مفردات القرآن » : يقَال رجل مكفوف لمن قبض بصرُه ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس » أي كافاً لهم عن المعاصي ، والهاء فيه للمبالغة ، ويقال للجماعة : الكافة . وكفَّفت الثوبَ إذا خطت نواحيه بعد الخياطة الأولى ...

ومما يقوِّي استحسانَنا استعمالَ هذه الكلمة أن نلحظ أن المكفوف قد كفَّ الله بصرَه ، أي حجبه وستره ، وكذلك قد كفَّ الله المكفوفَ عن تمام الاختلاط بالناس وكمال المشاركة لهم في كل شيء . وقد كفَّ المكفوفُ نفسَه عن الإساءة غالباً . فهو مكفوف الشر .

ولذلك أتمنى أن يشيع استعمال كلمة (المكفوف) بدل الكلمات الأخرى، وذلك لكى نخفف الوقع فى التعبير على نفوس إخواننا المكفوفين، وإن كنت أقرر فى الوقت نفسه أنه لا مانع من استعمال بقية الألفاظ فى مواطنها ومناسباتها، وإنما نتحدث عن الاستعمال العام الذى نستحسن تعوُّدَه.

* * *

بعد هذه المقدمة اللغوية التى أرجو أن لا تكون قد ثقلت، ننتقل إلى مكانة المكفوف فى الإسلام، متذكرين أننا فى عصر مولع بالتلخيص والإيجاز والسرعة، فنوجز تصويرَ نظرةِ الإسلام إلى المكفوف فى كلمتين هما: « التقدير والتيسير » أو « المكرمة والمرحمة »، فالموقف الصالح لتقدير الكفيف وتكريمه نرى الإسلام ينص عليه ويشير إليه ويحفظه لصاحبه، والموقف الصالح للتيسير والرحمة بالكفيف لا يهمله الإسلام ولا ينساه.

وهناك شبهة عند أنصاف المتعلمين يجب أن تدفَع، وهذه الشبهة تتمثل فى قول القائل: إننا حينما نراجع القرآن الكريم نجد أن كلمة « الأعمى » الدالة على المكفوف ترد فى مواطن كثيرة يُفهم منها معنى الذم والعيب ألا يكون ذلك تشويهاً لسمعة المكفوف، وجرحاً لكرامته، وتشجيعاً للناس على التندر به والسخرية منه ؟!.

إن هذه شبهة ذائعة عند قصار النظر، وقد تحدثت عنها فى كتابى: « محاضرات الثلاثاء » الذى أصدرته منذ سنوات فى بحث عنوانه « فى صحبة المكفوفين »[١]:

ولا مانع يمنع من معاودة الحديث عنها فى إيجاز، فالناظر نظراً عميقاً فى ذكر القرآن الكريم لمادة « العمى » يلاحظ أن القرآن لم يرد بالأعمى فى أغلب المواطن المكفوفَ الذى ذهب بصره، وإنما يريد العمى المعنوى القلبى أو العقلى

(١) كتاب محاضرات الثلاثاء، من ص ٥٤ إلى ص ٨٣.

أو الروحى، وابن منظور يقول فى اللسان : « ... يقال : فلان أعمى من فلان فى القلب، ولا يقال هو أعمى منه فى العين ... وقولهم: ما أعماه، إنما يراد به ما أعمى قلبه، لأن ذلك يُنسب إليه الكثير من الضلال، ورجل عمٍ : إذا كان أعمى القلب ... والعمى ذهاب نظر القلب ... وكلما ذكر الله جل وعز العمى فى كتابه فذمَّه يريد عمى القلب ... والعماية : الغواية واللجاج فى الباطل والجهالة بالشيء ... وكل أمر لا تدركه القلوبُ بالعقول فهو عمىً ... »[1].

وسنذكر فيما يلى طائفة من الآيات الكريمة التى جاء فيها ذكر الأعمى، ويستطيع القارئُ بالتمعن فيها أو بالرجوع إلى أحد التفاسير أن يعرف أن المراد بالعميان فيها عميان القلوب والعقول والأرواح، وكم من مبصرين بحواسهم ولكنهم أصحاب باع طويل فى العمى المعنوى، « فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ».

وأبو فراس يقول :

لعمرك ما الأبصارُ تنفع أهلها إذا لم يكن للمبصرين بصائرُ[2]

وشوقى يقول :

صورُ العمى شتى، وأقبحُها إذا نظرت بغير عيونهن الهامُ[3]

وشكيب أرسلان يقول :

وكابرَ قوم ينظرون بأعين ألا عَمَهُ الألباب أعمى من العمى[4]

---

(١) لسان العرب، ج ٢٠ ص ٣٢٩ وما بعدها.

(٢) مجلة العرفان السورية، المجلد الثالث، ص ٦٥٥.

(٣) من قصيدته : « يا أخت أندلس عليك سلام ».

(٤) كتاب شكيب عن شوقى، ص ٢٧٢، وديوان شكيب، ص ١٠٠.

والزهاوى يقول :

ليس يبدو من الحقيقـــة نورُ ‏ ‏ ‏ ‏ لعيونٍ عن حسّها هى عورُ
وإذا اسودت الليالى على النـا ‏ ‏ ‏ ‏ س تساوى الأعمى بها والبصير[1]

* * *

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : « فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » . وفى سورة المائدة : « وحسبوا ألا تكون فتنة ، فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم » . وفى سورة محمد : «أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» . وفى فصلت : «وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» . وفيها : « والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى » . وفى الأعراف : «وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين» . وفى النمل : « بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون » . وفى الإسراء : « أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى » . وفى الرعد : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » . وفى الروم : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . وفى البقرة : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » . وفى الفرقان : « والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعُميانا » ... إلخ .

ومما يؤيد هذا الإدراك أن القرآن الكريم يذكر مادة « البصر » أو « النظر » فى مواطن كثيرة ، ولا يريد به البصر الحسى أو النظر الحسى ، بل يريد به النظر العقلى المعنوى : لأن البصر بصر رؤية ، وبصرُ فهم وإدراك ، وكذلك النظر . وهذا هو الأصفهانى يذكر فى (مفردات القرآن) ما يزكّى ذلك فيقول :

---

(١) ديوان الزهاوى، ص ٢٦٦ ، طبعة سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م .

« النظر تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته ، وقد يراد به التأمل والفحص ، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص ، وهو الروية . يقال : نظرتَ فلم تنظر ، أى لم تتأمل ولم تترو ، وقوله : (قل انظروا ماذا فى السموات) أى تأملوا .

واستعمال النظر فى البصر أكثر عند العامة ، وفى البصيرة أكثر عند الخاصة ... وقوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) ؟ فذلك حث على تأمل حكمته فى خلقها ، ونظرُ الله إلى عباده هو إحسانه إليهم وإفاضة نعمه عليهم ...

ويستعمل النظر فى التحير فى الأمور ، نحو : (فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) وقال : (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وقال : (وتراهم يعْرَضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) (ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) فكل ذلك نظر عن تحير دالٍ على قلة الغناء ... »[1] .

وفيما يلى بعضُ الآيات الكريمة التى جاء فيها ذكر البصر – أو النظر – مراداً بهما ما كان عقلياً . ففى سورة الأنعام : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » ، وفى آل عمران : « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وفى الأعراف : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . وفيها أيضاً : « إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا مبصرون » . وفى الذاريات : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

وقد جاءت على ألسنة الحكماء كلمات كثيرة تشير إلى العمى والبصر

(١) مفردات القرآن ، ص ٥١٧ .

المغنويين ، وتُشعرنا بأن عمى القلب أدهى وأنكى من كف البصر ، وأن نظر العقل أو بصر القلب أغلى وأنفع من نظر العين .

يقول أبو سليمان الدارانى الصوفى : « إذا جاع القلب وعطش صفا ورقَّ ، وإذا شبع ورَوِى عَمِىَ » .

وقال حمدون القصار النيسابورى : « من استطاع منكم ألاَّ يعمى عن نقصان نفسه فليفعل » .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : « من نظر إلى الدنيا نظرةَ إرادة وحبٍّ لها ، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه » .

وقال سليمان عليه السلام : « كل العمى ولا عمى القلب[1] » .

وقال أحد الصوفية : « ما رأته العيون يُنسب إلى العلم ، وما رأته القلوب يُنسب إلى اليقين[2] » .

وقال أحمد بن خضرويه الصوفى : « الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعى قد أسمع ، فما التحير بعد هذا إلا من العمى » .

وقال أبو الحسين النورى الصوفى : « مقامات أهل النظر فى النظر شتى : فمنهم من كان نظرُه نظرَ التسلى ، ومنهم كان نظره نظر استفادة ، ومنهم من كان نظره نظر عيان المكاشفة ، ومنهم من كان نظره نظر المنافسة فى المشاهدة ، ومنهم من كان نظره نظر المشاكلة والمماثلة ، ومنهم من كان نظره نظر طيبة وملاحظة ، ومنهم من كان نظره نظر إشراف ومطالعة ، وكل منهم أهل النظر » .

فهل أراد بهذه الأنواع كلِّها نظر العين ؟ ...

وأنشأ أبو جعفر المنصور ملاجىءَ للمكفوفين والأيتام والقواعد من

---

(١) كتاب محاسن المساعى فى مناقب الإمام الأوزاعى ، ص ١٣٧ .

(٢) كتاب شوق أو صداقة أربعين سنة للأمير شكيب أرسلان ، ص ١٦٢ .

النساء ، وولى عليها من يدير شئونها ، فجاءه رجل من المتخلفين وولدُه معه فقال له : ألا ترى أصلحك الله أن تثبت اسمى مع القواعد ؟ .

فقال : ألا تعلم أن القواعد نساء، والله يقول : « والقواعد من النساء » ؟ فكيف أُثبت اسمك معهم وأنت رجل ؟ .

فقال الرجل المتخلف : أثبتنى إذن مع العميان . فقال : أما هذا فنعم وإن كنتَ مبصرا ، فالله تعالى يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » !! .

فقال الرجل المتخلف : وأثبت معى ولدى فى الأيتام .

فقال : وهذا أيضاً أفعله : فإنه من يكن أنت أباه فهو يتيم [١] .

وفى الحديث المرسل الصحيح عن عطاء : « إنا معاشر الأنبياء تنام عيونُنا ولا تنام قلوبنا » .

* * *

ومن مواطن التيسير الإسلامى على المكفوف قول الله تبارك وتعالى : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يُطِع الله ورسولَه يُدخلْه جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليما » .

والمعنى أنه ليس على الأعمى ولا على شبيهه كالأعرج والمريض حرجٌ أى إثم فى التخلف عن الغزو والجهاد ، لما للمكفوف من عذر ؛ ولا شك أن فى نفى الحرج عنه هنا مزيدَ اعتناء بأمره ، وتوسيعاً لدائرة الرخصة أمامه ،

(١) كتاب الأجوبة المسكنة ، ص ٥٥ .

وليس فى نفى الحرج عن المكفوف وشبهه نهى لهم عن الغزو ، أو تحريم للغزو عليهم، بل من أراده منهم فعل ، بل قالوا إن أجر مثلهم مضاعف فى الغزو ، وقد غزا عبد الله بن أم مكتوم وهو مكفوف البصر ، وكان يمسك الراية فى غزوة (القادسية) ومات فيها .

وقيل لو حُصر المسلمون فالفرض متوجه إلى الجميع بحسب الوُسع فى الجهاد !! .

* * *

وهذا لون آخر من ألوان الإنصاف الإلهى القرآنى للمكفوفين :

يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه العزيز : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يُدرِيك لعله يزّكّى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكّى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهّى ، كلا إنها تذكرة » .

نزلت هذه الآيات الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن ابن أمّ مكتوم الكفيف ، فمن هو ابن أم مكتوم ؟ ...

اسمه عبد الله ، أو الحصين ، والمشهور: عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم القرشى العامرى ؛ وأمه هى أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله بن عاتكة بن عامر ابن مخزوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها ، وهو من السابقين إلى الإسلام . وكان مؤذّنا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وهاجر إلى المدينة قبل قدوم الرسول إليها ، بعد مصعب بن عمير أو معه ، وقيل قدمها بعد بدر بيسير ، وقد روى له أبو داود والنسائى وابن ماجه .

واستخلفه الرسول على المدينة ثلاث عشرة مرة أثناء الغزوات ،

كما استخلفه الرسول فى حجة الوداع ، وهذا هو الصحيح . وليس بصحيح أنه استخلفه مرتين فقط ، وقد أشار النووى إلى ذلك فى « تهذيب الأسماء » .

وشهد ابن أم مكتوم واقعة القادسية ، وكان اللواء يومئذ معه . قال أنس : رأيته يوم القادسية وعليه درع ، وله راية سوداء . وقُتل يومئذ شهيدا ، وقيل رجع إلى المدينة ومات بها فى آخر خلافة عمر . والمشهور أنه مات شهيدا .

تروى السيرة أن ابن أم مكتوم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بدء الدعوة ، وعنده صناديد قريش وكبارها ، من أمثال أبى جهل والوليد ابن المغيرة وعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وهو مشغول بهم ، يدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يستجيبوا له ، وأن يُسلم بأسلامهم غيرُهم ، فلما بلغه ابنُ أم مكتوم قال له : يا رسول الله ، أقرئنى ، وعلمنى مما علمك الله . وكرر ذلك وهو لا يلحظ انشغال الرسول بدعوة القوم ، فكره الرسولُ قطعَه لكلامه ، وعَبَس فى وجهه ، وأعرض عنه إلى متابعة دعوة الآخرين ، فنزلت الآيات السالفة .

ويروى أن ابن أم مكتوم جاء ومعه قائد يبصر ، وهو لا يبصر ، حتى أدرك مجلسَ الرسول ، وجعل النبى يشير إلى قائده ليقف ، وابن أم مكتوم يدفعه وهو لا يبصر ، حتى عبس الرسول ، فعاتبه الله فى ذلك بهذه الآيات .

ويروى أيضا أن الرسول عقب انصرافه من المجلس ، بعد إعراضه عن ابن أم مكتوم ، أمسك الله بعضَ بصره ، ثم خفق برأسه ، فنزلت الآيات .

والآيات كما ترى إنذار صريح ، وتحذير واضح ، وعتاب شديد من الله لرسوله الكريم عليه الصلاة والتسليم ، وقد اتخذ الله رسوله هدفاً للتشريع

فى جلائل الأعمال ، حتى يكون ذلك أدعى إلى كمال الاستجابة وقوة الملاحظة من الآخرين ، والعظائم كفؤها العظماء ؛ ولذلك ألقى الله تبارك وتعالى على رسوله الأمين هذا الدرسَ القوى المتين ، ليكون خير عبرة لسائر المسلمين ، بل للناس أجمعين ، يعرفون منه كيف يحفظون المكفوف حقَّه ، وكيف يحافظون على شعوره .

وعلى الرغم من موقف الرسول السليم ، وعلى الرغم من عذره وانشغاله بدعوة الصناديد الذين يرجو أن يُسلم بإسلامهم كثيرون ، لم يترك الله سبحانه هذا الموقفَ يمر دون إلقاء ذلك الدرس البليغ فى توقير المكفوف ، وهذا تقدير أى تقدير .

ونقص عليك تفسير الآيات بإيجاز ملخَّصا عن تفسير الإمام الطبرى ليتضح لك معناها ومغزاها :

يقول الله تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى » . يعنى تعالى ذكرُه بقوله « عبس » قبض وجهه تكرهًا و « تولى » أى أعرض . « أن جاءه الأعمى » أى لأن جاءه الأعمى .

عن عائشة قالت : أنزلت « عبس وتولى » فى ابن أم مكتوم ، أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقول : أرشدنى ؛ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم من عظماء قريش ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول : أترى بما أقوله بأساً ؟ . فيقول : لا . ففى هذا أُنزلت (عبس وتولى) .

قال ابن زيد : « كان يقال : لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحى كتم هذا عن نفسه » .

« وما يدريك » يا محمد « لعله » أى هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه « يزكَّى » أى يتطهر من ذنوبه ويسلم ، « أو يذكر فتنفعه الذكرى » أى يعتبر فينفعه الاعتبار والاتعاظ .

« أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » ؟ ...

أما من استغنى بماله فأنت له تتعرض رجاءَ أن يسلم ، وأى شيء عليك أن لا يتطهر من كفره فيُسلم ؟ وأما هذا الأعمى الذى جاءك سعيا ، وهو يخشى الله ويتقيه ، فأنت عنهُ تُعرض ، وتتشاغل بغيره !!..

« كلا إنها تذكرة » !..

ليس الأمر كما تفعل يا محمد من أن تعبس فى وجه من جاءك يسعى وهو يخشى ، وتتصدى لمن استغنى . . .

إن هذه السورة تذكرة لك ولغيرك لا تُنْسَى !! . .

ولذلك كان الرسول صلوات الله عليه بعد ذلك يكرمه ، ويقول له إذا رآه : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ! . . . ويقول له : هل لك من حاجة ؟ . .

ويُروى أنه كان إذا أقبل على النبى قال له : ما حاجتك ؟ هل تريد من شيء ؟ . وإذا أراد الذهاب قال له : هل لك حاجة فى شيء ؟ ..

وروى أن الرسول ما عبس بعدها فى وجه فقير قط ، ولا تصدى لغنى ! .

ونرى رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم يبالغ فيما بعد فى تكريم ابن أم مكتوم ، فهو يستخلفه كما ذكرنا على المدينة ثلاث عشرة مرة ، لا مرة أو مرتين ، بل فى كل مرة من هذا العدد الكبير يجعله الرسول نائباً للسلطان

على المسلمين ، وأكاد ألمح فى هذا الاستخلاف المتكرر الكثير أمرين :

أولهما : تكرار الاعتذار النبيل من الرسول الجليل صلوات الله عليه ، وتكرار الترضية فى مقابل هذه الإهانة السابقة التى لم تكن مقصودة ولا متعمَّدة .

وثانيهما : لفت الأبصار والبصائر إلى حسن استغلال المكفوفين ، ووضعِهم فيما يمكن أن ينهضوا به من واجبات ؛ فابن أم مكتوم هنا رجل لم يوجب الله عليه الجهاد ، فهل يبقى فارغا بلا عمل ؟ . . . هل يبقى ساكناً فى المدينة بينما يخرج إخوانه للنضال والصيال ؟ . .

لا ، بل يوليه النبى أمرَ المدينة، ليكون ذلك تعليما لنا وتحريضاً على أن نحسن استغلال مواهب هؤلاء المكفوفين ، وبذلك نقدِّرهم من جهة ، ونستفيد منهم من جهة أخرى .

* * *

ولنلاحظ أن ذكر كلمة (الأعمى) هنا صراحةً له مناسبته ووجاهته . . كأن الله سبحانه يذكر هذا اللفظ صريحاً ليقول إن هذه الصفة التى قوبل صاحبُها بالعبوس هى التى كانت أخلق وأجدر بالإقبال والاهتمام ، وهذه إشارة ربانية دقيقة فيها عتاب وفيها تأديب !! .

ويقول السهيلى فى « الروض الانف[1] » :

« وفى قوله سبحانه (أن جاءه الأعمى) من الفقه أن لا غيبة فى ذكر الإنسان بما ظهر فى خِلقته من عمى أو عرج ، إلا أن يقصد به الازدراء ،

---

(١) الروض الأنف ، ج ١ ص ٢٢٨ .

فيلحق المأثم به ، لأنه من أفعال الجاهلين : قال الله تعالى : (أتتخذنا هزوا ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) .

وفى ذكره إياه بالعمى من الحكمة والإشارة اللطيفة التنبيه على موضع العتب ، لأنه قال (أن جاءه الأعمى) فذكر المجىء مع العمى ، وذلك ينبىء عن تجشم كلفة ، ومن تجشم القصد إليك على ضعفه ، فحقك الإقبال عليه لا الإعراض عنه ، فإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم معتوباً على توليه عن الأعمى فغيره أحقُّ بالعتب ، مع أنه لم يكن آمن بعد . ألا تراه يقول : (وما يدريك لعله يزكى) الآية ، ولو كان قد صح إيمانه وعُلم ذلك منه لم يُعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أعرض لكان العتب أشد والله أعلم .

وكذلك لم يكن ليخبر عنه ويسميه بالاسم المشتق من العمى دون الاسم المشتق من الإيمان والإسلام لو كان دخل فى الإسلام قبل ذلك والله أعلم » .

ويقول النيسابورى فى « تفسير غرائب القرآن »[1] :

« قالوا : وفى ذكر الأعمى نحو من الادّكار أيضاً ، لأن العمى يوجب العطف والرأفة عند ذوى الآداب غالباً ، لا التولى والعبوس ، ولا يخفى أن نظر النبى صلى الله عليه وسلم كان على أمر كلى ، هو رجاء إسلام قريش ، فإنه فى الظاهر أهم من إجابة رجل أعمى على الفور ، إلا أنه سبحانه عدَّ هذا الجزئىّ كلياً من جهة أخرى ، هى تطييب قلوب الفقراء والضعفاء ، وإهمال جانب أهل الغنى والثراء ، فإن هذا أدخل فى الإخلاص وابتغاء رضوان الله ، وذلك مظنة التهمة والرياء .

يحكى عن سفيان الثورى أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .

(١) تفسير غرائب القرآن للنيسابورى ، ج ٣ ص ٢٦ ، على هامش تفسير الطبرى .

وأيضاً فائدة الإرشادوالتعليم بالنسبة إلى هذا الأعمى أمر معلوم ، وبالنسبة إلى أولئك أمر موهوم ، لأنه جاء طالباً مسترشداً ، وأنهم جاءوا مستهزئين معاندين ، وتركُ المعلوم للموهوم خارج عن طريق الاحتياط ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله (وما يدريك لعله) لعلى الأعمى (يزكى) عما لا ينبغى ، (أو يذكر) يتعظ (فتنفعه الذكرى) فيفعل ماينبغى » .

ألا إن هذا الموقف مفخرة من مفاخر الإسلام ، يستطيع أن يفاخر به المسلمون جميعَ الذين يتحدثون عن الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية ، وأن يقولوا للعالم أجمع : هذا هو دين الإسلام ، دين الكرامة والقسطاس !!

° ° °

ثم تأتى مكانة المكفوف فى نظر فقهاء الإسلام . . .

جرت العادة عندنا على اعتبار المكفوف غير صالح تماما لكثير من الأمور والواجبات الاجتماعية ، كالإمامة والولاية فى الزواج والقضاء . . . . . إلخ . ولكننا حينما ننظر فى الفقه الإسلامى [1] نجد أن الأئمة قد حفظوا للمكفوف كرامته وراعوا شخصيته ، وإذا كانوا قد منعوه من بعض الأعمال فإنما فعلوا ذلك تيسيراً عليه ، لا تحقيراً له .

فمن احترام الفقهاء مثلا لشخصية المكفوف قولهم بوجوب الاجتهاد عليه فى الأوانى ، لأنه يعرف بالملمس والشم اعوجاج الإناء ، واضطراب الغطاء ، وحالة الماء ، وما إلى ذلك من العلامات . . . وكأن هذا إيحاء منهم إلى المكفوف بأن لا يتواكل ، أو يتكل على كفِّ بصره ، أو يعتمد على سواه ، بل عليه أن يتحرك ، وأن يستخدم مواهبه ، وأن يبذل جهده ، ويقدِّم ما يستطيع .

---

(١) اعتمدنا فى الأحكام الفقهية على ما ذكره الصلاح الصفدى فى « نكت الهميان » . ومن الواجب أن نجمع من كتب الفقه الإسلامية المختلفة كل ما يتعلق بالمكفوفين من أحكام ، ليكون ذلك مجموعا على حدة .

ويجوز له الاجتهاد فى أوقات الصلوات ، وإذا كان المبصر يستطيع هذا الاجتهاد بمكان الشمس أو مقدار الظل ، فإن المكفوف يستطيع أن يتوصل إلى التقدير بورْد يقرؤه ، أو عمل معهود يؤديه ؛ وكأن الإسلام يريد أن لا يجرح المكفوفَ فى شعوره إذا أحس فى نفسه العجز ، بل يدعوه إلى استغلال ملكاته وطاقاته بالأسلوب الذى يناسبه .

وجمهور العلماء على أن إمامة المكفوف والبصير سواء ، وخالف فى ذلك البعض . وقال أبو إسحق المروزى : إن المكفوف أولى فى الإمامة ، لأنه لا ينظر إلى ما يُلهيه أو يشغله ، فيكون أبعدَ عن تفرق القلب ، وأخشع فى أداء الصلاة .

وقال الفقهاء إن الجمعة تجب على الكفيف إذا وجد قائداً متبرعاً[1] ، أو قائداً بأجر وعند الكفيف مال يستطيع أن يدفع منه هذا الأجر ، أو كان يُحسن المشىَ بالعصا من غير قائد ، وهذا تقدير من الإسلام لمكانة المكفوف ، وخالف فى ذلك الإمام أبو حنيفة .

وفى إشارة الفقهاء إلى المكفوف الغنى الذى يستأجر القائدَ تشجيع ضمنى للمكفوف على الاحتراف والعمل ، حتى يكون ذا مال فيستطيع أن يستأجر قائدا ليؤدى عبادة لربه .

ونحن المطالبون اليوم بالبحث عن الوسائل المستحدثة لقيادة المكفوف وإرشاده .

---

(١) يتحدث المرحوم الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل فى كتابه : «عمر بن عبد العزيز» عن إصلاحات عمر فيقول :

« . . . وشمل عطفه المرضى وذوى العاهات فأمر بإحصائهم جميعا ، وأمر بقائد لكل أعمى ، وبخادم لمن به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة » ، ص ١٣١ .

وتجب على المكفوف الجماعة ، فقد أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل مكفوف فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد ؛ وسأله أن يرخّص له ، فرخص له ، فلما ولّى دعاه النبي وقال له : هل تسمع النداء ؟ قال : نعم . قال : أجب . وهذا يجمع بين التقدير والتيسير .

ولا يجب عليه الحج إذا لم يجد قائدا متبرعا ، أو وجد القائد ولكنه عجز عن أجرته ، أما إذا وجد القائد المتبرع ، أو قدر على الأجرة لزمه الحج . وبذلك يحترز الإسلام من تكليف المكفوف بما لا يطيق ، أو بما يشق عليه .

وقال مالك وأبو حنيفة إن المكفوف يجوز منه البيع والشراء ، والبيع والشراء عمليتان تعتمدان على الرؤية والبصر . فهل تمنع المكفوف منهما بسبب ذلك ؟ ..

إن المكفوف يستطيع اختبار المبيع أو المشترَى باللمس أو الشم ، وهناك عالم نباتي مكفوف يستطيع أن يميز بين آلاف من أنواع الأزهار والنباتات بلمسها باليدين والشفتين وشمها ،

ومن قبلُ قال شوقي : « ويد الضرير وراءها عين ترى » .

ويجوز للمكفوف أن يكون ولياً في الزواج ، ورُوي أن شعيبا عليه السلام زوّج بنته وهو مكفوف .

والإمام الشافعي لا يعد كَفَّ البصير عيبا في الزواج ولا في الكفاءة ، لا في الرجل ولا في المرأة . ولو اشترط أحدُ الزوجين البصرَ وبان خلافُ ذلك يصح الزواج . وخالف في هذا بعض الفقهاء .

ولو ذبح المكفوفُ ذبيحةً حلت ذبيحتُه ، وإن كان ذلك مكروها ،

لأن مكان الذبح وعروقه تحتاج إلى دقة، فكأن الفقهاء لاحظوا أن المكفوف يستطيع إدراك هذه القدرة .

بل وذهب بعض الفقهاء إلى أن المكفوف يجوز له الصيد بالكلاب المعلّمة، ونحن نعلم ما فى الصيد بهذه الطريقة الخاصة من جهد وملاحظة، وهذا الحكم تقدير فقهى لمواهب المكفوف وطاقاته .

ولم يوجب الإسلامُ الجهاد على المكفوف، وذلك لأن الجهاد يحتاج إلى حركة وملاحظة، وتقدم وتأخر، وتطلع وتبصر، وهذا لا يتوافر للمكفوف، فكان ذلك من الإسلام رحمة وتيسيرا .

ويقرر بعض الفقهاء أن من نذر عتقَ رقبة (ويُشترط فى هذه الرقبة أن تكون خالية من العيوب الجارحة) ثم عتق عبدًا مكفوفا، جاز وقضى النذر، ولا يُعد كفُّ البصر فيه عيبا .

ويجوز عند بعض الفقهاء أن يتولى المكفوف القضاءَ، لأن شعيبا عليه السلام كان مكفوفا، ومع ذلك كان نبيا، وكان يقضى بين قومه فى أمورهم المختلفة .

ولا يشترط فى النبوة البصر، ولذلك كان من الأنبياء من هو كفيف، ورتبة النبوة رتبة رفيعة سامية لا يصل إليها إلا المختارون ...

واجبنا الإسلامي نحو المكفوفين

نريد أن نعرف واجبنا الإسلامى نحو المكفوفين : وقد سبق أن الإسلام الحنيف قد حفظ على المكفوف كرامتَه ، وصان له حرمته ، وطالب له بحقوقه ، ولم يرهقه بواجبات لا يستطيعها بيسر . ويجتمع تكريم الإسلام الحنيف للمكفوف فى كلمتين هما كما قلنا من قبل : التقدير والتيسير ، فالإسلام يعتبر المكفوفَ إنسانا له شخصيته ومكانته ، وهو ييسر عليه فى مواطن العسر والبأس .

ونستطيع أن ندرك تكريم الإسلام للمكفوف بصورة أوضح إذا عرفنا شأنَ ذلك المكفوف قبل الإسلام ، فقديما كانت بعض الأمم تعتبر المكفوف شخصا ناقص العقل ، وبعضها تعتقد أن روحا شريرة قد تجسدته ، وهذا الاعتقاد كان يؤثر من غير شك تأثيراً خطيراً فى مركزه الاجتماعى ، وفى نظرة الناس إليه ومعاملتهم له : وشرائع (مانو) تنسب النجاسة إلى المكفوفين ، وكذلك اليهود كانوا يمنعون المكفوفَ من أن يكون كاهنا[1] ...

أما فى الإسلام فنحن نرى كيف كان تكريم المكفوفين ممثلا فى شخص عبد الله بن أم مكتوم . وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب فى غير هذا الموطن ، ونحن نسمع الحديث القدسى يقول : « إذا أخذتُ كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة » . وروى أنس عن النبى صلوات الله عليه عن جبريل عن رب العزة ، قال : « يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه (أى عينيه) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى » ... قال

---

(١) مجلة الهلال ، عدد مايو سنة ١٩٢٨ م .

أنس : فلقد رأيت أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم !...

وليس معنى هذا أن الإسلام يحبب فى كف البصر ، أو لا يقيم للعين مكانة واعتبارا... فإن الإسلام يعتبر العين نعمةً من أجل النعم التى منَّ الله بها على عباده ، ولذلك نراه يذكّرنا بفضله العظيم فى ذلك ، فيقول فى سورة البلد : « ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين » ؟ ويقول فى سورة النحل : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ..

والقرآن يجعل « قرةَ العين » وهى صحتها وسعادتها وسكونها وسرورها من أجلِّ آلاء الله على عباده ، فيقول مخاطبا مريم عليها السلام : « فكلى واشربى وقَرِّى عينا » . ويقول على لسان عباد الرحمن : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إماما » . ويقول مخاطبا موسى عليه السلام : « فرددناكَ إلى أمك كى تقر عينُها ولا تحزن » .

ويجعل القرآن إذهابَ البصر أو ذهابه محنةً ونقمة ، فيقول : « فأغشيناهم فهم لا يُبصرون » . ويقول : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراطَ فأنَّى يبصرون » . ويقول : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينَهم فذوقوا عذابى ونُذُر » .

ومن تقدير الإسلام للبصر أنه شرع القصاصَ فى العين ، فمن أضاع عينَ شخص عامداً أضعنا عينَه بدلها قصاصا . وتشريعُ ذلك القصاص يردع عن عدوان الغير على البصر ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وكتبنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفس ، والعينَ بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن » . وأكاد أفهم نوعاً من العناية بالعين فى ذكرها بعد النفس .

ومن عناية الإسلام بالبصر قولُ الرسول عليه الصلاة والسلام :
« حُرِّمت النارُ على عين بكت من خشية الله ، وحُرِّمت النار على عين سهرت في سبيل الله ، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله ، أو عين فُقِئت في سبيل الله [١] » .

وقوله : « حَرُم على عينين أن تنالهما النار : عين بكت من خشية الله ؛ وعين باتت تحرس الإسلامَ وأهلَه من أهل الكفر [٢] » .

ومن مظاهر عناية الإسلام بالبصر ما جاء في الحديث :

« ثلاثة يجلين البصر : النظرُ إلى الخضرة ، وإلى الماء الجارى ، وإلى الوجه الحسن [٣] » .

وفى رواية أخرى جاء الحديث هكذا : « ثلاث يزدن فى قوة البصر : الكحل بالإثمد [٤] ، والنظر إلى الخضرة ، والنظر إلى الوجه الحسن [٥] » .

* * *

ولكن الإسلام مع عنايته الشديدة بالعين واحترامه لقيمتها وشأنها .

---

(١) رواه الطبراني فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك ، عن أبى ريحانة ، صحيح ، (الجامع الصغير للسيوطى) .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان (الجامع الصغير) ، عن وأبي هريرة ، صحيح .

(٣) رواه الحاكم فى تاريخه ، عن على وعن ابن عمر ؛ وأبو نعيم فى الطب عن عائشة ، الخرائطى فى اعتلال القلوب عن أبي سعيد (الجامع الصغير للسيوطى ، وعليه علامة الضعيف) .

(٤) الإثمد بكسر الهمزة : حجر الكحل .

(٥) رواه أبو الحسن الفراء فى فوائده عن بريدة (الجامع الصغير للسيوطى ، وعليه علامة الضعيف) .

يذكرنا بأن للعين أخطاراً وأضراراً إذا أُسيء استعمالها واستخدامها ؛ فالعين هي بريد الفاحشة كما ورد ، وهي التي تقود صاحبها إلى المهالك والمعاطب ، ومن هنا رأى بعض الفلاسفة أن السعادة في الحياة هي أن لا يرى الإنسان شيئا ؛ والعين هي التي يساء استخدامُها فيستعملها صاحبها في التجسس وتتبع العورات ، وهنا تضيع كرامتها في نظر الإسلام وتقل قيمتُها ، حتى ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لو اطَّلع شخصٌ بعينه من ثقب على قوم في دارهم ليتجسس عليهم ، ففقأ صاحبُ الدار عينَه فلا قصاص عليه !! . .

والعين هي التي يساء استخدامُها ، فيستعملها صاحبُها في الحسد ، ولقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العين لَتُدخل الجملَ القِدْرَ والرجلَ القبر » . وقال : « فلو كان شيء سَبَق القدَر لسبقته العين » . وفي رواية : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين » .

والعين الحاسدة عين شرِّيرة خطيرة ، لا يقام لها ميزان ، ولا يبقى لها إكرام في نظر الإسلام ، ولذلك أمرنا الله بأن نستعيذ به من شرها ، فقال : « قل أعوذ برب الفَلَق ، من شر ما خَلَق ، ومن شر غاسق إذا وَقَب ، ومن شر النفَّاثات في العُقَد ، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد » .

والعين هي التي يساء استخدامها حين يستخدمها صاحبها في الطموح إلى ما يملكه الغير ، أو في التطلُّع إلى زينة الحياة الباطلة ، فتجلب على صاحبها الشقاءَ والبلاء ، ومن هنا تكون شرًّا عليه ووَبالا ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلوات الله عليه في سورة طه : « ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجا منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى » .

وكم من نظرةٍ خائنة تفضى بصاحبها إلى نكبة ، والله من وراء ذلك رقيب وحسيب ، ولذلك يقول تبارك وتعالى : « يعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور » .

ويقول الشاعر فى ذلك :

كل الحوادث مبداها من النظرِ ومُعظم النار من مستصغَرِ الشررِ
والمرء ما دام ذا عينٍ يقلِّبها فى أعين العِينِ موقوفٌ على الخطر
كم نظرةٍ فعلت فى قلب صاحبها فعلَ السهام ، بلا قوس ولا وتر
يسر ناظرَه ما ضرَّ خاطرَه لا مرحباً بسرور جاء بالضرر

° ° °

وأعتقد أن أهم واجب يطالبنا به الإسلام فيما يختص بالمكفوفين هو أن نعمل بكل حيلة ووسيلة لقطع السبيل على كف البصر، حتى لا ينتشر أو يكثر ..

لا نريد بذلك أن نصادم القضاء والقدر ، ولا أن نقف فى وجه الإرادة الإلهية الغالبة ، فهناك من غير شك حالات أقوى من طاقتنا وأسبق من أيدينا ، تأتى بكف البصر ، وهذه لا حيلة لنا فيها ولا وسيلة لنا معها ، إلا حسن التصرف لها ، وجميل التخفيف من وقعها .

ولكننا فيما عدا ذلك نستطيع أن نفعل الكثير والكثير ، لكى يقل كف البصر فينا . وإذا تذكرنا الأسبابَ العديدة التى تؤدِّى إلى انتشار كف البصر فى بلادنا تذكرنا كذلك أننا نستطيع علاجَ الممكن من هذه الأسباب : فهناك القضاءُ على انبعاث التراب والغبار ، وهناك الوقاية من أمراض العيون الكثيرة ، والمسارعة بعلاج ما يحدث منها ، وهناك محاربة الجُدرى وغيره من

العلل التي تُودِي بالبصر حين الإهمال فيها والتسويف معها ، وهناك تقوية العيون الضعيفة بمختلف الوسائل .

وإنما يأمرنا الإسلام بذلك ويدعونا إليه ويحرضنا عليه أقوى التحريض بمقتضى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: « لا ضرار ولا ضِرار[1] » ، وبمقتضى القاعدة الشرعية الأساسية وهي أن دفْعَ المضار مقدَّم على جلب المصالح ، وإذا كان الإسلام يحرضنا على منع الضرر بأية وسيلة ، فإنه يكون من أكبر الجرائم إذن الاعتداءُ على العين بما يُذهبها أو يزيل قوةَ إبصارها بسبب مباشر أو غير مباشر ، وأصارح بأني لم أقشعر ولم أتميز من الغيظ كما كان يصيبني وأنا أطالع جرائمَ « سمل العيون » التي حدثت في التاريخ الشرقي والغربي استجابةً للشهوات ، أو حرصاً على الأحقاد والأضغان . أو تكالباً على متاع الحياة الزائل : وسَمْلُ العيون هو فقؤها بآلة محماة أو غير محماة ، وقد حدثت هذه الجريمة مع أشد الأسف مرات ومرات خلال عصور التاريخ ، بالرغم من تحذير الإسلام الشديد من المثْلة والاعتداء على الإنسان . .

وقد يسارع هنا معترضٌ يشتبه عليه موقف بموقف ، أو أمر بأمر ، فيقول : ولماذا إذن سمل النبي صلى الله عليه وسلم عيون بعض الناس على عهده ، كما جاء في كتب السير النبوية ؟ . . .

ونحن لا ننكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد سمل عيونَ بعض المجرمين في عهده على سبيل التأديب والعقوبة والقصاص العادل ، وهذا

---

(١) حديث حسن ، رواه ابن ماجه والدار قطني وغيرهما مسندا ، ورواه مالك مرسلا . وقيل إن الضرر هو أن يدخل على غيره ضررا بما ينتفع هو به ، والضرار أن يدخل على غيره ضررا بلا منفعة له به .

العمـــل من رسول الله يختلف اختلافا كبيراً عن حوادث السمل التى أشرتُ إليها، والتى كانت تحدث تشفِّيا ورغبةً فى انتقام خسيس، أو تنافساً على ملك، أو قضاءً لشهوة خبيثة، أو استجابة لرشوة أثيمة، أو ما شابه ذلك من وضيع الأغراض.

ويحسن بنا أولا أن نتعرف ذلك الموقفَ النبوى لنستطيع تصوُّرَ ظروفه، ويسهل علينا وجهُ الحكم المنصف فيه، فقد روتُ السيرة النبوية أنه حدث سنة ست للهجرة أن قدِمَ نفَرٌ من قبيلتى عُرَيْنَة وعُكْل[1] على النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة، وأظهروا إسلامَهم، فصار لهم بمقتضى هذا الإظهار ماللمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وأكرمَ النبى صلى الله عليه وسلم وفادتَهم وأحسن معاملتَهم.

وكانوا مجهودين مضرورين قد قاربوا الهلاك، أوهكذا تظاهروا، فآواهم النبى وأنزلهم عنده، وأعانهم على جَهدهم بما استطاع، وأراهم من سماحة نفسه النبيلة فنوناً!. ولكن جوَّ المدينة لم يلائمهم، أوهكذا قالوا، وطلبوا من رسول الله عليه صلوات الله أن يختار لهم مكاناً آخر يستطبُّون فيه، ويكون جوُّه وهواؤه أصلح مما فى المدينة...

فاختار لهم النبى — زيادةً منه فى إكرامهم والعطف عليهم — أن يذهبوا إلى مكان يسمى «فَيْفَاء الخَبَار[2]» من وراء الحمى، وكان فى هذا المكان إبلُ

---

(١) فى مادة (عرن) فى القاموس المحيط: «وكجهينة قبيلة منهم العرنيون المرتدون» ج ٤ ص ٢٤٧. وفى مادة. (عكل): «وعكل بالضم بلدوأبوقبيلة فيهم غباوة اسمه عوف بن عبد مناة حضنته أمة تدعى عكل فلقب بها» ج ٤ ص ٢٠.

(٢) فيفاء الخبار: موضع بالعقيق، وفيفاء الغزال بمكة، حيث ينزل منها إلى الأبطح (القاموس).

الصدقة أو إبل للنبي نفسه ، وكان هناك رُعاةٌ مسلمون يرعونها من قِبل النبي ، ونصحهم الرسول وهم ذاهبون بأن يشربوا من ألبان هذه الابل ليصحُّوا من علتهم ، فإن فى لبن النِّياق — كما روى ابن القيم — جلاءً وتليينا وإدراراً وتلطيفاً وتفتيحاً للسُّدَد ، إذ كان أكثر رعيها من الشيح والقيصوم والبابونج والأقحوان والأذخر ، وغير ذلك من الأدوية النافعة .

وتمتع أولئك القوم العرنيون والعكليون بما هيَّأه لهم الرسولُ الكريم عليه الصلاة والتسليم من خير وفضل وبر ، وما أسرع ما شُفوا من مرضهم واستردوا صحتهم ، بفضل تلك العناية النبوية والخبرة المحمدية .

وهنا ... وهنا أدركتهم طبيعة اللئام الأخسّاء ، وثار فيهم خبثُ الشياطين المفسدين ، فإذا هم يرتدون عن الإسلام إلى الكفران ، والمرتد عن الإسلام إلى الكفر يستوجب لنفسه القتل ، وإذا هم يسملون أعينَ الرعاة الذين رعوا لهم الإبل ، وسقوهم منها اللبن ، وأضافوهم فى مكانهم ، وهذه جريمة شنيعة تنطوى على البغى والغدر وفحش الخيانة ، وإذا هم يمثّلون بجثث القتلى الذين قتلوهم ، والتمثيل بالجثث جريمة فظيعة نكراء ، لا تقرها شرائع الحق فى الأرض والسماء ؛ وإذا هم يأخذون ما كان هناك من مال بغير حق لهم فيه أو شبهة حق ، وإذا هم يغتصبون إبلَ الصدقة — أو إبل الرسول — ويسرقونها ويهربون بها ، وإذا هم بعد هذا وذاك وذلك كلّه يقطعون الطريق ، ويخرجون على الرسول وأصحابه ، ويجاهرون المسلمين بالمحاربة والعدوان ...

وليس وراء ذلك بغى أو طغيان ، وليس وراء ذلك جحود أو كفران ، وليس وراء ذلك تبجح أو خسران . . .

فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم سريةً كان أمير الخيل فيها سعيد ابن زيد ، فقبضوا عليهم ، وردُّوا منهم الإبلَ التى سرقوها ؛ وأمر النبي فيهم بالعقاب الزاجر الرادع ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسُملت عيونُهم ،

وتُركوا حتى ماتوا جزاء بغيهم وعدوانهم ونكرانهم للجميل بعد الجميل. وخروجهم على جماعة المسلمين التى لو لم تأخذهم ببليغ العقاب لاضطرب أمرُها، وضاع كيانها، وانتشرت الفوضى فيها، فتضيع رءوسُ عشرات ومئات، إذ يتجارأ على السلب والنهب والقتل وغيره من فواحش الجرائم كلُّ خبيث وكل شيطان مَريد من أمثال هؤلاء...

ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المثلة بعد ذلك: بل يُرْوى أن هذه الحادثة حدثت قبل نزول آيات الحدود، وأن الله سبحانه مع هذه الظروف كلها عاتب رسوله على ما فعل، ونزل قول الله تبارك وتعالى: « إنما جزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسوله، ويسعَوْن فى الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلُهم من خِلاف، أو ينفَوْا من الأرض، ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم[1] ».

فهل يبقى بعد ذلك وجه للمقارنة بين عمل الرسول وعملِ الآخرين فى الاعتداء على العيون؟... ولماذا لا يقال: إن أقل ما يُفْهَم من عقاب الرسول لهؤلاء هو غضبُه لضياع عيون الرعاة، فأراد أن يذيق هؤلاء ما فى ضياع العيون فى حالة العدوان من شدة وخسران، وبذلك يكون قد ألقى درساً بليغاً عنيفاً فى المحافظة على تلك العيون؟!.. وذلك بجانب ما هناك من دواعٍ فردية وجماعية أخرى لتوقيع ذلك العقاب...

جاء فى تفسير (المنار) عند تفسير الآيتين السابقتين هذه العبارة[2]:

(١) انظر فى قصة سمل عيون العرنيين والعكليين زاد المعاد ج ٣ ص ٧٨؛ وعيون الأثر، ج٢ ص ٨٨.

(٢) انظر تفسير المنار، ج ٦ ص ٣٥٤.

« ومجموعُ الروايات فى قصة العرنيين تفيد أنهم جعلوا الإسلامَ خديعةً للسلب والنهب ، وأنهم سملوا أعينَ الرعاة ، ثم قتلوهم ومثَّلوا بهم ، وفى بعضها أنهم اعتدوا على الأعراض أيضًا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبهم بمثل عقوبتهم ، عملًا بقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلُها) ، وقوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله) إن صح أن الآية نزلت بعد عقابهم .

ولم يعف عنهم كعادته ، لئلا يتجرأ على مثل فِعلتهم أمثالُهم من أعراب المشركين وغيرهم ، فأراد بذلك القصاصَ وسدَّ الذريعة ، وأن الله تعالى أنزل الآية بهذا التشديد فى العقاب على مثل هذا الإفساد ، لهذه الحكمة ، وهى سد ذريعة هذه المفسدة .

ولكنه حرَّم مع ذلك كلِّه المثلةَ ، وهى تشويه الأعضاء ، ولا مفسدة أشد وأقبح من سلب الأمن على الأنفس والأعراض والأموال الناطقة والصامتة ؛ فرب عصبة من المفسدين تسلب الأمانَ والاطمئنان من أهل ولاية كبيرة ، ورب عصبة مفسدة تُعاقَب بهذه العقوبات المنصوصة فى الآية فتطهر الأرضُ من أمثالها زمنًا طويلا .

والتشديد فى سد الذرائع ركنٌ من أركان السياسة ، لا تزال جميعُ الدول تحافظ عليه » .

٭ ٭ ٭

ومن الحقوق التى يهيئها الإسلامُ للمكفوف أن يأكل عند الحاجة من بيوت أهله أو أقربائه ، وأن يشاركهم فى طعامهم من غير أن يجد هو فى

نفسه غضاضةً من ذلك ، ومن غير أن يجدوا هم فى أنفسهم غضاضة من ذلك.
وفى هذا المقام جاء قول الله تعالى فى سورة النور

« ليس على الأعمى حرجٌ ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم ، أن تأكلوا من بيوتكم ، أو بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم ، أوما ملكتم مفاتحه ، أو صديقِكم ؛ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعًا أو أشتاتًا ، فإذا دخلتم بيوتا فسلِّموا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

رُوىَ أن بعض المكفوفين قبل نزول هذه الآية الكريمة كانوا يتحرَّجون من مؤاكلة المبصرين ، لأن المكفوف قد يصدر عنه من الحركات أو التصرفات ما يتقزَّز منه البصير ، كأنْ تطيش يدُه إلى غير ما يريد ، فيقلب مستقيما ، أو يُسيل متجمعا ، فينفر منه مَنْ يجالسه فى الطعام ، أو قد يتوهم هو ذلك ، فيتوجس خيفةً من مجالسة المبصرين على الطعام وينفر من ذلك ، فتنقطع بعضُ صلاته الاجتماعية بالناس ؛ وكذلك الأعرج والمريض قد يعرض لهما مثل هذا ؛ ولذلك كانت هذه الطوائف الثلاث قديما تنفر من مؤاكلة مَنْ مَنّ الله عليهم بسلامة الأعضاء والجوارح .

وكذلك كان من الأصحاء من يتحاشى مخالطةَ أولئك فى الطعام ، مراعين مثلا فى المكفوف أنه لا يرى الطعام الجيد الذى تشتهيه نفسُه ، ويستحيِّ أن يطلبه ، وقد تمتد إلى هذا الطعام يدُ غيره دون أن يشعر برغبته فيَحْرمه هذه الرغبة ...

وكذلك كان من عادة الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله إذا خرجوا إلى الجهاد، وبقى وراءهم المكفوفون والمرضى، أباحوا لهم أن يأخذوا من بيوتهم ما يحتاجون إليه من طعام، ولكن هؤلاء الذين أصيبوا بكف البصر أو العرج أو المرض كانوا يتحرجون من ذلك وينفرون منه.

فنزلت هذه الآية الكريمة، لترفع الحرج فى هذا الباب، ولتقول للمكفوفين وأمثالهم: إنه لا مانع يمنعكم من مجالسة المبصرين على الطعام، ولعل ذلك يكون من الخير، فإن انفرادكم فى الطعام يولد فى نفوسكم شعورَ الوحدة والعزلة والانقطاع عن المجتمع، وأما مشاركتكم لإخوانكم المبصرين فى الطعام فتعويد على روح الألفة والاجتماع والأخوة والمحبة.

ونزلت الآية لتقول للمبصرين: إن الأَوْلَى بكم أن تحققوا ذلك الاجتماعَ على الطعام بينكم وبين المكفوفين وأمثالهم؛ حتى لا يشعروا بالنفور منكم، أو يعتبوا عليكم، أو يظنوا بكم الإهمالَ لهم.

ومكارمُ الأخلاق توصى بمثل هذا الأسلوب.

ولتقول لهؤلاء وهؤلاء: إنه لا عيب ولا حرج ولا مانع من أن يأخذ الكفيفُ وأمثالُه ما يحتاجون إليه من بيوت أهليهم وأصدقائهم، ما داموا محتاجين، ومادام أصحابُ هذه البيوت قد أذنوا فى ذلك، سواء أكان الأخذ أثناء حضورهم أم فى غيبتهم.

وفى هذه الآية الكريمة من التوجيه إلى دقائق العلاقات الاجتماعية بين المبصرين والمكفوفين ما فيها، مما لو تدبرناه حقَّ تدبره لأدركنا أن القرآن الكريم يحبِّبنا فى توطيد العلاقات الروحية والمادية بين هؤلاء وهؤلاء على أساس متين من تبادل التقدير والاحترام وعواطف البر والخير.

ويجب أن نلاحظ أن مثل هذا التيسير الذى جاءت به تلك الآية الكريمة لا يتعارض مع تحريض الإسلام كلَّ مستطيعٍ العملَ على أن يعمل ليكسب قوتَه بعرق جبينه ؛ فإن الآية تشير إلى أن العاجزين حسياً الذين لا يستطيعون الكسب ولا يجدون القوت ، يجوز لهم أن يأخذوا بقدر حاجتهم من مال أهلِهم أو إخوانهم ، مع تحقق الرضى وسماحة النفس من هؤلاء وهؤلاء .

والإسلام بعد هذا أو قبله يحرّض القادرين تحريضاً قوياً جلياً على الاعتماد على الله وعلى أنفسهم ، وأن يُبعدوا السؤالَ والاستعانة بالغير عن ميدان تفكيرهم : ولذلك رُوى عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يكفل لى أن لا يسألَ الناسَ شيئاً ، وأتكفل له بالجنة » ؟ فقلت : أنا . فكان ثوبان لا يسأل أحدًا شيئاً[1] .

وما أقوى تحريضَ الإسلامِ أهليه على أن يأكلوا من عمل أيديهم . يقول الله تبارك وتعالى : « فإذا قُضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » . ويقول : « هو الذى جعل لكم الأرضَ ذَلُولاً ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لأن يحتطب أحدُكم حزمةً على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه »[2] . ويقول : « كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده »[3] . ويقول : « ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبيَّ الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده »[3] .

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

فالمكفوف إن لم يجد وسيلةً للارتزاق أخذَ بقدر حاجته ، واستعان بغيره على ضرورته ، ولكن إذا تهيأت له أسباب العمل والاكتساب كان واجباً عليه أن يبذل جهده ، ويفرز عرقه ، ويأكل من كسب يده ، فذلك أليق به ، وأشرف له .

* * *

والإسلام يوجب علينا أن لا نتجاهل المكفوفَ ، ولو لم يحس هو بوجودنا ، إذ الواجب علينا أن نُشعره بوجودنا إذا قدِمنا عليه ، أو قدم هو علينا ، وإنه لمِنَ العيب الفاضح أن يستغل المبصر كونَ المكفوف لا يراه ، فيمر به مرَّ اللئام ، لا يحييه ولا يحدِّثه ، ولا يقدّم إليه ما يمكنه من مشاركة وجدانية ، أو مسامرة إخوانية ، أو معاونة عادية وهذا رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يحرضنا على حسن التفنن في إتيان الخير فيقول : « لا تحقرن من المعروفِ شيئاً ، ولو أن تلق أخاك بوجه طلق » .

ولا شك أن الذوق السليم يأبى ذلك التجاهل كلَّ الإباء ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركُ السلام على الضرير خيانة »[1] وليس ذلك لأن المكفوف سيستفيد من سلامك عليه فائدة مادية ، فإنه لن يأكل منه ولن يشرب ، ولكن إلقاءَ السلام عليه منك ابتداءً يشعره باحترامك له ، وحفظِك حقَّه عندك ، فيرضيه ذلك ويُسعدُ نفسه

بخلاف ما لو زللت فتركت السلام عليه ، فإن ضميرك سيؤنبك كثيراً ، إذا لم يكن غافيا ؛ ولو علم المكفوفُ بذلك لنال من نفسه منالا شديداً .

وأكاد أفهم أن الحديث النبوى السابق لا يريد الاقتصار على السلام

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس .

فقط ، وإنما هو ضربُ مثلٍ لخطورة إهمال المبصر حقَّ المكفوف ، فتركك السلامَ على المكفوف خيانة فى نظر الإسلام ، وتركُك لإرشاده وأنت ترى حيرتَه خيانة ، وعدمُ تحذيره مما سيقع فيه خيانة ، وعدمُ السؤال عنه عند غيبته خيانة ، وعدم عيادتك له وهو مريض خيانة ، وعدم نصحك له وأنت تراه معرَّضا للخطأ خيانة ، وعدم معاونته فيما يحتاج فيه إلى المعاونة خيانة ... وهكذا .

ولقد رُوى عن أنس ـ وهو مما يرفعه ـ : « من قاد أعمى أربعين خُطوةً لم تمسَّه النار »[١] . وفى رواية : « من قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة »[٢] .

ومن الواجب علينا نحو المكفوف أن نلاحظ ما تتعرض له نفسُه أحياناً من انفعال خاص بسبب تصرف صغير من أحدنا ، أو بسبب كلمة نابية يلفظها فمٌ غير واعٍ أو غير حكيم ، وأن نحسن التعجيلَ بإصلاح ذلك الانفعال ، حتى لا يتضاعف ويتعقد ، ويستقر فى طوايا نفسه .

فإذا بدرت مثلا من إنسان كلمةٌ جافية للمكفوف فتألم منها ، فإننا نستطيع بسرعة أن نزيل أثرها ، أو نخفف وقعَها بكلمة طيبة[٣] ، والحلو يأتى على المر فيمحوه كما يقولون ، ونسمات الأصيل تكون خير تكفير عن لفح الهجير .

فلنفرض مثلا أن سفيها قال لمكفوف : «يا أعمى» بلهجة ساخرة أغضبته ، فإننا نستطيع أن نردد له قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يُنسب إليه :

---

(١) ذكره نكت الهميان ، ص ٣٩ .
(٢) التاج الجامع للأصول ، ج ٥ ص ٦٥ .
(٣) فى الحديث : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

« ليس الأعمى من عمى بصرُه ، ولكن الأعمى من عميت بصيرتُه » ، وهو معنى قوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصارُ ، ولكن تعمى القلوبُ التى فى الصدور » .

ولقد سمعتْ عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلاً يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا .

فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا ، والله لو ددتُ أن الله وهب لى كنه محبته ، ولم يبق منى جارحة إلا أخذها !...

يجب أن نكون أصحاب ذوق ورقة ولطف فى معاملة المكفوف ، وأن نأخذ لنا القدوة من مثل ما ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى (أسرار التنزيل) ، فقد ذكر أن رجلا من أهل الفتوة خطب امرأة ، وقبل الدخول بها ظهر فيها جُدرى ذهب بعينها ، فتظاهر الرجل بكف البصر وقال : لقد ظهر فى عينيَّ نوعُ ضعفٍ وظلمة . ثم قال : عميتُ .

فزُفت إليه ، ثم إنها ماتت بعد عشرين سنة . ففتح الرجل عينيه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما عميتُ ، ولكنى تعاميتُ حذَرًا أن تحزن المرأة . فقيل له : قد سبقت الفتيان !...

وهذا الموقف فيه مثل أعلى يجب أن نتطلع إليه ؛ وأن نعتبر به ، وإن لم نستَطع بلوغَه ! ...

* * *

والإسلام يوجب علينا للمكفوف أن نحترم شخصيتَه ، وأن نرعى حرمته ؛ فإن بعض الناس يخطئون فى حقِّ الكفيف خطا شنيعا حينما

يستهينون بوجوده ، فلا يعطونه من الهيبة ما يعطونه المبصر ، فقد يستبيحون لأنفسهم إتيانَ أشياء فى حضرة الكفيف لا يأتونها فى حضرة المبصر ، وقد يتكلمون عند وجود الكفيف بما لا يتكلمون به عند وجود المبصر ، وقد يُبدون فى حضرته ما لا يبدونه فى حضرة المبصر ، ظنا منهم أن كفَّ البصر يُضعف شخصية صاحبه ، فلا يظل له من الهيبة والاحترام ما للمبصر ، وذلك تفكير سقيم ، وخطأ عظيم . . .

والإسلام يقيم للمكفوف اعتبارَه ، ويحترم شخصيته ، ولا يهضمها حقّها ، فبعضُ الفقهاء مثلا يقول : إذا اجتمع المكفوفُ بالمرأة وحدهما كانت خلوة صحيحة ... ومن مواقف احترام الإسلام لشخصية المكفوف ما وقع من النبى صلى الله عليه وسلم عندما دخل عليه فى بيته ابنُ أم مكتوم ، وكان مع النبى زوجتان من زوجاته ، فأمرهما بالاحتجاب منه ، فقالتا : أوليس أعمى يارسول الله ؟ فأجابهما : أفعمياوان أنتما ؟ ..

وهذا الجواب يتضمن احترامَ الرسول لشخصية المكفوف .

ومن الآداب الإسلامية التى تتصل باحترامنا للمكفوف ألاّ نتركه فى مجلسنا جانبا ، ثم نتحدث نحن فيما بيننا فليس هذا من الذوق فى شيء ، والإسلام يوصى بأنه إذا كان هناك ثلاثة فى المجلس أن لا يتناجى اثنان دون الثالث .

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث »[1] .

---

(١) حديث متفق عليه ، ورواه أبوداود وزاد : «قال أبو صالح : قلت لابن عمر : فأربعة؟ قال : لايضرك» . والنجوى هى أن يتحدث اثنان سرا بحيث لا يسمعهما الثالث ، ومنها إذا تحدثا بلسان لا يفهمه الثالث . ويقول القرآن المجيد : «إنما النجوى من الشيطان» .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يُحْزِنُه »[1] (أى الثالث) .

وعن عبد الله بن دينار قال : « كنت أنا وابن عمر عند دار خالد بن عقبة التى فى السوق ، فجاء رجل يريد أن يناجيه ، وليس مع ابن عمر غيرى ، فدعا ابنُ عمر رجلا آخر ، حتى كنا أربعة ، فقال لى وللرجل الثالث الذى دعا : استأخرا شيئا ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يتناجى اثنان دون واحد »[2] .

وإنما أراد الإسلامُ بهذا الأدب اللطيف أن لا يشعر الثالث المنفرد بالعزلة والوحشة وعدم الثقة فيه . ومن الواضح أنه إذا كان هذا الثالث مبصرا فإنه سيتضرر ويتأذى من ذلك ، وإذا كان كفيفا فإن أذاه فى نفسه سيكون أكثر ، لأن المبصر قد يتلهى بمطالعة كتاب ، أو مشاهدة منظر قريب منه ، بخلاف المكفوف ، فإنه يريد أن يسمع : فإما أن يسمع النجوى فيأثم ، وإما أن يحاول صدَّ سمعه فيتعب ، وهو فى الحالتين سيشعر بإهمال الآخرين له فيغضب ، ولذلك يوجب علينا الإسلامُ أن لا نرتكب مع المكفوف مثل هذا الخطأ .

* * *

والإسلام يوجب علينا أن نحذر كلَّ الحذر السخريةَ مِن المكفوف ، ومن المؤسف أنه لا يزال فى الأوساط المنحطة كثيرون يتندرون على

---

(١) حديث متفق عليه .
(٢) رواه مالك فى الموطأ .

المكفوف، ويتلذذون بالسخرية منه والتطاول عليه، وقد يخطئ المكفوفُ خطأ بليغا حين يشجع فى أول الأمر هذه السخرية على أنها دعابة أو مسامرة، ثم تتضاعف السخريةُ حتى يضيق بها أخيرا ولا يستطيع دفعها، ويجنى منها الأمرَّين.

ولذلك يجب عليه أن يمنع هذه السخريةَ من أول الطريق قدر استطاعته بلباقة وحكمة، ومن غير ضجر أو ثورة، لأنه لو ضجر وثار لأغرى الساخرين منه على مضاعفة الاستهزاء به.

والواجب على القائمين بتدريب المكفوفين وتعليمهم أن يحسنوا تحذيرهم من فتح هذا الباب على أنفسهم، لأنه يلاحَظ أن بعض المكفوفين يستطيبون فى بادئ الأمر أن يجعلوا من أنفسهم موطناً للدعابة والسخرية عند أصدقائهم ومعارفهم؛ وقد يكون أثرُ ذلك خفيفا فى أول الأمر، ولكن السخرية تتضاعف وتتزايد، حتى يضيق بها المكفوفُ، ويود الخلاصَ منها فلا يستطيع، ويندم على ما فعل، ولاتَ ساعة مندم، وعلى نفسها تجنى براقش!...

والواجب على المبصرين أن يقاوموا نزعةَ السخرية بالمكفوف بكل وسيلة، وليحاربوها باسم الدين كذلك، فإن الله تبارك وتعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم، عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساءٌ من نساء، عسى أن يكنَّ خيرا منهن، ولا تَلْمزوا أَنفسَكم، ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»[1].

ومن المثير للتفكير، والداعى للتدبر والتأمل أن السخرية لم تَرِدْ فى

---

(١) سورة الحجرات، آية ١١.

القرآن الكريم إلا منسوبةً إلى الكافرين والمجرمين الفاسقين الذين لم يتحلوا بنعمة الإيمان، ولم يتم لهم الإسلامُ، ففي سورة التوبة يقول الله تعالى في شأن الكافرين: «الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدَهم، فيسخرون منهم، سخر اللهُ منهم، ولهم عذاب أليم».

وفي سورة هود نجد قوله تعالى عن سيدنا نوح عليه السلام، وعن الكافرين الذين سخروا منه فكانوا من المغرَقين: «ويصنع الفلكَ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون،[1] فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم».

وفي سورة الأنبياء يقول الله تعالى مخاطبا نبيه: «ولقد استهزِئ برسُل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون».

وفي سورة البقرة: «زُيِّن للذين كفروا الحياةُ الدنيا، ويسخرون من الذين آمنوا، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة. والله يرزق من يشاء بغير حساب».

وفي سورة المؤمنون: «قال اخسئوا فيها ولا تكلمون، إنه كان فريق من عبادي يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين؛ فاتخذتموهم سِخريا، حتى أنسوكم ذكري، وكنتم منهم تضحكون».

ويقول الشيخ المراغي في تفسيره لسورة الحجرات[2].

«ينهى الله المؤمنين عن سخرية بعضهم من بعض، فلا يحل لرجل أن

---

(١) إنما سمى نوح عمله سخرية للمشاكلة والمقابلة، وإلا فهو لا يسخر غيره ابتداء.

(٢) ص ١٩، طبعة مطبعة الأزهر.

يسخر من رجلٍ أو امرأةٍ أوجمعٍ من الناس ، ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجلٍ أو جمعٍ من الناس ؛ وقد جاء النهيُ فى الآية[1] منصبًّا على سخرية القوم من القوم ، والنساءِ من النساء ، بناء على ما هو الأعم الأغلب من وقوع السخرية فى المجامع ، ومن أن القوم يسخرون من القوم ، والنساء من النساء ؛ على أن هذا التركيب يدل بالعرف اللغوى على النهى عن السخرية على أى وجه من الوجوه .

ثم بيّن الله تعالى العلةَ فى النهى ، وهى أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر فى الواقع ونفسِ الأمر وعند الله ، لأن الناس لا يطّلعون إلا على ظواهر الأمور ، ولا علم لهم بالخفيَّات ؛ وليس هناك شىء يقام له وزن عند الله إلا التقوى وخلوص الضمائر : وهو وحده الذى يعلمها ، ولا علم للعباد بشىء منها ، فلا يجوز لأحد أن يجترئَ على السخرية بأحد ، ولو كان ممن تزدريه العيونُ لرثاثة حاله ، وقلةِ ماله ، وقبح صورته ، وعىِّ لسانه وفهاهته . فلعله أخلص ضميرا ، وأنقى قلبا ، وأطهر سريرة ، ولعله يحمل بين جنبيه نفسًا كريمة شريفة الخصال ، كاملة الخلق ، مهذَّبةً بالعلم ؛ ولعله فى هذا كله أحسنُ حالا من الساخر وفى السخرية ظلم بتحقير مَنْ هو فى نفسه عظيم لا يستحق التحقير » .

٭ ٭ ٭

ويوجب علينا الإسلامُ أن نحسن الاعتذارَ إلى المكفوف إذا فرطنا فى حقه ، أو أسأنا إليه عامدين أو غافلين ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « وأتبع السيئةَ الحسنة تمحها » .

---

(١) آية : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ... »

ولنأخذ لنا قدوة فى ذلك من موقف النبي مع ابن أم مكتوم ، فإنه بعد أن عاتبه الله فى شأنه ، كان النبي إذا لقيه قال له متلطفا ومتوددا : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ! . . وكان النبي يحاول مرات كثيرة أن يعوض ما نال ابن أم مكتوم من ألم بمعونة جديدة يقدمها إليه . فكان دائما يقول له : « ألك حاجة نقضيها » . . .

فالواجب علينا إذن أن نزيل ما يعلق بنفس المكفوف من ألم أو تغير؛ وإن كان الأجمل من ذلك والأمثل أن لا ندع شيئاً من الأشياء المؤلمة يصدر عنا إلى المكفوف ما استطعنا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياك وما يُعتذر منه » . وفى رواية : « إياك وكل أمر يعتذر منه »[1] ، وفى حديث ثالث . « إياك وما يسوء الأذن»[2] .

✡ ✡ ✡

ومن الواجب علينا إسلامياً نحو المكفوفين أن لا نترك أية وسيلة من الوسائل المعاونة على تعليمهم وترقيتهم حسياً ومعنوياً والترويح عنهم ، إلا سلكناها واتبعناها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، ويقول : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم »؛ ويقول : « وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه ، والله عليم بالمتقين » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

إن هؤلاء الأشقاء المكفوفين يجب أن يشعروا بالحياة الصحيحة ، ويؤمنوا بأنهم يستطيعون الكثير ، وأنهم لم يفتهم فى دنياهم الكثير ، وأنهم يتمكنون

(١) رواه الضياء عن أنس (الجامع الصغير للسيوطى) .
(٢) رواه أحمد فى مسنده عن أبى الغادية ، وأبو نعيم فى المعرفة عن حبيب بن الحارث ، والطبراني فى الكبير عن عمه العاصى ابن عمرو الطفاوى . (الجامع الصغير للسيوطى) .

بالتعليم والمحاولة من التغلب على ما فى طريقهم من صعوبات .

يجب علينا لهؤلاء الأشقاء أن نحسن تعليمهم وتثقيفهم ، وأن نتخذ فى ذلك الباب كلَّ حديث من الوسائل ، وكل طريف مفيد من الأساليب .

وهاهى ذى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٩٥٥ تقص علينا لوناً من ألوان تثقيف المكفوفين بالأشرطة المسجلة ، فتقول :

« يملك الإنسان حاستين يستطيع بواسطتهما الاتصال بالعالم الخارجى فى الميدان الثقافى والعلمى ، هما البصر والسمع . وقد تمكن الإنسان الكفيف أن يتثقف بواسطة حاسة اللمس ، وذلك منذ اختراع طريقة « بريل » للكتابة ، فقد أسدى ذلك المنهج العظيم أجل الخدمات للمكفوفين ، فأخرجهم من الظلام إلى النور ، وانطلق بهم من عزلة مريرة حائرة عن العالم ، إلى مساهمة فعالة فى حياته تُذهب عنهم الوحشة ، وتمدهم بالآمال الباسمة ، فأمكنهم التثقف عن طريق المؤلفات العلمية والأدبية المكتوبة بحروف « بريل » . بيد أن تلك الوسيلة بالرغم مما تنطوى عليه من فوائد جمة ليست بالعملية ، إذ من العسير تعليمها لمن يفقدون بصرَهم بعد سن العشرين ، كما تشهد بذلك الإحصاءات فى مختلف البلاد ؛ فضلا عن أن كل مؤلَّف يُكتب بطريقة « بريل » يعدل حجمُه أضعافَ حجم المؤلف المكتوب بحروف لغة المبصرين ، وهذا من شأنه أن يجعل استخدام هذه المؤلفات ونقلها من مكان إلى آخر ، أمراً ثقيلا يستلزم جهداً كبيراً .

ولا يفوتنا كذلك أن انتقال هذه المؤلفات بين الأيدى المختلفة يجعلها وسيلة خطيرة لنقل المرض ، ومرعى خصيباً للجراثيم .

والراديو بدوره أصبح فى كثير من الأحيان أداةً فعالة فى تثقيف المكفوفين، وفى الترفيه عنهم، ولكنه هو أيضاً غير كافٍ لسد حاجتهم، لعدم وجود برامج توضع خصيصاً لهم، كما أنه ليس فى وسعهم اختيار نوع المادة التى يرغبون التثقف فيها، أو الموضوع الذى يروقهم. ثم إن مواعيد الإذاعة مفروضة عليهم، ولذا لا يمكن اعتبار الراديو وسيلة فعالة مجدية فى تثقيف المكفوفين.

دعت هذه الاعتبارات المسيو شنيدر المشرف على إحدى المكتبات الباريسية الخاصة بكتب « بريل » إلى الالتجاء إلى الأشرطة المسجلة، كأفضل وسيلة للتثقيف والتعلم بالنسبة لفاقدى البصر. ولهذه الأشرطة فوائد لا تتوافر فى الأسطوانات المسجلة بما فيها الأسطوانات التى تدوم وقتاً طويلا (Microsillons) إذ لا يمكن تسجيل كتاب متوسط الحجم على أقل من خمس عشرة أسطوانة، ويجب لوضعها على الجهاز وتغييرها تباعا، الالتجاء مراراً إلى معونة إنسان آخر، بينما لا يتطلب الشريط المسجل معونة أحد، كما يمكن للشريط الواحد أن يعمل لمدة ساعة كاملة وأكثر دون انقطاع.

ويدعو صاحب تلك الفكرة إلى تكوين مكتبات خاصة بالأشرطة لمختلف الموضوعات العلمية والثقافية والفنية، يستعير منها المكفوفون الموضوعاتِ التى يرغبونها، ثم يعيدونها إلى المكتبات، كما نفعل تماما فيما يتعلق بالكتب التى نتوخى قراءتها. وهكذا يمكن للمكفوفين التثقيف والترفيه عن أنفسهم، دون عناء أو مشقة، معتمدين فى ذلك كله على أنفسهم، فيكتسبون ثقة واعتزازاً.

ولكن تلك الأداة باهظة التكاليف، ليس فى استطاعة الكثيرين

اقتناؤها ؛ ولذلك يرى المسيو شنيدر أن أفضل وسيلة هى أن تقوم المؤسسات المختصة بمختلف البلاد بشراء تلك الأجهزة ، على أن تؤجرها إلى المكفوفين ، متبعة فى ذلك نفس الطريقة التى تتبعها شركات النور عندما تؤجر العدادات الكهربائية إلى الأهالى مقابل مبلغ بسيط .

وإلى جانب هذا ينشأ استديو خاص ، لتسجيل شتى الموضوعات والكتب والمؤلفات فى عدد كاف من النسخ ، حتى يمكن إجابة مختلف الطلبات التى يتقدم بها الراغبون . ويقوم بهذا التسجيل الممثلون أو المذيعون بمحطات الإذاعة حتى يأتى الإلقاء متقناً مستحباً .

ومن يدرى ، ربما تنتشر تلك الوسيلة انتشاراً كبيراً ، بحيث لا تقتصر على المكفوفين وحدهم ، بل وتجذب إليها المبصرين أيضاً ، الذين قد يؤثرون الاستماع إلى الكتب خيراً من قراءتها »

* * *

ويجب علينا لهؤلاء الأشقاء أن نؤمن بهم وبقدرتهم على الكثير . وبصلاحيتهم للكثير ، ويجب أن نشعر ونؤمن بأنهم منا ، وأنهم ليسوا طائفة ، ولا جماعة منعزلة ، ولا فئة متميزة ، بل هم من صميم هذا المجتمع ، نالهم شىء من النقص الحسى الذى لا يعيبهم فى أنفسهم ، ولا يعوقهم عن مواصلة المسير فى ركب الحياة .

وعلينا أن نبذل ما فى وسعنا لتمكين هؤلاء الأشقاء من طرقهم المتعددة فى هذه الحياة ، حتى لا يُحرَموا السعادةَ فيها ، ولنأخذ المثل من المكفوفة النابغة « هيلين كيلر » الأمريكية التى تمكنت عن طريق التعلم والتدرب أن تشارك فى الحياة مشاركة قوية . .

إنها وُلدت سنة ١٨٨٠ ، وعاشت تسعة عشر شهراً مثل سائر الأطفال ،

ثم أصيبت بالحمى القرمزية ، ففقدت فيها بصرها وسمعها وشمّها ، ثم انتهى أمرها إلى البكم ؛ وفى السابعة عشرة من عمرها أرسلها والداها إلى مدرسة المكفوفين ، وأشرفت عليها مديرة المدرسة الآنسة « آنه سليفان » ، فعلّمتها باللمس لغةَ الصُّم والبُكم ، ثم علمتها القراءة على طريقة « بريل » ، وكانت تمزج بين التعليمين ، وتمكنت فى سنة ١٨٩٠ من أن تجعلها تتكلم ، ثم أعادت إليها حاسة الشم ، واستطاعت هيلين بعد ذلك أن تتقدم للامتحان فى إحدى الكليات ونالت شهادتها .

ووضعت هيلين سنة ١٩٠٢ كتابا عن تاريخ حياتها ، وفى سنة ١٩٠٨ وضعت كتابا عنوانه : «العالم الذى أعيش فيه» ، وفى سنة ١٩١٣ وضعت كتاباً اسمه : « الخروج من الظلام » ، إلى غير ذلك من الكتابات والأعمال .

وهيلين كيلر المكفوفة تشعر بالسعادة فى حياتها ، وتتحدث عن ذلك بقوة فى إحدى مقالاتها ، فتقول[1] :

« يتعجب كثيرٌ من الناس عندما أقول لهم بأنى سعيدة ، فهم يتخيلون أن النقص فى حواسِّى عبء كبير على ذهنى ، يربطنى على الدوام بصخرة اليأس ، ومع ذلك فإنه يبدو لى أن علامَةَ السعادة بالحواس صغيرةٌ جدا ، فإننا إذا قررنا فى أذهاننا أن هذا العالم تافه يسيرُ جزافا بلا غاية ، فإنه يبقى كذلك ، ولن تتبدل صورتُه .

بينا نحن إذا اعتقدنا أن هذا العالم هو لنا خاصة ، وأن الشمس والقمر يتعلقان فى الفضاء لنتمتع بهما ، فإن هذا الاعتقاد يملأنا سروراً ، لأن نفوسنا تتمجد بالخَلْق وتُسَرُّ به ، كأنها نفسُ رجل الفن . والحق أنه مما يُكسب هذه

---

(١) انظر مجلة الهلال ، عدد نوفمبر سنة ١٩٢٨ ، بعنوان : « عمياء وصماء ... وسعيدة»

الحياةَ كرامةً ووجاهة أن نعتقد أننا وُلدنا لكى نؤدى أغراضا سامية ، وأن لنا حظا يتجاوز الحياةَ المادية .

وقد يعترض علىَّ البعضُ بقوله : ألا تسأمين من وحدة الأشياء التى تمسينها ، وأنت لا ترين اختلافَ الضوء والظلام عليها ؟ أليست الأيامُ كلها سواءً لديك ؟ . .

فأقول : كلا ، إن أيامى كلّها مختلفة ، وليست ساعة تشابه الأخرى عندى ، فإنى بحاسة اللمس أشعر بجميع التغيرات التى تطرأ على الجو ، وإنى متأكدة بأن الأيام تختلف عندى بمقدار اختلافها عند الذين ينظرون إلى السماء ، ولا يبالون بجمالها ، بل يرصدونها ليقفوا منها : هل تمطر أولا .

وفى بعض الأيام تنسكب الشمسُ فى مكتبى ، فأشعر بأن مسرات الحياة قد احتشدت فى كل شعاع من أشعتها ، وهناك أيام ينزل فيها المطر ، فأشعر كأن ظلاًّ يتعلق بى ، وتنتشر رائحة الأرض الرطبة فى كل مكان ، وهناك أيام مظلمة أشعر فيها أن النوافذ العشر التى فى مكتبى تئن وترتجف من زمهرير الشتاء . وهناك أيامُ الصيف المخدرة حين يهب النسيم العليل ، ويغرينى بالخروج إلى مظلتى ، حيث أتمدد وأحلم بالزهر يغشاه النحل .

وهناك ساعاتُ العجلة والازدحام ، حين تحتشد الخطابات على منضدتى ، ثم ساعاتٌ لانهاية لها تختلف وتتفق مع المفكرين والشعراء ، وكيف أسأم مادامت الكتبُ حولى ؟ .

وفى كل الاهتزازات التى أشعر بها عن طريق اللمس معانٍ ، فهناك وقع الأقدام رائحة غادية ، ونبحة كلبى الدنمركى الجميل ، ومن وقت لآخر تمر

العربات الضخمة التى تحمل موادَّ البناء ، فأشعر بنشاط نيويورك العنيف الذى لا يهدأ

ومنذ زمن قريب أمسكتُ أنفاسى حين خرجتْ عشرون طيارة تستقبل الطيارَ لندبرغ . واقتربت من منزلى حين كنت أميز ضجيج المواطر من خلال الحائط الذى يحيط بمكتبتى ، وما أكثر ما احتشدت الأفكار فى رأسى لهذه الاهتزازات !..

هذا الشاب الجرئ الذى حلم حلما ، وحقَّقه على أجنحة الندى إلى الشرق المتلألئ وطيارته تميل مع الرياح ، وتنحنى مع السحب .

وشعرت كأن ذهنى يقف ويجمد عندما تخيلته يقفز إلى الفراغ ، وملايينُ الأشباح البيضاء للموت تهبُّ فى طريقه ... أجل ، كلُّ هذا شعرت به حين مرت الطيارات لإكرامه .

وعندى إحساسات أخرى تصل بينى وبين الناس : فحاسة الشم من أثمن وأهم ما أملكه فى حياتى اليومية ، فإن الجو ممتلئٌ بالروائح التى لا حصر لها ، أعرف منها الأماكنَ والأشياء ، فأعرف أزهارى بأشكالها وأرَجِها ، وما أكثر ما أتعجب من أنواع الحلاوة فى الورق والثمر والبذر .

بل الشجرة الواحدة تتأرج أرجًا فى الظل يختلف عن أرجها فى الشمس ، ثم هناك أرج السوسن الخفيف ، وأرج العلّيق الذى يتفشى حوله بما يشبه الحب ، والسوسن يحدث بعطره شعوراً جميلا ، ولكن سرعان ما يغيب : وهناك مشمومات لم أجدْ لها بعدُ ألفاظاً تؤدى معناها .

فالشم أشبه شيء عندى بالصديق ، يحدثنى عن كل صغير ، فيخبرنى عن

الجوّ حين ينزل المطر، وحين يُقطع العشب، وحين تمر الأوتمبيلات، وتُبنى المنازل الجديدة، وحين يأتى ميعاد الغداء.

وقد كنت أحبُّ المدنَ لولا ما أعرفه عنها باللمس والرائحة، فإن سيل الضوضاء فى نيويورك يتعبنى، والروائح الثقيلة التى تنبعث من الحوانيت والشوارع التى احتبس فيها الهواء واختنق بالبترول تُزْهق نفسى.

أعطنى بدلا من ذلك يوماً فى الريف، حين يتنفس الهواء الطلق أنفاسَ الدعوة، يدعوك لأن تعود صغيراً، وتجرى كما يجرى الصبيُّ إلى الملعب...

وهل تدهش منى أيها القارئ لأنى أعطف على حماسة الصبى يجرى إلى الملعب ويرى الهلوان؟... إن لى رغبةً دائمة لأن أدخل من تحت الخيمة، وأشترك فى هرج المهرجين فى الملعب... أذكر وأنا حوالى السابعة من عمرى أن معلمتى أخذتنى إلى ملعب الهلوان، فكانت هذه الزيارة أعظم درسٍ تلقيته فى صباى، وكانت ألفاظى محدودةً، ولم تكن الآنسة سليفان علمتنى إلا مدة شهرين، ولكنى فهمت بأنى سألمس حيوانات ضخمة كبيرة طويلة.

وأول شيء شعرت به عندما دخلت الملعب هو رائحةٌ غريبةٌ مخيفة، فأمسكت بملابس الآنسة سليفان، وكادت تتغلب إرادةُ الهرب على الرغبة فى الرؤية، ولكن يدها من ناحية ويدَ رئيس الملعب من ناحية أخرى على كتفى ردتا إلى الطمأنينةَ، وأعطيانى كيساً من الفول السودانى، ثم أخذانى إلى الفيل فأخذت أتحسس ساقيه الأماميتين الضخمتين، ثم رفعنى رئيس الملعب على كتفه حتى ألمس رأسَ الفيل وأذنيه المروحتين، وطلب منى أن أعطيه قليلا من الفول السودانى؛ حتى يرفع إلىَّ أنفَه الطويل أو خرطومه.

فدهشت لهذا الطلب وغضبت قليلا، لأننى كنت أحب الفول السودانى

وكنت أرغب فى تناوله وحدى ، ولكنى أُعطيت كيساً آخر يحتوى على الفول السودانى ، ثم أُذِنَ لى أن أتحسس وألمس جسم هذا الشخص الذى أعطانى هذا الكيس ، فكان فتاةً ضامرة الخصر جميلة القامة من اللواتى يلعبن فى الملعب ، ولم يكن عليها سوى ملابس اللاعبات المحبوكات على الجسم ، وقد ضحكت وارتبكت لفحصى لها : ثم قبَّلتنى .

وذهبت بعد ذلك أتلمس الخيول العربية وراكبيها ، وتحسست العربات الفخمةَ التى تجرها ، وبرك الجمل أمامى فتسلقت إلى سنامه الغريب ، ولكن ما أشد ما تأثرت من رائحته !!..

وقد قال بولس الرسول : « عندما أكون ضعيفاً أكون قوياً » : وهذا خاطر جدير بتعزية الذين أصابت أجسامَهم المحن : وتفسير هذا القول واضح وهو أن الشخص المصابَ ينكفئ إلى نفسه يفتش عن لذته فى خواطره وأفكاره ، وعندئذ تصير هذه الأفكار موضوعَ اهتمامه العظيم .

ومن المعجزات أن حادثة من الحوادث التى لاقيمة لها تخرج من بوتقة الذهن جميلة لامعة ، وتأخذ الأفكار فى الترتيب ، حتى تتسجل الأشخاصُ والحوادث ، فتكسب الحياةُ المحدودة بالنقص سروراً ، وتختزن هذه الأشياء فى الذاكرة ، فتكون من المتع التى يتمتع بها صاحبُها فى أوقات الانفراد والوحدة ، وهذا هو السبب فى أنى لا أشعر بأنى عمياء وصماء ، فإنى تركت هذه الهوةَ الفظيعة منذ زمن بعيد جداً .

وقد كانت حياتى — وماتزال — سعيدةً ، لأنه كان لى أصدقاءُ كثيرون ، وأعمال كثيرة يلذ لى عملُها . وقلما أفكر فى نقص حواسّى ، ولا أحزن إذا فكرت فيها ، وربما يحدث لى فى بعض الأوقات ما يشبه التشوف والتمنى ،

ولكن هذا الشعور غامض ، كأنه النسيم يتخلل الزهر ، ويمر النسيم ، ويبقى الزهر راضياً » .

أقول : ليت شعرى .. متى نسمع مثل هذا الأسلوبَ من أشقّائنا المكفوفين فى الشرق ؟ ..

* * *

إننا مع شديد الأسف أكثر بلاد الأرض عمياناً ، ففى مصر مثلا قرابة السبعين ألفاً من المكفوفين ، ولو ذهبنا نحصى المكفوفين فى البلاد العربية ، ثم فى البلاد الشرقية ، لوجدنا أرقاماً مخيفة مرعبة ، ولقد كتب الأستاذ السيد عبد الحميد الدالى فى جريدة « الأهرام » بتاريخ ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٥ تحت عنوان : « دراسة إحصائية عن المكفوفين » يقول :

« يشتمل التعداد العام للسكان فى مصر على البيانات الإحصائية الخاصة بذوى العاهات ، بينما يفتقر تعداد انجلترا وويلز ، وهو من أكمل التعدادات فى العالم إلى مثل هذه البيانات ، والسبب فى ذلك أن المسئولين هناك تعمدوا إغفال السؤال عن العاهات منذ سنة ١٩٢١ لما لوحظ من اعتراض الكثيرين أو عزوفهم عن إعطاء البيانات الصحيحة : والحساسية الشديدة عند ذوى العاهات ظاهرة معروفة ، ولكنها تزداد حدة فى المجتمعات التى يندر فيها وجود العاهات ، وليس كذلك الحال فى مصر ، حيث تكثر العاهات ويراها الناس عادية .

ويبلغ عدد المكفوفين فى مصر طبقاً لتعداد ١٩٤٧ نحو ٧٥ ألفاً ، وهذا الرقم يمثل نسبة لا يستهان بها من بين ذوى العاهات الذين تبلغ عدتهم مائتى ألف .

ولقد وصلت نسبة المكفوفين بين المصريين طبقاً لتعداد ١٩٣٧ إلى ٥ر٥ فى الألف من السكان ، لكنها انخفضت إلى أربعة فى الألف فى سنة ١٩٤٧ أما سكان مصر من الأجانب فكانت نسبة المكفوفين من بينهم ٥ر١ فى الألف فى سنة ١٩٣٧، وقد انخفضت إلى ١ر١ فى سنة ١٩٤٧ .

ونسبة الإصابة بالعمى تختلف فى الجنسين اختلافا لا يمكن تجاهله ، وهى تزيد فى الذكور عنها فى الإناث بصفة دائمة ، وفى جميع مراحل العمر، بيد أن الفرق يقل كلما اتجهنا بالعمر إلى الكبر ، فيصبح بعد سن الستين غير جوهرى ، ولذلك نجد أنه بينما تزيد نسبة الإصابة العامة فى الذكور عما يقابلها فى الإناث بنحو ٣٪ فى سنة ١٩٣٧ ، و٧٪ فى سنة ١٩٤٧ ، فإن نسبة الإصابة بين الذين لم يبلغوا الستين من العمر من الذكور تزيد عما يقابلها فى الإناث بنحو ١٦٪ فى سنة ١٩٣٧ ، و٢٠٪ فى سنة ١٩٤٧

وينبغى ألا يغيب عنا ملاحظة أن الفرق بين نسبة الإصابة فى الذكور والإناث قد زاد فى تعداد ١٩٤٧ عنه فى تعداد ١٩٣٧ ، وليس معنى ذلك أن الحالة قد ازدادت سوءاً فى الذكور، لأن نسبة الإصابة بالعمى قد انخفضت انخفاضاً ملموساً بين التعدادين فى الذكور والإناث جميعاً ، ولكن التحسن كان فى الإناث أكبر منه فى الذكور .

وتختلف نسبة الإصابة بالعمى فى فئات العمر المختلفة ، ولكنها تأخذ اتجاهاً منتظما ، فتبدأ منخفضة جداً فى بواكير العمر ، ثم تتجه إلى الزيادة باستمرار مع ارتفاع العمر ، وتشتد سرعةً منـــذ الستين ، فبينما نجد نسبة الإصابة بالعمى أقل من ١ فى الألف فى الأطفال دون الخامسة من العمر ، نراها تصل إلى أكثر من ١٣ فى الألف من السكان الذين تقع أعمارهم بين

الخمسين والستين ، ثم ترتفع إلى ٣٦ فى الألف بين الذين تزيد أعمارهم على الستين ،ولئن كانت هذه الأرقام خاصة بتعداد ١٩٣٧ فإن هذا الترتيب لم يتغير فى إحصاء ١٩٤٧ ، وكانت نسبة الانخفاض نحو ٢٦٪ للذكور ، و ٢٨٪ للإناث .

وقد يروعنا ارتفاع نسبة الإصابة بعد سن الستين ، والواقع أننا لو جعلنا هذا العمر حداً فاصلا للمقارنة ، لوجدنا أن نسبة الإصابة بعده تزيد على عشرة أمثالها قبله ، وهذه الحقيقة واضحة فى الذكور وفى الأناث ، ورغم أن التحسن بين التعدادين قد شمل جميع الأعمار كما قدمنا ، إلا أنه كان أكبر قليلا فى الذين تجاوزوا الستين منه فيمن دون ذلك .

هناك أربع حالات رئيسية لفقد البصر : الأولى أن يولد المرء ضريرا ، وتنسب هذه الحالة إلى الوراثة ، لا لأن العمى يورث ، ولكن لإصابة الجنين فى عينيه ، بسبب وجود مرض خبيث عند أحد الأبوين . أما الحالة الثانية وهى تسيطر على المراحل الأولى من العمر فترجع الإصابة فيها إلى عوامل البيئة الخارجية ، حيث يتضافر الذباب والقذارة والإهمال والجهالة للانتقال بحالات الرمد الناشئة من التلوث إلى عمى كامل ، وضحايا المواصفات البلدية كثيرون ، ولما كان الذكور أكثر تعرضا للعوامل الخارجية من الإناث ، لذلك كانت نسبة الإصابة فى الأولين أكبر منها فى الآخرين بصفة جوهرية كما قدمنا ، وهناك سبب اجتماعى يؤيد هذا الاتجاه ، فالعمى يعتبر بالنسبة للبنت كارثة تهدد مستقبلها فى الحياة الزوجية ، وذلك يحفز الأهل على مضاعفة الجهد لاجتنابه ، وهناك سبب ثالث ، فقد تكون الأنثى أكثر مناعة ضد الإصابة بالعمى وأسبابه من الذكر ، وهذا ليس غريبا ، فقد

ثبت بالطرق الإحصائية أن الأنثى أكثر مناعة من الذكر ضد معظم الأمراض .

والحالة الثالثة هى الإصابة بالعمى نتيجة صدمات نفسية ، ونحن نعلم أثر الحزن الجارف ، وما قد يؤدى إليه من الإصابة بانفصال فى الشبكة إن لم يعالَج فى حينه أدى إلى ضياع البصر .

وهناك الحالة الرابعة وهى أكثر الحالات شيوعا ، وهى فقد البصر بسبب الضعف الراجع إلى كبر السن ، وقد رأينا أن نسبة الإصابة فى الذين تجاوزوا الستين من عمرهم تزيد على عشرة أمثال نسبة الإصابة فيمن هم دون الستين ، وهذا دليل كاف على أن كبر السن من أهم الأسباب التى تؤدى إلى العمى ، أو هو على الأقل من أهم العوامل التى تهيء لوقوع هذا البلاء .

إلى أى مدى يستطيع الطب أن يحول دون وقوع هذا البلاء بجميع صوره ؟

هذا سؤال يجيب عنه المختصون من أطباء العيون ، ولكن رفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى للسكان لاشك عامل حاسم فى المعركة » .

* * *

إننا نستطيع الكثير من أجل المكفوفين لو أردنا أن نعمل ، ولو أخلصنا النية فى هذا العمل ...

نستطيع أن نقف فى وجه الأسباب المؤدية إلى كف البصر ، سواء أكانت جماعية أم فردية ، لنقضى على ما نستطيع القضاءَ عليه منها ، ولنخفف وقع مالا نجد لنا معه حيلة أو وسيلة ...

نستطيع أن نفتح المدارس التثقيفية والتدريبية الخاصة بالمكفوفين ، ونستخدم فيها أحدث الوسائل والأساليب ... نستطيع أن ننشىء المصانع

والمعامل الخاصة بهم ، لنخرّجهم ماهرين فى كل ما يستطيعون من الحرف والصناعات ...

نستطيع أن نفتتح معهد العيون وبنك العيون ، وأن نُعنى بالاستفادة الواسعة والشاملة من البحوث والكشوف والعمليات الطبية الخاصة بالعيون ، ولنتذكر، مثلا ، أن جريدة (الديلى ما يل) ذكرت منذ عشرات من السنين تحت عنوان « العمى يبصرون » عملية جراحية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الطب

وخلاصتها أن أحد المهندسين الأمريكيين فقد بصره على إثر انفجار أحرق عينيه ، وظل كذلك سبع سنوات ، وفى يناير سنة ١٩١٢ جاء هذا المهندس إلى مستشفى فيلادلفيا ، فعرض عليه الدكتور أوين هاريس أن يبدل بعض الأنسجة الميتة فى إحدى عينيه بأنسجة صحيحة من عين شخص فقئت ، ولا تزال أنسجتها صحيحة ، فأُجريت العملية والرجل المتبرع جالس قرب الأعمى ، وبعد أن تمت العملية وُضع الرجل المهندس فى غرفة مظلمة نحو أسبوع ، ثم خرج وهو يرى ، ولكن بعينِ غيره[1] !...

نستطيع أن نعاون المكفوفين على تذليل الصعوبات التى تعترضهم فى حياتهم ، وأن نقدم إليهم باسم الدولة مختلف المساعدات المادية والأدبية ، فيركب المكفوف القطار والترام والسيارة مجاناً ، ونشجعه على ما يمكنه من عمل ، ونكافئه خير المكافأة على ما يقدّم من إنتاج ، ولنتذكر أن غيرنا قد أقاموا للمكفوفين منذ زمن بعيد جنة ، فقد ذكرت مجلة الهلال[2] تحت عنوان : « جنة العميان » هذه السطور :

« جميع رجالها كهول عميان ، هذه هى قرية فترنيك بيوجوسلافيا التى

(١) مجلة الهلال ، عدد يوليه ، سنة ١٩١٢. (٢) عدد فبراير سنة ١٩٣٨.

أنشأها الملك الكسندر منذ تسع سنوات ، لإيواء من كف بصره من الجنود الكهول فى أثناء الحرب العالمية الكبرى

فقد جمعت الحكومة هؤلاء الكهولَ الأكفّاء فى إحدى مناطق الريف ، وأقامت لكل منهم بيتاً ريفياً بسيطاً ، ومنحته قطعة فسيحة من الأرض ، وما يلزمه من ماشية وأدوات زراعية .

ورأى الملك أن يزوّج من لازوج له منهم ، ليهون عليهم آلام العاهة التى مُنوا بها ، فأعلنت الصحف عن حاجة هؤلاء الكهول العميان إلى عرائس فتيات ، فتقدم مئات من أجمل بنات يوجوسلافيا اختار منهن عمدة القرية أزواجاً وزعهن بين رجاله المهندسين الأكفّاء .

ويقوم رجال القرية ونساؤها بزراعة أرضها ، وتربية حيوانها وطيرها ، وقد أقامت الحكومة سوقاً خاصة لبيع ما تنتجه القرية وحدها من غلات مختلفة ، وهم لهذا يعيشون فى رخاء عميم ، ولم يفكر أحد منهم حتى اليوم فى أن يطلق زوجته . ولم تُبد إحدى نسائهم أمارة أى تأفف أو نفور .

وقد أنجبت القرية فى خلال هذه السنوات التسع زهاء مئة طفل يشاطرون آباءهم السعادة والرخاء »...

هذا قد تحقق منذ زمن بعيد ، وقد تحققت بعده للمكفوفين فى الغرب أمور كثيرة ذات بال وأثر كبير فى النهوض بمستواهم ، والواجب علينا أن ننهج نهجهم ، فنعنى بالمكفوفين بيننا كما عُنى سوانا بمكفوفيهم ...

من أخلاق المكفوفين

إنما الأممُ الأخلاق . . .

هذه حكمةٌ سائرة ، وكلمة مسلَّمة ، وقول مأثور يذكرنا في حق وصدق بأن الأمم لا يقوى عمادها ، ولا يشتد سِنادها . إلا بكتائبَ من محاسن الأخلاق ومكارم الطباع : وكم من أمم حشدت الجنودَ والجيوش ، وخزنت السلاحَ والعتاد ، واستكثرت من أسباب القوة المادية ، ولم يكن لها رصيدها الكافي من الأخلاق النبيلة والطباع الفاضلة ، فما أغناها سلاحُها طويلا ، ولا أفادها عتادها جليلا : وخرت صريعةً في حومة النضال والصيال ، إذ لم تجْدِ هذه الوسائلُ الحسية والأدوات المادية . ولم تَجِدْ أرواحا تعمرها وتقودها ، وتلك الأرواح هي الأخلاق !! . .

وكم من أفرادٍ حازوا الذهبَ والنشب ، أو جمعوا العلم والكتب ، أو ارتفعوا في الرتبة والمنصب ، ولم تكن لهم حظوظهم الوافية من الأخلاق السامية . فما عصمهم المالُ ولا المنصب من التردى والسقوط ، ولا حال الجاه أو عزة الحياة بينهم وبين قسوة الحق في الحكم عليهم بأنهم عاشوا أقرب ما كانوا من الحيوان .

وإذن فلا بد لنا من الاهتمام بشأن الأخلاق في كل مناسبة وكل مجال .

° ° °

وحين ننظر في أمر الأخلاق عند المكفوفين نجد أنها شغلت من حياتهم جانباً كبيراً ، واستأثرت من عنايتهم بنصيب جليل ملحوظ ، وحين نراجع تراجم المكفوفين السابقين نجد أكثرهم قد احتفظوا بمقوّمات أخلاقهم ، وعصموا أنفسهم من الخنا والسوء ، ونجد التاريخ يصفهم بجمال الشيم وعلو الهمم ، ومنهم قلة حادت عن هذا الطريق ، وذلك شأن كل مجموعة

من الناس، يوجد فيها الطيب والخبيث، ولكن العبرةَ بالكثرة والأغلبية، والتاريخ يحدثنا بأن أكثر المكفوفين فى أغلب عصوره كانوا ممن يحرصون على تهذيب نفوسهم وتجميلها بالطباع الكريمة والأخلاق السليمة .

ولم تقتصر هذه العناية بالأخلاق على المكفوفين فى الماضى، بل صاحبت إخوانَهم اللاحقين حتى جيلنا الحاضر: وهاهو ذا الشاعر المكفوف أحمد الزين يصوِّر جانبا من جوانب اهتمام المكفوفين بأمر الأخلاق، فيردِّد ذكرها فى قصائد من شعره ترديدَ مَنْ يقدرها قدرها، ويعطِّر بالثناء ذكرها، فيقول مثلا على طريقة الأراجيز :

وطهِّر القلبَ من الرذائلِ قبل اكتساب العلم والفضائل
مما رويناه من الأقوالِ وما غدا فى الناس كالأمثال :
شرُّ العباد عالِمٌ تهتكا وجاهل بالدين قد تنسكا
وجمِّل النفسَ بخُلْق طيِّبِ فإنما الأخلاق خير مكسب
عتادُ مَنْ ليس له عتادُ ودوحةٌ أثمارُها الوداد
فاحرص عليها، إنها أعوان وخير ما يعلو به الإنسان
وزينةُ الإنسان بالآداب وليس بالزىِّ ولا الثياب
كم من فتى راق العيونَ منظرُهُ وكذَّب الظاهر منه مخبره[1]

ويعود فى موضع آخر من شعره، فيحدثنا عن طائفة من مكارم الأخلاق، وينبئنا أن الُخلق النبيل هو مال من لا مال له، وجاهُ من لا جاه عنده، فيقول :

---

(١) ديوان أحمد الزين، ص ١٥٢ .

فلن تذوق ما حَلاَ   حتى تذوق الحنظلا
وهكذا المحامدُ   من دونها الشدائد
ليستْ أثاثا يُقتنى   ولا تُنـــال بالمنى
ذكر الفتى بما ذَخَر   والخُلْق نعم المدخَر
والذكر عمر ثانِ   للمرء وهو فانِ
فَخْرُ الفتى أعمــاله   لا جَـــدُّه ، وماله
ماذا يفيد المالُ   إن ساءت الأفعال ؟
كم من فتى أراه   يعجبنى مـــــرآه
به المخازى خافيه   إن العيون غاويه
لا تبغ فضلَ النشبِ   وابتغ فضل الأدب
إن العظيم من بَنَى   ولم يقل : ذا بيتُنا
وليس عالى الهممِ   من كان ذا قلب عمِ

٭ ٭ ٭

وأول ما نلاحظه فى الناحية الأخلاقية الروحية للمكفوفين أنه يغلب عليهم طابَعُ المراقبة لله والخشية منه ؛ وأكاد أفهم أن لكف البصر فى هذه الخشية دخلاً ويدًا ، فإن المبصر قد تشغله المشاهداتُ والمحَسَّات ، فلا يسبح تلك السبحاتِ الفكرية والروحية الطويلة المدى التى تجعله يتخيل ويتفكر ويتدبر ، بخلاف المكفوف فإن له من كف بصره ما يجعله يبصر بقلبه وروحه ، فيطوف به ذلك القلبُ فى عوالم غير منظورة ، وتهيم به تلك الروح فى آفاق بعيدة غير مرئية ، ولذلك يكون مدى تفكيره وسبحه الروحى أوسعَ وأرحب .

---

(١) ديوان الزين ، ص ١٣٧ .

يُضاف إلى ذلك أن تخيل المكفوف للكون والحياة والأحياء يصحبهُ نوعٌ من الإبهام ، وهذا الإبهام يوجِد فى النفس نوعاً من الرهبة والخشية ، ومن وراء هذه الرهبة وتلك الخشية تتوالد فى نفس المكفوف عناصرُ الخوف من ربه ، والحذرِ من عقابه ، والرجاء فى ثوابه ، فتدفعه تلك العناصر المتكاثرة إلى منهج أخلاقى روحى ، فيه تأمل وتخيل ، وفيه غموض وإبهام ، وفيه رهبة وجلال ، وفيه خشية وحذر ، وفيه التجاء إلى الله الذى بعث أنبياءه ليثبِّتوا فى خَلْقه دعائم مكارم الأخلاق .

وبتسليم هذا قد نفهم الدوافعَ النفسية والروحية التى دفعت المكفوف العظيم ، الإمام الحبر أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى الأندلسى الحافظ صاحب المصنَّفات إلى أن يهتف بهذه الأبيات المؤثرة الدالة على نفس ذاكرة خاشية مراقِبة :

يا مَنْ يرى مافى الضمير ، ويسمعُ	أنت المعَدُّ لكل ما يتوقَّعُ
يا من يرجَّى فى الشدائد كلِّها	يا من إليه المشتكَى والمفزع
يا من خزائنُ رزقه فى قول : كن	آمُنُنْ ، فإن الخيرَ عندك أجمع
مالى سوى فقرى إليك وسيلة	فبالافتقار إليك ربى أضرع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة	فإذا رددتَ فأى باب أقرع ؟
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقير يُمنع ؟
حاشا لمجدك أن يقنِّط عاصيا	الفضلُ أجزل ، والمواهب أوسع

* * *

وهذا الالتجاء من المكفوف الذاكر المتدبر إلى الله ، يهبه ثقةً عميقة فى رحمته وهُداه ، ويعطيه مناعةً قوية ضد شهوته وهواه ، ويجعله فى أغلب الأحيان — إلا من أضل الله — يُؤْثر طاعةَ مولاه على لذة دنياه ؛ ولذلك

نرى المكفوفَ الإمام العلامة المحقق القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي[1] يحدثنا عن نفسه فيقول : جرت بيني وبين الشيطان مخاطبة ؛ فقال : فعلتَ كذا فسأُهلكك .

فقلت : والله ما أبالي بك !...

وهذا جواب رجل وثق بربه ، ووثق بخُلقه وتقواه ، فهو لا يبالي وسوسةَ الشيطان ، ولا يرتعد من تهديده ، بل يسخر به ولا يخاف منه ، وهذه رتبة لا يصل إليها إلا رجلٌ رفيع الأخلاق طاهر الطباع .

ولا عجب ، فالتاريخ يحدثنا بأن القاسم بن فيره هذا كان — من صفاء روحه وصلة أسبابه بربه — يعذل أصحابه فى السر على أشياء لا يعلمها إلا الله عز وجل ، وكان يجلس إليه مَنْ لا يعرفه فلا يرتاب فى أنه يبصر لذكائه ، ولا يظهر منه ما يدل على العمى .

ونلمح من بعض المكفوفين تحبباً فى الأخذ بالتوجيه النبوى الكريم : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » . ولذلك يحرص أبو معاوية الضرير على أن يقص لنا هذا الخبر :

بعث هشام بن عبد الملك إلى أبي محمد سليمان الشهير بالأعمش ؛ يقول : يا أبا محمد ، اكتب لى مناقبَ عثمان ، ومساوئَ على .

فأخذ الأعمش الرسالةَ ، ورمى بها ، وكتب إلى هشام يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فيا أمير المؤمنين ، لو كانت لعثمان رضى الله عنه مناقبُ أهلِ الأرض ما نفعتك ، ولو كانت لعليٍّ رضى الله عنه

---

(١) توفى سنة تسعين وخمسمائة للهجرة .

مساوئُ أهلِ الأرض ما ضرَّتك ، فعليك بخاصة نفسك والسلام » .

وإنه لردٌّ يدل على حكمة وجرأة وثبات !...

ونرى من أخلاق المكفوفين عفة وصيانة وترفعاً عما لا يليق ، وحذرًا مما يؤدى إلى الحرج والخجل .

فهذا على بن عبد الغنى الحصرى الكفيف يقول :

وهممتُ ، لكن قال لى أدبى : بالله من شيطانك استعذِ
قالت : عففتَ فعفْت ؟ قلت لها : منذ شبتُ باللذات لم أُلذِ

وهذا أبو العيناء الكفيف المشهور يسأله الخليفة العباس المتوكل : كيف شربك للخمر ؟ فيجيب أبو العيناء إجابة المتخلِّص مما يجر إليه هذا السؤال من الخليفة ، ويبين أنه لا يسمح لنفسه أن يمس قليلَ الخمر أو كثيرها ، ويعلِّل ذلك بما يعلل ، فيقول : يا أمير المؤمنين ، إنى أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره !..

فيمضى الخليفة المتوكل فى استدراج أبى العيناء إلى المنادمة والمسامرة وما يتبعهما ، فيقول : دع عنك هذا يا أبا العيناء ونادِمْنا ...

فيرد أبو العيناء ردَّ رجلٍ يحفظ لنفسه أولا كرامتَها ، ويصون حقها وذاتها ، ويرعى لها خُلقها وكرامتها ، فيقول :

يا أمير المؤمنين ، أنا رجل مكفوف ، وكلُّ مَنْ فى مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج إلى أن أُخْدم ، ولست آمن من أن تنظر إلىّ بعينَ راضٍ وقلبُك علىّ غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راضٍ ؛ ومتى لم أميِّز بين هذين هلكتُ ، فأختار العافية على التعرض للبلاء !...

☆ ☆ ☆

ولما ولى المغيرةُ بن شعبة الكوفةَ صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر ،

وهى مكفوفة البصر مترهبة ، فاستأذن عليها ، وقيل لها : الأمير بالباب .

فقالت هند : قولوا له : أهو من ولد جبلة بن الأيهم ؟.

قال المغيرة بن شعبة : لا .

فقالت أفمن ولد المنذر بن ماء السماء ؟.

قال المغيرة : لا .

فقالت هند : إذن ، فمن عسى أن تكون ؟ .

قال المغيرة : أنا المغيرة بن شعبة الثقفى .

فقالت : وما حاجتك ؟ .

قال : جئتك خاطباً .

فقالت هند : لو كنتَ جئتَنى لجمالٍ أو لمالٍ لاطَّلبتُك ، ولكنك أردت أن تتشرف بى فى محافل العرب ، فتقول : نكحتُ ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء ؟!.

* * *

وفى أخلاق المكفوفين نلمح خُلق الوفاء ؛ والوفاءُ بين الناس أندر من الكبريت الأحمر ، وأعز من العنقاء ؛ ولذلك قال الأول :

ولقد رأيت المستحيلَ ثلاثةً   الغول ، والعنقاء ، والخل الوفى

ولندرة الوفاء بين الناس أطال الأدباء والكتاب التغنى والتمدحَ بموقف عبد الحميد بن يحيي مع مروان بن محمد ، فإن مروان بن محمد لما أيقن بزوال مُلكه ، وغلبة بنى هاشم عليه ، قال لكاتبه عبد الحميد بن يحيي : قد احتجتُ أن تكون مع عدوى فتَظهر لهم الغدرَ بى ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتَهم إليك ، تمنعهم منك ، وتدعوهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا فلا تعجز عن حفظ حرمتى بعد وفاتى .

فقال عبد الحميد : « إن الذى أمرتنى به أنفعُ الأمرين لك ، وأضرهما بى ، وما عندى إلا الوفاء حتى يفتح الله لك ، أو أُقتل معك » . ثم أنشد :

أُسِرُّ وفاءً ، ثم أُظهر غدرةً   فمن لى بعذر يشمل الناس ظاهرِ ؟

فسكت مروان ساعة ، ثم أعاد عليه القول ، فقال عبد الحميد : « والموفُون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » .

ولم يزل معه حتى قُتل آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

* * *

وكثير من المكفوفين يتحدثون عن الوفاء ، ويشيدون بمكانته ، ويحاولون الحرص عليه والتمسك به ، فهذا أبو العلاء المعرى مثلا يحدِّثنا عن كثرة مفارقته لإخوانه وخلانه ، وهو مع ذلك حافظ لعهدهم ، وفىٌّ لودهم ، لا يخون ولا يمين ، وكل ما يرجوه أن يفارق هذا الفراقَ المتكرر ، حتى يستقر مع إخوانه وأحبابه الذين يرعى لهم حقوق الوفاء ، فيقول :

كم بلدةٍ فارقتُها ومعاشر   يُذرون من أسفٍ علىَّ دموعا

وإذا أضاعتنى الخطوبُ فلن أُرى   لعهود إخوان الصفاء مُضيعا

خاللتُ توديعَ الأصادق للنوى   فمتى أودِّع خلِّىَ التوديعا ؟

وهذا صالح بن عبد القدوس الشاعر الحكيم المكفوف يصوِّر حرصه على الوفاء ، فيقول :

لا أخون الخليلَ فى السر حتى   يُنْقَلَ البحرُ فى الغرابيل نقلا

أو تمور الجبال مورَ سحابٍ   مثقلاتٍ وعت من الماء حملا

وهذا سعيدُ بن المبارك بن الدَّهَّان المكفوف يصوِّر لنا كيف وَفى

لصديقه ، ولكن هذا الصديق ملَّه أو غدر به ، ويقرر ابن الدهان أن أعز شيء فى هذا الوجود هو الصديق الوفى المخلص ، فيقول :

وأخٍ رخصتُ عليه ، حتى ملَّنى والشيء مملول إذا ما يرخص
ما فى زمانك من يعز وجودُه إن رمته إلا صديقٌ مخلص

وهذا منصور بن إسماعيل الفقيه المكفوف يعطينا صورةً من صور الوفاء فى الصداقة ، فيذكر لنا أن من شيمة الصادق فى وده ، الوفى فى أخوته ، أن يعاتب أخاه ، لأن المودة تصدق وتقوى بهذا العتاب ، وإذا أُسقط العتاب عند مناسبته دلَّ ذلك على التكلف والاصطناع فى الإخاء ، وذلك ليس من شيمة الأوفياء ، فيقول منصور :

إذا تخلفتَ عن صديق ولم يعاتبك فى التخلفْ
فلا تَعُدْ بعدها إليه فإنما ودُّه تكلف

ومنصور بن إسماعيل نفسُه يعرف أن العبرة فى المودة بلقاء القلوب ، لا بلقاء الأشباح فحسب ، لأن الأجسام قدتتلاقى والأرواح فى تنافر وهجران. ويصور أمير الشعر والشعراء شوقى ذلك المعنى فى مسرحيته (مجنون ليلى) إذ يقول على لسان ليلى ، حين تصف ما بينها وبين زوجها « ورد » من تنافر وتباعد ، برغم اجتماعهما فى بيت واحد :

فنحن اليوم فى بيتٍ على ضدين منضمٍّ
هو السجنُ ، وقد لا ينـ طوى السجنُ على ظلم
هو القبر ، حَوَى مَيْتيـ ن ، جارين على الرغم
شتيتين ، وإنْ لم يبعد العَظْمُ من العظم
فإن القُرب بالروح وليس القربُ بالجسم !

ولذلك يقول منصور بن إسماعيل الكفيف :

قد قلتُ لما أن شكت ترْكى زيارتَها خَلُوبُ :
إن التباعد لا يضر إذا تقاربت القلوب !

واقد حدثنا التاريخ أن الخليفة العباسى هارون الرشيد لما أخذ يبطش بالبرامكة بطشتَه المعروفة ، بعث بخادمه وسيَّافه « مسرور » ، ليضرب عنق جعفر البرمكى ، فدخل مسرور على جعفر ، وعنده أبو زكاّر المغنى المكفوف وهو يغنيه ، فهجم مسرور على جعفر وضرب عنقه ، فوثب إليه أبو زكاَّر وقال : نشدتُك بالله إلا ألحقتنى به . فتعجب مسرور ، وقال للمكفوف : وما رغبتُك فى ذلك ؟.

فقال أبو زكاَّر : إنه أغنانى عمن سواه بإحسانه ، فلا أحب أن أبقى بعده .

فقال مسرور : لا أستطيع ذلك ، حتى أستأمر أميرَ المؤمنين ؟. أى آخُذ أمره بذلك ؟ .

وعاد « مسرور » فأخبر الخليفةَ بما حدث من أبى زكاّر ، فأُعجب هارون الرشيد بوفاء ذلك المكفوف ، وقال : هذا رجل فيه مصطَنع (أى يحفظ الجميل) فانظر يا مسرور إلى ما كان يُجريه عليه جعفر فأقرَّه عليه ! . . .

* * *

وفى المكفوفين أنفة وإباء للضيم ، وترفُّع عن مواطن الذلة ومواقف المهانة ، وقد يحتمل أحدهم شظفَ الحياة وشدة العيش ، ويكتفى بالضرورى فى دنياه ، حتى لا يريق ماءَ وجهه أمام من لا يحفظه ، وحتى لا يبتذل كرامته

عند من لا يصونها ، ويترجم عن ذلك أحدهم ، وهو منصور بن إسماعيل أيضا ، فيقول

من كَفَاه من مَسَاعِيـ ـه رغيفٌ يغتذيهْ
وله بيت يواريـ ـه ، وثوب يكتسيه
فعلام يبذل الوجـ ـهَ لذى كِبْرٍ وتيه ؟
وعلام يبذل العر ضَ لمخلوق سفيه ؟

° ° °

ونرى فى المكفوفين جرأةً وثباتا ، مع حسن حيلة فى سبيل الوصول إلى الهدف ؛ ويروى التاريخ أن الجنيدبن عبد الرحمن كان واليا على خراسان فى أيام هشام ؛ فقبض على صبيح الخارجى وجملة من أصحابه ، فقتلهم إلا رجلا مكفوف البصر تركه ، فقال له المكفوف : أنا أدلك على أصحاب صبيح الباقين ، لأجازيك بما فعلت .

وكأن المكفوفَ قد بلغ به الغيظ والحزن ما بلغا لفقد إخوانه فى الرأى والمذهب ، فجعل يسمِّى للجنيد أسماءً والجنود يقتلون من يسمى ، حتى قتلوا مائة ، وهنا قال الكفيف للجنيد : لعنك الله ، أتزعم أنه يحلُّ لك دمى ، وأنى ضال ، ثم تقبل قولى فى مئة قتلتهم ؟ لا والله ، ما ذكرتُ لك من أصحاب صبيح رجلا واحدا ، ولكن المقتولين جميعا من رجالكم ومن أعدائنا ! . . .

وكان المكفوف يعرف من غير شك نتيجة ذلك التصريح ، وهى القتل ، وقد كان ! ...

وهذا الموقف من غير شك يدل على عزيمة صارمة ، ودهاء بعيد ،

وثبات على الرأى عجيب ، دون أن نتعرض هنا لصواب ذلك الرأى أو خطئه

وها هو ذا شاعر كفيف مات منذ حين قريب ؛ وهو أحمد الزين ، يعطينا دليلاً آخر على اعتزاز المكفوفين بآرائهم وثباتهم على عقيدتهم ، فيصوغ قصيدة عنوانها : « الرأى » ، فيصوِّر لنا كيف يحمل نفسه على المتاعب والمكاره فى سبيل رأيه وعقيدته ، وأنه لا يقبل الدنيا كلَّها فى سبيل مراءاة أو نفاق ، وأن رأيه عنده مثل روحه ، يحرص عليه كما يحرص عليها ، وأن عقيدة المرء كعِرضه ، والعرض يجب أن يصان ، وأن لا يهان ، وأن فكرةَ المرء يجب أن تكون عنده كدمه السارى فى جسمه وشرايينه ، وأن الذين يبيعون ضمائرهم ، ويتنكرون لمبادئهم هم كالبغايا اللواتى يتاجرن بأجسامهن ، فى سبيل عرض زائل أو قوت رخيص ؛ وأن الوضيع المنافق فى رأيه كالحذاء يكون موضع الذلة ولو كان لامعا صقيلا ؛ ولذلك يجب على الحر الكريم أن يعيش أمةً وحده ، وأن يصبر على الحق الذى يؤمن به ولو خالفه الناس ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكن أحدكم إمَّعَة[1] ، يقول : إن أحسن الناس أحسنتُ ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسَكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

يقول الشاعر فى قصيده ذاك :

سأحمل فى الرأى مضَّ الألمْ	وأصبر للخطب إما ألمّْ
وأحمل نفسى على مُرِّها	إذا ضامها ما يضيم الكرمْ
ولا أشترى كلَّ هذا الوجود	ولا العيشَ فيه ببعض الشَّمَم

---

(١) الإمعة : الرجل يتابع كل أحد على رأيه ، ولا يثبت على شىء ، ومن يقول : أنا مع الناس.

وأزهد فيما بناه الرياء ... وأصدع بالرأى مهما هدم

فأهْوِنْ علىَّ بدنيا النفاق ... وجاهٍ يُنال ببيع الذمم

هو الرأىُ روحُك، فاحرص عليه ... فما بَعْدَ روحِك غيرُ العدم

وحكمُ القلوب بإلهامها ... وما أصدق القلبَ فيما حكم

فلا تطلبنَّ ودادَ الصديق ... بمدحٍ كذوبٍ خسيس القيم

فإن اللسان رسولُ القلوب ... يعبِّر عنها بلا أو نعم

وإن العقيدة عِرض فصُنْهُ ... إذا كنت ممن يصون الُحرَم

سرتْ فى فؤادك مسرى الدماء ... فلا تبذل الدمَ إلا بدم

أمانة ربِّك فى خَلْقه ... فمن كتم الحقَّ فيها ظلم

وميثاقُه قبل خَلْق الجسوم ... تلقته أرواحُنا فى القدم

بها رفع الله تلك النفوس ... وميزها عن سَوَام النَّعم

فلا تغبطن أخا حُظوةٍ ... فما نالها برخيص القيم

ولكنه باع فيها الضمير ... وألقى العقيدةَ تحت القدم

وساوم بالنفس فعلَ البغىِّ ... رمت بالحياء ابتغاءَ اللُّقَم

وكم أسخط الحق فى موطن ... وكم ألبس النورَ ثوبَ الظُّلَمَ

تكاد مظاهرُه الخالبات ... تشف لعينيك عما كتم

ويوشك منظرُه المجتلَى ... يحدِّث عما طوى من تُهم

فلا تغترر ببهاء الوضيع ... فكم من حذاء صقيل الأَدَم

وعش بالعقيدة عيش الكرام ... ومُتْ رجلا تحت هذا العَلَمْ

ولا تعتدد بالأُلَى خالفوك ... وكن أُمَّمًا إن عصتك الأمم!

* * *

وقد يُفهَم من الاعتزاز بالرأى معنى الحدة والشدة والغلظة، وهذا خطأ، فكم من عزيز فى رأيهِ ثابت على مبدئه، نراه ألينَ الناس عريكة، وأسهلَهم طبعا، وأدمثهم خلقا؛ وإذا كنا نرى من المكفوفين من يثبت على رأيه، ولا يقبل فيه مساومة، ولا يطيق عنه رجوعا، فإننا نرى فيهم مع ذلك من يضرب الأمثال فى رقة الطباع ودماثة الأخلاق.

فهذا هو العلامة المكفوف المبارك بن المبارك بن الدهان الواسطى، كان حسن التعليم، طويل الروح، كثير الاحتمال للتلاميذ، وكان لا يغضب أبدا، ولم يره أحد حَرْدان[1]؛ وراهن إنسانٌ على إغضابه، وجاء إليه وعنَّتَه[2] فى مسألة، وشتمه وسبه، فلم يغضب، بل قال له: قد فهمتُ مقصودك، ولن تصل إليه!...

وهذا الموقف يذكِّر بما كان من أمر الأحنف بن قيس، فقد كان مثَلاً فى الحلم والصبر على سفاهة السفهاء.

وقعت مشاجرةٌ بينه وبين أحد الناس، فقال له ذلك الرجل: إن قلتَ كلمة لتسمعن عشر كلمات.

فأجاب الأحنف هادئا: لو قلتَ عشرا لم تسمع منى واحدة!.

وتراهن شخص مع آخر على أن يُغضب الأحنف، ويأخذ فى مقابل ذلك ألف درهم، فذهب الرجل إلى الأحنف، وأخذ يسبه ويبالغ فى شتمه، والأحنف يعرض عنه غير مكترث به، ولعله عرف قصدَه، واستهان بقدره، فلما رأى الرجل أن الأحنف لا ينظر إليه ولا يرد عليه، اغتاظ غيظاً شديداً،

---

(١) الحردان: الغضبان.

(٢) عنته تعنيتا: شدد عليه، وألزمه ما يصعب عليه أداؤه.

وجعل يعضُّ أناملَه ، ويقول : واسوأتاه ، والله ما يمنعه من جوابى إلا هوانى عليه !...

ولهذا قيل : الحليم من صَمَت عن سماع الخنى ، وأغضت عيناه على مضض القذى .

* * *

ونرى فى المكفوفين أحيانا شمما وسماحةَ نفس وجودَ يد ...

يروى الشبلى أنه أحس فى نفسه بخلا فأراد علاجه ، فجاءته صرة فيها خمسون ديناراً ، فأخذها وخرج ، فوجد حلاقاً يحلق لمكفوف ، فأعطى الصرة للمكفوف ؛ فقال المكفوف : أعطها للحلاق . فقال الحلاق : إنى نويت حلق رأسِ هذا المكفوف لله !.

فقال الشبلى للمكفوف : إنها ذَهَب !.. فقال المكفوف : ما هذا البخل ؟ !..
ثم إنه أخذها ودفعها إلى الحلاق ، فأبى ، وهكذا أبى كلٌّ منهما المال !..

* * *

ونرى فى المكفوفين تكييفاً للظروف وملاحظة للمناسبات ، فهم فى مواطن الحمد يُثنون ويشكرون ، فإذا رأوا الجحودَ بادياً ، أو النكران مستعلِناً ، غضبوا وثاروا ، وقالوا كلمةَ الهجاء قاسية ، كما قالوا كلمةَ الثناء لينة .

هذا مثلا الشاعر المكفوف ربيعة بن ثابت الأسدى ، من شعراء العصر العباسى ، يمدح العباسَ بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، اعتقادًا منه بأنه أهل له ، وتوقعاً لإكرامه على عادة الشعراء يومئذ ، فيقول فى مدحه قصيدةً من عيون الشعر العربى فى باب المديح ، ومنها قوله :

لو قيل للعباس : يا ابن محمد   قل : لا ؛ وأنت مخلَّد ، ما قالَها

ما إن أعدُّ من المكارم خصلةً   إلا وجدتَك عمَّها أو خالَها
وإذا الملوك تسايروا فى بلدة   كانوا كواكبَها، وكنت هلالَها
إن المكارم لم تزل معقولةً   حتى حللت براحتيك عقالها

فماذا كان موقف العباس بن محمد من ذلك الشاعر المادح، ومن تلك القصيدة الغراء ؟ . لم يزد على أن بعث إلى الشاعر بدينارين اثنين لا غير !!..

وغضب ربيعة الشاعر، وثار ومار ؛ فلقد كان ينتظر على قصيدته الألوف، أو المئات على أقل تقدير ... أفينتهى به بخل ممدوحه أو استهانته بشأنه إلى دينارين ؟ ... إنها لإحدى الكُبر عند الشاعر ... وامتشق حسامَه وهو قلمه، ليضرب به هاجياً، كما خطَّ به من قبلُ آياتِ المديح، فقال يهجو العباس :

مدحتُك مدحةَ السيف المحلَّى   لتجرى فى الكرام كما جريتُ
فهبها مدحةً ذهبت ضيـــاعا   كذبتُ عليك فيها وافتريت
فأنت المرء ليس له وفاء   كأنى إذ مدحتك قد رثيت !

وبلغت الأبياتُ مسمعَ العباس بن محمد، وعزَّ عليه أن يسكت بعد هذا الهجاء، وأراد أن يبطش بالشاعر المكفوف، وأن يبطش به عن طريق قرابته من الخليفة العباسى هارون الرشيد، وخصوصاً أن الرشيد فى ذلك الوقت كان يفكر فى تزويج ابنته للعباس بن محمد ؛ وجاء العباس فشكا إلى الرشيد ما فعل ربيعة ؛ وطلب الرشيد أن يسمع القصيدة، فتُليت عليه فأعجبته كثيراً، ولما سأله عن جائزتها وعرف أنها ديناران، استقلهما واستشاط غضباً، وقال : والله ما قال مثلَها أحدٌ فى الخلفاء . ثم نادى غلامه قائلا : يا غلام، أعط ربيعة ثلاثين ألف درهم، وخِلعةً، واحمله على بغلة .

ثم قال الرشيد لربيعة : بحياتى ، لا تذكره فى شعرك ، لا تعريضاً ولا تصريحاً .

وانصرف الرشيد عن فكرة تزويج ابنته للعباس جزاءَ هذا الموقف.

وهذا يذكّرنا بموقف نصيب الشاعر مع مسلمة بن عبد الملك . قال له مسلمة : أمدحت فلاناً ؟ (لرجل من أهله) . فقال نصيب : نعم لقد فعلت . قال مسلمة : أو حَرَمَك الجزاء ؟. قال : نعم يا أمير المؤمنين فقال مسلمة : هَلاَّ هجوتَه يا نصيب ؟. قال : لم أفعل يا أمير المؤمنين . قال مسلمة : ولم لمْ تفعل وقد حرمك الجزاء ؟ . قال نصيب لأنى كنتُ أحقَّ بالهجاء منه ، إذ ظننتُه موضعاً لمدحى !...

وكان هذا التعبير من نصيب أبلغ هجاء ، فأعجب به مسلمة ، وقال له : اسألنى يانصيب . فقال : إن كفَّك بالعطية أجود من لسانى بالمسألة يا أمير المؤمنين[1] !! ..

ويُروى أن بشار بن برد مدح المهدى ، فلم يعطه المهدى شيئا ، فقيل لبشار : إنه لم يستجد شعرك يا أبا معاذ . فقال بشار : والله لقد قلتُ فيه شعرا لو قيل فى الدهر لم يُخش صَرْفُه على أحد ، ولكننا كذبنا فيه فى القول ، فكذب هو فى الأمل .

* * *

ومما هو قريبٌ من هذا المجال أن الخليفة المتوكل قال لأبى العيناء المكفوف المشهور : بلغنى عنك بَذاء (فحش) فى لسانك ؟ فقال أبو العيناء :

---

(١) الأجوبة المسكتة ، ص ٧٠ .

يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد مدحَ وذم ، فقال يمدح : « نعم العبد إنه أوّاب[١] » . وقال يذم : « هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم[٢] » .
وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أُثن صادقا   ولم أشتم النِّكْسَ[٣] اللئيم المذمَّما
فقيم عرفتُ الخير والشر باسمه   وشق لى الله المسامعَ والفما ؟

وقال بعض الناس لأبى العيناء : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ؟. فقال : ما دام المحسنُ يحسن ، والمسىء يسىء ، وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تَلْسِبُ (أى تلدغ) النبيَّ والذِّمى ! ..

* * *

ونلحظ فى أخلاق المكفوفين تواضعاً ، فهذا هو الإمام المكفوف أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى عالم أفريقية ، والحافظ الفقيه العظيم ، نراه حينما جلس ليحدِّث الناس ويفتيهم ويناظرهم ، يُظهر غايةَ التواضع ، فيشهد على نفسه — من كرم خلقه — أنه لم يجلس هذا المجلسَ لأنه أهله أو مِنْ مستحقيه ، بل لأنه لم يوجَد من مستحقيه أحد ، فرأى الناسُ أن يشغلوه بأى إنسان ، فكان هو ذلك الإنسان ، وذلك كما إذا فقدت السائمةُ المرعى الخصيبَ ، فإنها ترعى الهشيمَ الجافَّ المتطاير ، فيقول :

لعمر أبيك ما نُسِبَ المعلَّى   لمكرمة وفى الدنيا كريم

---

(١) الأواب : كثير الرجوع إلى مرضاة الله .

(٢) هماز : عياب . مشاء بنميم : نقال للحديث على وجه السعاية . مناع للخير : يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح . معتد : متجاوز فى الظلم . أثيم : كثير الإثم (تفسير البيضاوى) .

(٣) النكس : المقصر عن غاية الكرم ، وإنه لنكس من الأنكاس : للرذل (القاموس والأساس) .

ولكن البلاد إذا اقشعرت   وصوّح نبتُها رُعى الهشيم

ثم يبكى حتى يبكى الناس معه ، ويقول : أنا والله ذلك الهشيم (ثلاثاً) ، والله لو أن فى الدنيا خضراءَ ما دُعيتُ أنا ! . .

ويظهر أن المكفوفين يحبون هذا الُخلقَ الكريم ، وهو التواضع ، ولذلك نرى شاعراً منهم — هو المرحوم الزين — تعجبه تلك القصةُ المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تقول إن أعرابياً لقى النبىَّ فأصابته من رؤيته هيبةٌ ورِعدة ، فقال له النبى : هوِّن عليك ، فلستُ بملك ولا جبار، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد[1] بمكة ... فيصوِّر الشاعر تلك القصةَ فى أبيات رقيقة له فيقول :

مما حفظناه من الآثار   وما سمعناه من الأخبار

أن امرأً أتى إلى محمدِ   يسأله عن دينه ويهتدى

فأدركته رعدة ، وهيبهْ   لما رأى محمداً وصحبَه

فإنه كان مهيبَ المحْضَرِ   إن تلْقه ، كأنه فى عسكر

قال له النبى : ماذا ترهبُ   منّا، وقدجئت إلينا ترغب؟

هوِّن عليك ، ما أنا جبارُ   ولا أنا بين الورى قهار

أمىَ كانت تأكل القديدا   أكرمْ بهذا خُلُقاً حميداً

وهكذا كلُّ عظيم القدرِ   دانٍ إلى الناس قليل الفخرِ

ويعود الشاعر فى قصيدته فيحرض الناس على التواضع ، فيقول :

وكن شبيهَ البدر فى السماءِ   ونورُه يلوح فوق الماء

إن الفتى من لم يقل : أنا أنا   كالغصن إن أثمر مال وانثنى

---

(١) القديد : اللحم المشرر المقدد ، أو ماقطع منه طوالا (القاموس) .

وقد نرى بعضَ المكفوفين يعتزون بأنفسهم ، ويفخرون بأعمالهم ، ولكنهم يخضعون للحجة حين تقام عليهم ، وينقطع منهم الفخر حينما يقابلهم الموقف القاطع .

هذا أبو العلاء المعرى نابغة المكفوفين ، لقيه غلام أعرابى ، فقال له : من الشيخ يكون ؟. قال المعرى أنا أبو العلاء المعرى شاعركم المعروف .

فقال الغلام :

أهلا بالشاعر الفحل ، ذى القول الجزل ، والرأى الفصل ؛ أنت القائل فى شعرك :

وإنى وإن كنت الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ ؟

قال أبو العلاء : نعم أنا القائل ولا فخر .

فقال الغلام : قول طيب ، وثقة بالنفس واعتداد ؛ ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانيةً وعشرين حرفا للهجاء ، فهل لك أن تزيد عليها حرفا واحداً ؟ .

فسكت أبو العلاء ، وقال بعد ذلك : والله ما عهدتُ لى سكوتاً كهذا السكوت ! ...

والمكفوفون قوم يحسون بجمال الفن ، ويستجيبون لنداء العاطفة ، ولا يجمدون داخل القيود المرهقة والأغلال الثقيلة . بل يأخذون لقلوبهم حظوظَها ، كما يؤدون لربهم حقَّه ، فهم قوم يحاولون أن يأخذوا قسطَهم من اللهو ، وأن يضربوا بسهمهم فى الفكاهة ، وأن ينالوا نصيبهم من سماع الموسيقى والغناء .

فهذا هو الفقيه المكفوف الإمام عبدالملك بن عبدالعزيز القرشى التيمى

المالكى المتوفى سنة اثنتى عشرة ومائتين ، والذى يقول فيه أحمد بن المعدل : كلما تذكرتُ أن التراب يأكل لسانَ عبدالملك صغُرت الدنيا فى عينى . ويقول فيه يحيى بن أكثم : كان بحراً لا تكدِّره الدِّلاء . . .

كان هذا الإمام مولَعاً بالغناء ، وقال أحمد بن حنبل عنه : قدم علينا ومعه من يغنيه .

ولكن ليس معنى هذا أن يستخف الطربُ شعور المكفوفين ، فيخرجهم عن طورهم ، أو يُظهرهم بمظهر المضطربين غير الثابتين ، بل الواجب يقتضيهم فى مواقف الحزم والعزم أن يحفظوا كيانهم ، ولا يخرجوا عن سكينتهم ورزانتهم ؛ وهذا هو القاضى الكفيف جمال الدين محمد بن سالم الشافعى الحموى المتوفى سنة ٦٩٧ ؛ كان رقيق الإحساس عميق الشعور ؛ ومع ذلك كان يضبط نفسه عند اللزوم .

يروى التاريخ أن بعض ملوك مصر أرسل هذا القاضى إلى الأنبرور ملك الفرنج ، فأحضر الملك له الأرغل ، وأمر أن يضربوا به أمامه ، وأراد بذلك أن يستخفه : فيقال إنه ما تحرك ولا اهتز ، بل ثبت ، على الرغم من حبه المفرط للموسيقى وافتتانه الشديد بالألحان ؛ وما أظهر لهم خفةً لذلك ولا طربا ، إلا أنه لما قام وجدوا تحته نقطَ دم ، ويقال إنه بقى يحك كعبيه فى الأرض إلى أن أدماهما .

وعظم أمره عند الأنبرور وقال له : يا قاضى ، أنا ما عندى ما أسألك عنه ، لا فقه ولا عربية ... وسأله ثلاثين سؤالا فى موضوعات أخرى ، فبات القاضى تلك الليلة ، وصبَّح الملكَ بالإجابة ، فصلَّب الأنبرور على وجهه ، وقال :

هكذا يكون قسيس المسلمين .. وذلك لأن القاضى لم يكن معه كتب فى تلك السفرة ، وإنما أجابه عن ظهر قلب .

وقد نلمح فى المكفوفين صبراً على القضاء ، وثباتاً عند الابتلاء .

فقد حدَّث أبو عمرو الأوزاعى قال :

حدَّثنى بعض الحكماء قال : خرجتُ وأنا أريد الرباط ، حتى إذا كنت بعريش مصر ، إذ أنا بمظلة[1] فيها رجل ، وقد ذهبت عيناه ، واسترسلت يده ورجله ، وهو يقول : الحمد لله سيدى ومولاى ، اللهم إنى أحمدك بجميع محامدك كلها ، حمدًا يوافى محامد خلقك كفضلك على سائر خلقك ، إذ فضلتنى على كثير ممن خلقتَ تفضيلا .

فقلت : والله لأسألنه وأعلمن ما ألهمه إليها . فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد السلام .

فقلتُ له : رحمك الله ، إنى مسائلك عن شىء ، فتخبرنى به أم لا ؟ .

فقال : إن كان عندى منه علم أخبرتك به .

فقلت : يرحمك الله ، على أى نعمة تحمده ؟ أم على أى فضل من فضائله تشكره ؟.

فقال : أو ليس ترى ما قد صنع بى ؟ . فقلت : بلى . فقال : والله ، لو أن الله تبارك وتعالى صبَّ علىَّ من السماء ناراً تُحرقنى ، وأمر الجبالَ فدمَّرتنى ، وأمر الجبال فخسفت بى ، ما ازددت له سبحانه وتعالى إلا حباً ، ولا ازددت له إلا شكرًا ، وإن لى إليك حاجة ، فتقضيها لى ؟ . قلت : نعم ، قل ما تشاء !. فقال ابن لى كان يتعهدنى أوقات صلاتى ، ويطعمنى عند إفطارى ، وقد فقدته من أمس ، فانظر هل تجىء به إلىَّ ؟.

---

(١) المظلة : البيت الكبير من الشعر .

فقلت فى نفسى : إن فى قضاء حاجته لقربة إلى الله تعالى . وقمت وخرجت فى طلبه ، حتى إذا صرت بين كثبان الرمل إذ أنا بسبع قد افترس الغلام يأكله. فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ! كيف آتى العبد الصالح بخبر ابنه ؟ .

فأتيته وسلمت عليه ، فردَّ علىَّ السلام . فقلت : يرحمك الله ، إن سألتك عن شىء تخبرنى به ؟ .

فقال : إن كان عندى منه علم أخبرتك به .

فقلت : أنت أكرم على الله عز وجل ، وأقرب منزلة منه ، أم نبىُّ الله أيوب عليه السلام ؟ .

فقال : بل أيوب عليه السلام أكرم على الله منى ، وأعظم عنده درجة .

فقلت : ابتلاه الله فصبر ، حتى استوحش منه من كان يأنس به ، وكان غرضاً لمرَّار الطريق ؛ واعلم أن ابنك الذى أخبرتنى عنه ، وسألتنى أطلبه لك افترسه السبع ، فعظَّم الله أجرك فيه .

فقال : الحمد لله الذى لم يجعل فى قلبى حسرة من الدنيا .

ثم شهق وسقط على وجهه ، فجلست عنده ساعة ، ثم حركته فإذا هو ميت . فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . كيف أعمل فى أمره ؟ ومن يعيننى على غسله وتكفينه ودفنه ؟ .

فبينما أنا كذلك إذ أنا بركب يريدون الرباط ، فأشرت إليهم فأقبلوا نحوى حتى وقفوا علىَّ ، فقالوا : من أنت ؟ وما هذا ؟ .

فأخبرتهم بقصتى ، فعقلوا رواحلهم ، وأعانونى حتى غسلناه بماء البحر ، وكفَّنّاه بأثوابٍ كانت معهم ، وتقدمت أنا فصليت عليه مع الجماعة ، فدفناه

فى مظلته ، وجلست عند قبره أُنساً به أقرأ القرآن ، إلى أن مضى من الليل ساعات ، فغفوت غفوة ، فرأيت صاحبى فى أحسن صورة وأجمل رؤيا ؛ فى روضة خضراء ، عليه ثياب خُضر ، قائماً يتلو القرآن .

فقلت له : ألست صاحبى ؟. قال : بلى

فقلت : فما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ .

فقال : اعلم أنى وردت مع الصابرين لله عز وجل ، فى درجة لم ينالوها إلا بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء . وانتبهت ! . . .

قال الإمام الأوزاعى يعلّق على القصة : فكنتُ أحب البلاء مذ حدثنى الحكيم بهذا[١] .

* * *

قد يقال : إننا لم نستعرض إلا طائفة من الأخلاق الحميدة للمكفوفين ؛ وقد يكون هناك جوانب مقابلة من الطباع والأخلاق لم نستعرضها . .

وهو كذلك ، فقد نستفيد من ذلك الاقتصار فائدتين ، أو لعلنا نهدف من وراء ذلك إلى غرضين :

الأول : الإيحاء إلى المتخصصين فى شئون المكفوفين بأن يحرصوا على بث أمثال هذه الأخلاق الكريمة فى صفوف المكفوفين لينشأوا عليها ،

---

(١) كتاب محاسن المساعى فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى ، ص ١٥٣ ، نشر وتعليق الأمير شكيب أرسلان .

ويتطبعوا بها ، ويزدادوا من جمال التحلي بها ، وبخاصة الذين يشرفون على أمور المكفوفين الناشئين ؛ وعَرْضُ السير الجميلة يوحى بالاقتداء الحسن ، كما أن المثل السيء قد يؤدى إلى الانحراف .

الثانى : أن نُوحى إلى المكفوفين المعاصرين بأن يتشبهوا بهؤلاء المكفوفين السابقين فى هذه الخصال الحميدة ، وقد يكون من منهاج المربى الموجِّه أن يقتصر حيناً أو أحياناً على الجوانب المشرقة ، ليوحى بتقليدها والنهج على طريقها . إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب .

ذكاء المكفوفين

واقتدارهم على استغلال حواسهم ومواهبهم

نلاحظ عند المكفوفين فى كثير من الأحيان ذكاءً غير عادى ، وقد يسبق أحدُهم فى هذا المجال غيرَه من المبصرين ؛ وقد لحظت العربُ هذا من قديم الزمان ، فقالت فى أمثالها : « ربما أصاب الأعمى رشدَه » ؛ وقالت : « يطرق أعمى والبصير جاهل » ؛ والطَّرق هو الضرب بالحصى ، والمراد به هنا الحيلة وحسن التصرف ، ويُضرب المثل لمن يتصرف فى أمر ولا يعلم مصالحه ، فيخبره بالمصلحة غيره من خارج . وفى أمثالهم أيضا ما يشير إلى جعل المكفوف مثلا فى الحفظ وقوة الذاكرة والتماع الذكاء ، كقولهم : « أحفظُ من العميان » .

وهناك من يعتقد أن الله سبحانه يهب المكفوفَ قوةً من عنده ، يستطيع بها أن يكون ذكيا دقيقَ الإحساس والإدراك ، ويعارض فى ذلك الاعتقادِ بعضُ الباحثين ، ويرى أن الأمر لا يعدو استغلالَ مَلَكات ومواهب عند المكفوف ، فهو حين يفقد بصره يعمد إلى غير البصر من حواسه يستخدمها ، ويستغلها ، ويثير قواها ، فيكون له من وراء ذلك الاستغلال دُربةٌ وحيلة وحسن تصرف .

ويقول ذلك البعض : نحن لا نثبت للمكفوفين قدرةً خاصة خارقة فيما يتعلق بالذكاء أو الإدراك ، ولكننا نرى أن تدريب الحواس ، مع الرغبة ، مع حضور الذهن مما يؤدى إلى براعة المكفوف بهذه الصورة ، حتى ليبدو أحيانا وكأنه أبرع من المبصر .

وقد قام (مارك ديفور) أحد أطباء العيون المشهورين بإجراء عدة تجارب ، وخلص منها إلى أن المكفوفين أكثر قدرة من المبصرين فى تحديد اتجاه الصوت ، وردَّ هذا التفوقَ إلى أن ظروف إحساس المكفوفين تدفعهم

إلى الاعتماد على حاسة السمع باستمرار فى إدراك ما حولهم من الأصوات ومصادرها ، فلم تعد المسألة إذن فى نظر (مارك ديفور) أكثر من تدريب للحواس على التمييز بين الأصوات بحكم ظروف المكفوفين .

هذا مثلا مكفوفٌ له مقدرة غريبة على معرفة ورق اللعب — حيث يكسب فى أغلب الأحيان — وكان يعرف الورق بواسطة أطراف الورق المثنية . وكان يستخدم أناملَه فى التمييز بين كثير من ورق اللعب وهو يوزعه على رفاقه .

وهذا مكفوف كانت لديه كتلة خشبية ، لها ثمانية أوجه ، وكل وجه منها مطلى بلون خاص ، وكان يميز بينها بحاسة اللمس ، لأن هذه الأوجه مدرَّجة فى خشونة ملمسها ، وهو قد تدرب على معرفتها تدريبا متواليا حتى أمكن أن يتقن التعرف عليها[١] .

ولو سلَّمنا مع هذا البعض بأن الأمر لا يعدو منطقة التدريب ، فإن هذا لا يتعارض مع إفادة ذلك أن المكفوف فيه استعداد عقلى وحسى يدل على ذكاء والتماع ذهن ...

وقد يدهش الناسُ إذ يرون مكفوفا يسير فى الطريق ، وكأنه من ذكائه ودقة إحساسه يرى ويشاهد ، فهو يُحس بأجسام قريبة منه ، أو يتجنب أخطاراً دانية ، ويرى الباحثُ (جبرائيل فارل) الأمريكى المتخصصُ فى شئون المكفوفين أن المكفوفين يرون ، ولكن بغير عيونهم[٢] ، ويقول له أحد المكفوفين : إننى عندما أقترب من شجرة أعلم أننى مقترب منها ، ولكن

---

(١) مجلة علم النفس ، عدد أكتوبر ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٣ . بحث للأستاذ جليل شكرى

(٢) مجلة المقتطف ، عدد نوفمبر سنة ١٩٣٦ .

كيف ؟ ... لستُ أدرى : وأتلمسها فأعرف نوعها ، وأتصور أغصانها وأشجارها ، وأستنشق رائحة أزهارها ، أى أننى أراها إلا لونها ! ...

وكأن للمكفوف قدرةً خاصة نستطيع أن نسميها « الحاسة السادسة » وكأن هذه الحاسة تعتمد على الإحساس بما يعترض سبيل المكفوف من عقبات ، وعلى تبادل الإحساس ، أو تعويض حسٍّ بآخر ، وعلى القدرة على التوجه فى اتجاه معين ، وهى قدرة قائمة على ما يُعرَف بالذاكرة العضلية : وذلك كما يمشى صاحب الدار فيها أثناء الظلام ، فيتجنب العقبات والاصطدام بالأشياء وأنواع الأثاث ، لأن عضلاته تعلمت مواقعها المألوفة ، وكذلك يسير المكفوفون ولا يخطئون ، وتبدو منهم دقة ملاحظة فى ذلك الباب تدل على ذكاء عجيب .

ولقد كانت هناك فتاة تسير بين صفين من المنازل ، وفى أثناء السير تتوقف قليلا ، وتصفِّق بيديها ثم تسير مستقيمة الخطا ، وتنعطف حيثُ يجب أن تنعطف ، وكأنها تعرف الطريقَ بصدى الصوت ...

والحواس الأخرى فى المكفوف غيرَ البصر يكثر تدريبُها وتمرينها بعد فقد البصر ، فتقوى وترهف ، فهو مثلا يمرن أصابعَه حتى تصبح عيناً له ، يقرأ بها ويلمس ويدرك ويعبِّر ، وإذا فقد المكفوف أناملَه — لاقدر الله — فإنه يستطيع أن يستعيض عنها بلسانه أوشفتيه ، ويمكنه بهذا اللسان أوالشفتين أن يقرأ على طريقة بريل Braille ، وقد حدث هذا فعلا مع بعض المكفوفين الذين شاء سوءُ حظهم أن يفقدوا مع أبصارهم أناملَهم ، فقام لسانهم أو شفاههم مقام هذه الأنامل ، واستطاعوا عن طريق هذا اللسان أن يُظهروا مقدرةً فائقة تدل على تفنن وذكاء .

وقد جاء فى عدد فبراير سنة ١٩١٦ من مجلة الهلال تحت عنوان « أعمى يقرأ بلسانه » العبارة التالية :

« لا يخفى أن العميان يقرأون بواسطة اصابعهم التى يُجرونها على صفائح أحرفُها بارزة ، وقد أصيب أحدُهم فى أمريكا بفقد يديه بعد فقد بصره ، فلم يمنعه ذلك من القراءة ، بل إنه استخدم لسانه لهذا الغرض ، كما يرى القارئ فى الصورة السابقة (نشرت المجلة صورة للكفيف يقرأ بوساطة لسانه) .

ثم إنه أيضا لم يمتنع عن المشى بعد فقد يديه اللتين كان يتلمس بهما طريقه فإنه نصب فى حديقته حبلا طويلا بين شجرتين على بعد ١٣٠ قدماً ، بعد أن أدخل فى الحبل أسطوانة مثقوبة فى وسطها ، فإذا أراد النزهةَ وضع الأسطوانة تحت إبطه وجرها على الحبل ، وقد تمكن بهاتين الوسيلتين من الاستعاضة عن أثمن الأعضاء لدى الأعمى ، نعنى يديه » .

وفى مجلة « الجنان » جاء تحت عنوان « الأعمى البصير » العبارة التالية :

« ما أجدر هذا العنوان بالإلغاز على كون العمى والبصر واقعين ، فقد روت إحدى صحفنا الوطنية أخذا عن إحدى الصحف الإنكليزية أن امرأة عمياء تدعى (كرواد) تدرك لون الجسم بأن تمسه بخدها ، فتميزه من حرارته ، أو لينه ، أو قساوته ، أو خشونته ، فإن تلك الصفات تختلف بلمسها باختلاف المتصف بها ، فهى إذن العمياء البصيرة ولا شك »[1] .

وأحيانا يدرك المكفوفُ قربَه من عمود بينه وبينه خمسة عشر مترا ، ويتحدث مكفوف عن مثل هذا فيقول إنه يحس كأنه يدخل منطقة يقع عليها ظل هذا العمود ، يقول : وكأننى أحس عند اقترابى منه بظلام ، ويتحدث

---

(١) مجلة الجنان ، مجلد سنة ١٨٨٤ ، الجزء الأول ، ص ١١ .

هـذا المكفوف بأن إحساسه بمثل ذلك يكون فى الليل أدقَّ منه فى النهار ، وكأن قلة الجلبة فى الليل تعاونه على دقة الإحساس .

ولقد سألتُ أحد المكفوفين عن إحساسه بمثل العمود إذا اقترب منه ، فقال : إنى أحس به عن طريق ضغط الهواء ، وشعورى بتغيره .

وبعضهم يؤكد أن الاعتماد فى هذا الإحساس يكون على الأذن والوجه ، لأن شعور هاتين الحاستين بضغط الهواء أشد من شعور غيرهما ؛ ويقول أحدُ المكفوفين : إن هذا الشعور شبيه بغمس الإصبع فى الماء ، ثم تعريضه للهواء .

ومهما يكن من أمر فإن إحساس المكفوف بالأجسام يتطلب منه يقظة دائمة . وهذه سيدة مكفوفة تقرر أنها تستطيع أن تتصور الشجرةَ عندما تقترب منها ، وذلك بشرط أن تكون متيقظة منتبهة غير مشغولة بأمر آخر ، ولذلك كانت أحياناً تمسك عصا لتتحسس بها من الأجسام ، إذ هى تريد صرف انتباهها إلى تغريد العصافير .

ولا يمكن للمكفوف أن يصل إلى هذه الدرجة من الإدراك والإحساس الدقيق اللاقط فجأةً ، أو من غير تجربة ومرانة ، بل لابد من محاولةٍ وتعرض مستمر للتجربة ، والكفيفُ الذى يبقى منزوياً ، ولا توجد عنده الرغبةُ القوية للتغلب على نقصه الحسى لا يكتسب هذا النوعَ من الإدراك ، فالأمر يتطلب إذن خروجًا من العزلة ، ورغبةً فى التغلب على النقص ، وتكراراً لمحاولة ذلك ومثابرةً عليه .

والباحث (ديدرو) كان أولَ عالم وجَّه أنظارَ الناس إلى دقة إحساس المكفوفين وذكائهم ، فكتب سنة ١٧٩١م أن أحد المكفوفين يحكم على قربه

من النار من بعيد بدرجة الحرارة ، وعلى قربه من بعض الأجسام بتأثير الهواء فى وجهه ، وقد بلغ من دقة إحساسه بتغير الهواء أنه يستطيع التميز بين شارع وزقاق .

وقد كتب مكفوف يسمى (هانكى ليفى) فى كتاب له عنوانه : « كف البصر والمكفوفون » نُشر سنة ١٨٧٢م أنه سواء أكان فى الهواء أم فى حجرة مقفلة ، واقفاً كان أم ماشياً ، فإنه يستطيع أن يدرك — إذا كان أمام جسم — أذلك الجسم طويل أم قصير . . .

وفى سنة ١٨٩٥م بدأ باحث ألمانى يبحث فى هذا الشأن ، فزعم أن المكفوف اليقظ الذكى يقترب من الجسم ، فيدرك أولا تغيراً فى وقع خطواته ، ثم يتنبه لما يشعر به من الضغط على جبهته ، فإذا زاد الضغطُ عرف أن أمامه جسما فيتجنبه.

كما عُنى بهذه البحوث (وليم جيمز) سنة ١٨٩٠ ، و(دسلر) سنة ١٨٩٣ ، و(روبرت ماكدوجال) سنة ١٩٠٤ ، وللدكتور (صموئيل هاير) كتاب يسمى (الرؤية بالوجه والإحساس بالحوائل) وقد قضى ثمانية عشر عاما فى هذا البحث.

وبعد أن يفيض (جبرائيل فارل) فى أمثال هذه المعلومات يقول :

« وقبل ختام هذا البحث لابد من القول بأن وراء تعليل العلماء وتفسيرهم يبقى العاملُ الشخصى الذى قلما يُستطاع ضبطه ، فإن عجبى لن يقضى مهما أقرأ من المؤلفات العلمية عندما أذكر فتى فى معهدنا[1] فى السابعة من عمره ، أعمى أصم فى آن ، لا يخطئ مرة فى معرفة الداخل إلى الحجرة ، أرجل هو أم امرأة . أو عندما أذكر فتى آخر ، أعمى أصم مثله ، فى السابعة عشرة من عمره ، يدعو معلِّمَه باسمه كلما اقترب منه وأينما لقيه ؛ وفتاةً صغيرة تعطَى مكعباتٍ للعب بها ،

---

(١) يقصد معهد بركنز للمكفوفين فى أمريكا .

فلا تخطئ فى جمعها طوائفَ طوائف بحسب لونها ، وقد تمكنت إحدى فتياتنا من العناية بإدارة بيت ، على الرغم من كفِّ بصرها وصممها ، فتراها فى المطبخ تروح وتجئ ، وتقوم بجميع الأعمال كأنها مبصرة » .

وقد استطاع (جون كينتلى) وهو مكفوف من مقاطعة (اسكى) بانجلترا أن يبنى لنفسه داراً ، دون أن يساعده أى شخص آخر ، والغريب أن جون هذا لم يمارس فنّ البناء قبل فقد بصره .

وقد لاحظ (فرانسيس إيراديل) أحدُ الخبراء المكفوفين فى فرنسا أن زملاءه محرومون من معرفة الأخبار اليومية ، إلا بطريق الإذاعة التى تروى الأنباءَ بصورة موجزة ، فأصدر جريدةً يومية ، يختار لها بمعاونة زوجته أهمَّ الأنباء ، ثم يقومان بكتابتها على الآلة الكاتبة الخاصة بالمكفوفين ، ويرسلانها بالبريد للمشتركين الذين بلغ عددهم نحو عشرة آلاف ، وهذا بلا شك يدل على ذكاء ودربة ونشاط .

والمكفوفون اليوم فى لندن توزِّع عليهم دورُ السينما ملخصاً للفيلم الذى يشاهدونه ، وهذا الملخص مكتوب بالحروف البارزة ، وهم يستطيعون بهذا الملخص متابعةَ الفيلم وإدراك حوادثه ومشاهده .

والجراح الإنجليزى (هيو جيمس) استطاع أن يستمر فى مهنة الجراحة أحد عشر عاماً وهو مكفوف البصر ، وشهد له الجميع بالبراعة ، بحيث كان لا يقل قدرةً عن الجراحين المبصرين .

والأمريكى (روبرت جاندرس) وُلد مكفوفا ، ولكنه تعلَّم إصلاح بعض الأجهزة فى محطات الإذاعة ، وقد استطاع بذكائه أن يخترع جهازَ إنذار للحرائق ، وآلة للتصوير عن بُعد .

وهذا (نيقولاس ساندرسن) فقد بصره ، ولكنه ظل يَجِدُّ فى الدرس حتى صار من أعظم الرياضيين الإنجليز فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وقد منحته جامعة كمبردج درجةَ الدكتوراه ليقوم بتدريس الرياضة فيها ؛ والعلومُ الرياضية تحتاج أكثر من غيرها إلى الذكاء .

وهذا (ريتشارد دافتون) أصيب بفقد بصره فى شبابه على أثر قنبلة سقطت على مدينة (بليموث) بانجلترا فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، ولكنه استأنف عملَه كمهندس بإحدى شركات الطيران البريطانية ، واستطاع بذكائه أن يمدها بالكثير من الأجهزة الثمينة ، ولا يزال حتى اليوم كبيرَ خبرائها .

وهذا (باترسون) الأمريكى ، نبغ فى إصلاح الأجهزة اللاسلكية وتركيبها رغم فقده بصره ، واخترع طرقاً عملية لتمرين المبصرين على إصلاح بعض الأجهزة فى الظلام ، وهو يدير اليوم محلا كبيراً لإصلاح الراديو فى ولاية (أوماها) الأمريكية .

٭ ٭ ٭

ويزداد الأمر غرابة وإثارة للدهشة والإعجاب بذكاء المكفوفين إذا فقد المكفوف بجوار بصره حاسةً أُخرى كالسمع ، أو فقَد النطق ؛ وهاهى ذى مكفوفة فقدت البصر والسمع والنطق[1] ، ولكنها تعلمت التفاهُمَ بالإشارات من جانبها ، فقامت مقام الكلام ، واستخدمت اللمسَ كوسيلة للتخاطب وتبادل الأفكار ، فصارت تتكلم وتكتب .

وقد أخذت تتدرج فى إشاراتها ولمساتها ، فهى أولا تجعل هزَّ الرأس

---

(١) مجلة المقتطف ، عدد يونيه سنة ١٩٠٣ .

ذات اليمين وذات الشمال يقوم مقام كلمة (لا) . وخفضَ الرأس إلى الأمام يعنى كلمة (نعم) ، وجذبَ المخاطاب اليد معناه (تعال) ، ودفعَه معناه (اذهب) ، وهكذا . . .

وإذا أرادت خبزاً وزبداً لتأكل قلَّدت قطع شرائح الخبز ودهنها بالزبد ، وإذا أرادت (الدندرمة) قلدت حركاتِ صانعها ، وحركاتِ من به قشعريرة من البرد .

وتعلمت الكلمات ومعانى الأشياء برسم حروفها عن طريق المعلِّمة على يدها ، مع مصاحبة هذا الرسم بنفس الشيء ، وبالتكرار تفهم أن هذه الحروف تدل على ذلك الشيء ، حتى تعلمت فى سنة واحدة تسعمائة كلمة ، وأخذت الكمية تزيد ، حتى صارت تتخاطب بهذه الطريقة .

واستطاعت هذه المكفوفة الصماء البكماء أن تنطق بالتدريب والتحريض ، وإن كان نطقاً غير مفهوم تماماً .

وكانت شديدةَ الإحساس باهتزازات الهواء ، وهى تعرف نفسية الشخص من لمس يده ، فهذه يد تدعو إلى الاشمئزاز ، وهذه يد تشعر المكفوفة من لمسها بأن قلبَ صاحبها خالٍ من كل مسرة ، وتشعر حين تلامس هذه اليد كأنها تصافح زوبعةً عند القطب الشمالى ، كما تعبر هى عن ذلك ، وتحس من لمس بعض الأيادى كأنها تفيض بنور يشبه نور الشمس ، وتشعر عند ذلك بالحرارة تدب فى قلبها .

وكانت إذا أرادت أن تفهم كلامَ متحدث ، تضع أصابعها على شفتيه وعنقه ، وتقرأ الأصوات من فيه ، بشرط أن يبطىء فى الكلام .

وقد جاء فى عدد نوفمبر سنة ١٩٢٣ م من «مجلة الهلال» تحت عنوان: «هل نبصر بلا عيون؟» العبارة التالية:

« منذ مدة ذكرت الجرائد أن فتاة أمريكية تدعى ولينا هجنز لم يتجاوز عمرها السابعة عشرة، كانت قد فقدت بصرها وسمعها فى السنة الأولى من عمرها، فدخلت مدارس العميان، فلما شبت وجدت أنها تستطيع أن تقرأ عنوانات الأخبار فى الجرائد إذا مستها بأصابعها، وهى تفهم كلام المخاطب إذا وضعت أصابعها على عنقه، وإذا دخلت قطة إلى الغرفة المقيمة بها شعرت بوجودها، فإذا خرجت علمت أيضاً بخروجها، وتبين من فحص الفتاة أن حاستى اللمس والشم فيها قد نمتا نمواً خارقا، فصارت تشعر بما لا نشعر به نحن بهاتين الحاستين.

وليس فى هذه الحالة شىء غريب، فإن دود الأرض ليس له من الحواس الخمس التى لنا سوى حاسة اللمس، ومع ذلك فهذه الحاسة تكفيه جميع ما تكفينا حواسنا، لأنها صارت تشعر بارتعاش التربة عند وقع الأقدام، وبالصوت لما يحدث من الاهتزازات، وما إلى ذلك.

ودقة الحواس عند العميان مشهورة لا تُنكر، فإذا أُخذت بالتدريب نمت وقويت، وهذا ما حدث للفتاة ولينا هجنز، فليس فى حالتها ما يدعو إلى الدهش».

وذكرت المجلة أن المسيو جول رومان يرى أن فى الإنسان حاسةً غير معروفة، وهى القدرة على النظر بدون العينين، ولكنه لا يعرف مكانَ هذه الحاسة أو تركيبها أو وظيفتها.

ويقول إن البحث يدل على أن جلد الإنسان مثل جلد الأحياء الدنيا،

يستطيع رؤية الأشياء ؛ فهذه الأحياء تميِّز الظلمةَ من النور بجلدها، فهى تتق أعداءها فى البحر مثلا بما تشعر به من وقوع ظلها عليها .

٭٭٭

وهذه مكفوفة أخرى أظهرت ذكاءً ومقدرة عجيبين، هى « لورا دوى بريدجمن[١] »، وُلدت فى « هانوفر » بأمريكا سنة ١٨٢٩ م ؛ وفى الثالثة من عمرها أصيبت بالحمى القرمزية، فأفقدتها نظرها وسمعها، وأكثر ذوقها وشمها، فأخذوها إلى دار المكفوفين فى بوسطن سنة ١٨٣٧ م، وأشرف عليها الدكتور « هَاوْ »، فبدأ يعلِّمها الرياضة البدنية، ويرسم لها على الأشياء أسماءها بحروف بارزة، ويحملها على تعرفها بالأصابع، مع تلمس الأشياء نفسِها لمعرفة حقيقتها .

وبعد حين صار يعطيها اسمَ الشىء لتصنعه هى بنفسها فوق ذلك الشىء ؛ ثم صار يجزِّئ لها الاسم حرفاً حرفاً، ويعطيه لها، فترتب هذه الحروف حسب الاسم الصحيح .

ثم بدأ يعلمها الكتابة المحفورة، وأبدت فى ذلك نشاطاً قوياً، وقد بدأ بتعليمها الأسماء، ثم الأفعال، ثم الصفات والنعوت، ثم الحروف، وكانت أسماء المعانى تدِق عليها أول الأمر بخلاف أسماء المحسوسات .

ولما تعلمَتْ تاريخَ اليونان، ورأت كثرة الحروب، قالت بلغتها : « ألم يعرف الأثينيون والإسبرطيون والفرس ربَّهم ؟.. إنهم لو فعلوا لما بلغت حروبُهم من الكثرة ما بلغت » .

---

(١) مجلة المقتطف، عدد ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

وذات يوم أدركت زينةً جميلة ، فقالت : « يروقنى الجمال أكثر من كل شىء » ، فذكَّرها مدرِّستها بالفضيلة ، فقالت : « أعنى أن الفضيلة أبهى جمال » .

وبلغ من كلفها بالكتابة والحديث أنها كانت تتحدث بأصابعها وهى نائمة ؛ وبعد حين مالت إلى الكلمات الطويلة والجمل المسهبة ، وكانت إذا أخطأت قالت بأسلوبها : « خطأ ، خطأ » ، وقد استنتج الباحثون من ذلك أن الضمير أصيلٌ ممتزج بالنفس البشرية .

وقد أوجدت « لورا » لكل صديق لها صوتاً خاصًّا به ، تستعمله عند اجتماعها معه ، فضلا عن الأصوات التى تعبر بها عن عواطفها ، كرضاها أو غيظها .

وكان لها حسنُ ذوق فى اختيار ملابسها ، ومع أنها لا تعرف الألوان فقد سمعت عنها ، وكانت تسأل عن ملابسها : هل هى جيدة ؟ وهل هى جميلة الألوان ؟...

وكان اللمس عندها بالغاً الغايةَ فى الدقة ؛ تلمس اليدَ فتعرف صاحبها ، ولو مضى على فراقه الزمنُ الطويل ، وكانت تعرف القرابةَ بين الاختين فى بعض الأحيان من لمس يديهما فقط .

وعلّمت طفلا — يسمى (أوليفر كزول) مصابا بنظره وسمعه — الكتابةَ ، ومهرت الحساب ، وعلّمته لطفلة صغيرة قد فقدت سمعها كله وبعضَ نظرها .

وكانت حريصة على النظافة والترتيب ، وبرعت منذ صباها فى الحبك بالإبر والخياطة ، وكانت تضع الخيط فى عين الإبرة بواسطة لسانها .

وكانت عصبية المزاج ، دقيقة الشعور : وتُوفيت هذه المكفوفة فى ٢٤ مايو سنة ١٨٨٩ م .

ومن تتبع حياتها نلاحظ فيها الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وعمق الشعور .

ومن الحواس التى يعتمد عليها المكفوف بشكل واضح ، ويُظهر فيها ذكاءً وألمعية ، حاسة الشم ، ولذا نجدها دقيقةً قوية لديه ، وتكون أكثر دقة وحساسية عند المكفوف الأصم .

تقول هيلين كيلر : إنى أعرف بمجرد الشم المنزلَ الذى أدخله ، ولقد أمكننى أن أتعرف على منزل ريفى قديم الطراز ، عن طريق ما تركه السكان الذين توالى سكنُهم فيه ، من روائح الأشياء والعطور والأَقمشة ؛ وكان يمكن أن أعرف نوعَ العمل الذى يقوم به بعض الأشخاص من الروائح العالقة بهم ، مثل روائح الخشب ، أو الحديد ، أو (البويه) ، أو العقاقير الطبية ، أو الخضروات ، وما تتركها فى ملابس الذين يعملون فى تلك النواحى المختلفة . وهكذا أميز النجار من الحداد ، والفنان من الكيماوى ... إلخ .

وحين يتحرك شخص من مكان إلى آخر فى شىء من السرعة أدرك عن طريق الشم المكانَ الذى كان به : أهو المطبخ ، أم الحديقة ، أم حجرة المرضى ... إلخ ، ويساعدنى فى ذلك الإدراك ما يعلق بهذا الشخص من الروائح المختلفة مهما كانت ضعيفة ، وأشعر بارتياح كبير حين أستنشق روائحَ الصابون العطرى ، وماء الزينة ، والمنسوجات الحريرية والصوفية ، والقفازات النسائية المعطرة .

ويمضى الباحث الذى أورد هذه الأقوال فيقول : « وكان لى من بين الأصدقاء رجل كفيف البصر ، وكانت لديه قدرةٌ عجيبة على معرفة الأماكن التى يمر بها ، وخاصة فى الحى الذى يقطنه ، فكان يميز بين حانوت البقال والحلاق والخردوات والفاكهى وبائع الخضر ، على أساس استخدامه حاسة

الشم ؛ وقمتُ بإجراء مثل هذه المحاولات على بعض المبصرين بعد إحكام إغلاق عيونهم ، فأخفقوا فى معرفة معظَم هذه المحال ، مع أننا نلاحظ أن بعضها له رائحة خاصة ومميزة ؛ وعن طريق السؤال والمقارنة انتهيتُ إلى أن عنصر النجاح فى هذا الإدراك الشمّى أو الإخفاق فيه إنما هو التدريب والمرانة » .

ويذكر أن إحدى الفتيات المكفوفات كانت تعمل كسكرتيرة فى أحد معاهد المكفوفين ، فإذا أمرها رئيسها فى العمل أن توصل رسالة إلى إحدى زميلاتها فى الحجرة التى تجاور مكتب هذا الرئيس ، ذهبت مباشرة إلى المكان الذى توجد فيه صديقتها عادة ، فإذا لم تجدها وقفت لحظة ، وأدارت رأسها فى بطء يشوبه بعضُ الضيق ، وترسل عنقها إلى الأمام ، كما لو كانت تبحث عن الاتجاه الذى تريده ، ولم تكن بعد ذلك لتنتظر طويلا حتى تدرك مكانَ زميلتها الذى انتقلت إليه فى الحجرة : ولا شك أن هذا مرجعُه — على أساس ما أجرى من تجارب فى هذا الصدد — هو ما تتميز به صديقتُها من رائحة عطر خاص أو ما أشبه ذلك[1] .

* * *

ويذكر الكاتب المصرى المعروف الأستاذ إسماعيل مظهر أنه عرف فى قريته (برقين) رجلا مكفوف البصر يستطيع أن يجتاز أنبوبا ينقل المياه فوق (مصرف) كبير من دون أن تزل قدمه .

وكان هذا الرجل يخبئ إبرته التى يحيك بها ثيابَه فى كوز من أكواز

---

(١) مجلة علم النفس ، عدد أكتوبر ١٩٥٢ — يناير ١٩٥٣ ، بحث للأستاذ جليل شكرى .

الذرة فى زراعة واسعة ، ويستطيع الاهتداء إليها بعد أيام ، دون أن يخطئ قصدَه مرة واحدة .

* * *

ولنرجع بعد ذلك إلى الوراء ... إلى تاريخ آبائنا وأجدادنا ، لنستعرض من مواقف المكفوفين فيه ما يدل على الذكاء والألمعية وتوقد الذهن : وناهيكم بما حدَّث التاريخ عن ذكاء أبى العلاء ، وعن براعته فى أشياء كثيرة يُظَنُّ أنها من خصائص المبصرين .

وهذا بشار بن برد يدرك أن كف البصر هو الذى وفر هذا الذكاء عنده ، لأن المعروف أن القوى والحواس يزيد بعضُها بنقصان بعض ، فقال :

عميتُ جنينا ، والذكاء من العمى — فجئت عجيبَ الظن للعلم موئلا
وغاض ضياءُ العين للعلم رافدا — لقلب إذا ما ضيّع الناس حصّلا

ومما يدل على ذكاء بشار وسعة خياله وتوقد ذهنه أنه طلب من رسام أن يرسم له شيئاً على آنية ، فرسم له الرسامُ منظر طيور تطير ، ولما أَخبر بشارا بذلك قال له بشار : كان يجب أن تجعل فوقها طيراً جارحاً يحوِّم لصيدها ...

وهذا تعليقُ رجلٍ فى دقيق الملاحظة عميق الانتباه ، فإن وجودَ الطائر الجارح فوق هذه الطيور ، وهمَّه بصيدها مما يوجِد عندها فزعاً ورهبة ورعبا ، ويجعلها تسارع إلى نشر أجنحتها ، ورفع رءوسها ، ومحاولة الهرب بحياتها ، وهذا يجعل المنظر حيا متحركا مثيرا ، ويجعل كثيرا من الملامح القوية تبدو على تلك الطيور ، وهى تعجِّل بالفرار من ذلك الطير الكاسر !...

ولا غرو ، فقد كان بشار — على الرغم من كف بصره — مثلا عجيبا

فى دقة الحس والانتباه ، ويذكرون عنه فى ذلك أنه كان جالساً على باب بيته ، وليس معه أحد ، وأمامه طبق فيه تفاح وأُترج (من جنس الليمون) وبيده مخصرة[١] ، فمر عليه رجل ، وشاهد الطبق وما فيه ، فتاقت نفسه إلى سرقة ما فى الطبق ، فأقبل قليلا قليلا ، بخفة وحذر ، حتى إذا أهوى بيده ليتناول ما فى الطبق ضربه بشار بالمخصرة التى فى يده حتى كاد يكسرها ، فقال الرجل متعجباً : وأنت الآن أعمى ؟!...

فقال بشار : وأين الحس ؟ !...

* * *

وهذا هو الإمام العلامة زين الدين على بن أحمد الآمدى الحنبلى المتوفّى بعد سنة ٧١٢ هـ ، كان يتجر فى الكتب ، وكانت له كتب كثيرة جداً ، وكان إذا طُلب منه كتاب ، ويعلم أنه عنده ، نهض إلى خِزانة كتبه ، واستخرجه منها كأنه وضعه لساعته ؛ وإن كان الكتاب عدةَ مجلدات ، وطُلب منه الأول أو الثانى أو الثالث مثلا أخرجه بعينه وأتى به .

وكان يمس الكتابَ أولا ، ثم يقول : هذا الكتاب يشتمل على كذا وكذا كراسة ؛ فيكون الأمرُ كما قال .

وإذا أمرَّ يدَه على الصفحة قال : عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا ، وفيها بالقلم الغليظ كذا ، وهذه المواضع كتبت فيها بالحمرة .

وإن اتفق أنها كُتبت بخطين أو ثلاثة قال : اختلاف الخط من هنا إلى هنا ... من غير إخلال بشىء مما يمتَحَن به .

---

(١) المخصرة كمكنسة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوه . وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب إذا خطب (القاموس) .

وكان يعرف أثمانَ جميعِ كتبه التى اقتناها بالشراء ، وذلك أنه كان إذا اشترى كتاباً بشىء معلوم أخذ قطعةَ ورق خفيفة ، وفتل منها فتيلةً لطيفة خفيفة صغيرة ، وصنعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجُمَّل ؛ ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من الداخل ، ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد ؛ فإذا شذ عن ذهنه ثمنُ كتابٍ ما من الكتب مسَّ الموضعَ الذى علَّمه فى ذلك الكتاب بيده ، فيعرف ثمنه من تثبيت العدد الملصق به .

وقد نستطيع أن نقول إن هذه أول محاولة فى العالم لاختراع الكتابة البارزة الخاصة بالمكفوفين ، ومعنى هذا أن فضل الآمدى فى هذا المجال سابق على فضل المكفوف الفرنسى المشهور بريل Braille الذى استنبط سنة ١٨٣٤ م الطريقةَ المنسوبة إليه فى تعليم المكفوفين بطريقة الكتابة البارزة .

ولكن هناك من يقول إن « ديدموس » العالم المسيحى المصرى الذى ظهر فى القرن الرابع الميلادى ، والذى كان ناظراً للمدرسة (الأكايريكية) هو أول من ابتكر طريقة الحروف البارزة على الخشب لتعليم المكفوفين ، وتلك أول محاولة من نوعها سجلها التاريخ .

ويروَى عن الإمام الآمدى نفسه أنه لما جاء السلطان غازان بن أرغون[١] بغداد سنة ٦٩٥ هـ أخبروه بذكاء الإمام الآمدى ودقة ملاحظته ؛ فقال لهم : إذا جئتُ غدا المدرسة المستنصرية أجتمع به ؛ ولما جاء الموعد أمر السلطانُ أكابرَ دولته أن يدخلوا المدرسة قبله واحداً واحداً ، ويسلم كلٌّ منهم على الشيخ ، بينما يتظاهر مَنْ حوله أنه السلطان ، امتحاناً له .

---

(١) هو من أحفاد هولاكو بن جنكيز خان المغولى .

فجعل القوم كلما قدم كبير أو أمير يعظمونه ويحيّونه ، ويأتون به إلى الشيخ ليسلم عليه ، والشيخ يرد السلام من غير احتفال ؛ حتى جاء السلطان غازان ، وسلم على الشيخ وصافحه ، فحين وضع يده فى يده نهض له قائماً ، وحيَّاه تحيةَ السلام ، ودعا له باللسان المغولى ، ثم بالتركى ، ثم بالفارسى ، ثم بالرومى ، ثم بالعربى ...

فتعجب السلطان من ذكائه ، وفرض له مرتباً شهرياً قدره ثلاثمائة درهم .

* * *

ومما يُذكر عن ذكاء المكفوفين واقتدارهم فى باب الملاحظة والانتباه مايرويه ياقوت الحموى عن النحوى الأديب المقرئ أبى الغنائم حبشى بن محمد الشيبانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦٥ هـ ، يقول عنه ما نصه :

« وكان مع هذا إذا خرج إلى الطريق بغير قائد لا يهتدى كما يهتدى العميان ، حتى سوق الكتب الذى كان يأتيه كل ليلة ، عشرين سنة » .

ويقول صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ[1] :

« وكان عندنا فى صفد شخص أعمى ، يُعرف بشمس ، كان يسقى من البئر بيده ، ويملأ بحُقٍّ كبير ، ويتوجه بذلك إلى بيوت الناس وزبوناته . وهو مع كل ذلك بغير عصا ؛ ورأيته يوماً هو وزوجة له متوجهَيْن إلى حمّام عين الزيتون ، وفى الطريق عقبة تُعرف (بعقبة عين الورد) ، وتحتها وادٍ ،

---

(١) هو صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى الشافعى ، كان من أفاضل العلماء ، وصنف الكثير فى التاريخ والأدب ، وقد توفى بدمشق سنة ٧٦٤ ، وهو صاحب كتاب : « نكت الهميان فى نكت العميان » .

وقد أخذ بيد زوجته . وهو يقول لها : تعالىْ إلى هنا ، لا تتطرفى تقعى فى الوادى » !!.

٭ ٭ ٭

وهل سمعتم أن المكفوفين يشتغلون بالهندسة ودقائق البناء ورسوم العمارات ؟.. هذا هو الأمير المكفوف علاء الدين الركنى الزاهد ، ناظر الأوقاف بالقدس ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ : كان كما يقول التاريخ من أذكياء العالم ، يقال عنه إنه خطَّ حمَّاما فى بلد الخليل عليه السلام . ورسم الأساس بيده ، وذرَّه بالكلس للصناع .

وكان يحب الخيل ويستولدها ، وكان إذا مر به فرس من خيله عرفه ، وقال : هذا من خيلى !..

كيف كان يعرف ذلك ؟ ... قد يكون بحمحمة الفرس ، أو برائحته ، أو بوقع خطواته الخاصة ، أو بظلِّه ، أو بغير ذلك من الوسائل !...

وروى ابن الأكفانى ، وهو ممن كانوا على عهد صلاح الدين الصفدى ، أنه كان يوجد فى الديار المصرية مكفوف يدرِّس للطلاب كتاب « أقليدس » ، ويضع أشكاله لهم بالشمع ، وهذا من أغرب ما يكون .

وجاء فى كتاب « الشعر غاياته ووسائله » هذه العبارة :

« وقد كان بشار بن برد الذى يقول :

عميتُ جنينا والذكاءُ من العمى ... فجئت عجيب الظنِّ للعلم موئلا

يصف الأشياءَ — وما يراها [1] — كأحسن ما يصفها المبصرون الذين لم يسلبهم الله نعمةَ النظر ، وروى بيرك أنه كان بجامعة كمبردج رجل أكمه يدرِّس

(١) أى والحال أنه لا يراها .

العلومَ الرياضية . قال : كان المستر سوندرسن هذا من صدور العلماء وفحول الأعلام فى الفلسفة وعلم الهيئة ، وسائر مالا بد فيه من الحذق الرياضى ، فلم يرعنى شىء كإلقائه درسًا فى (الضوء) و (الألوان) فكان يلقّنهم علمَ ما يرون ومالا يرى[1] » !...

وهذا هو أبو عبد الله محمد سليمان بن الحناط الأندلسى القرطبى ، انصرف بكليته إلى علوم الدنيا ، فأفاد واستفاد ، ولم يمنعه كفُّ بصره قوةَ بصيرته فى العلم والأدب ؛ ويقول عنه ابن بسام فى الذخيرة : إنه زعيم من زعماء العصر ، ورئيس من رؤساء النظم والنثر فى ذلك الأوان . وأورد له مناقضات جرت فى عدة رسائل وقصائد بينه وبين أبى عامر بن شُهيد . وكان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والإسلام ، بصيراً بالآثار العلوية ، عالما بالأفلاك والهيئة ، حاذقا فى الطب والفلسفة ، ماهراً فى العربية واللغة والآداب الإسلامية وسائر التعاليم الأوائلية .

وُلد أعشى ضعيفَ البصر ، ثم أكثر القراءة فكف بصره ، فازداد براعة ، ونجح فى الطب ، وكان ابنه يصف له أحوال الناس المستفتين عنده ، فيهتدى منها إلى مالا يهتدى إليه بصير ، ولا يخطئ الصواب فى فتواه ببراعة الاستنباط ، وتطبب عنده الملوك والأعيان[2] !..

ويروى الصلاح الصفدى أيضاً أنه رأى إنساناً كفيفاً فى الديار المصرية يُعرَف بعلاء الدين بن قيران يلعب بالشطرنج ، ويتحدث ، وينشد الشعر ، ويتوجه إلى بيت الخلاء ، ويعود إلى اللعب ، ولا يتغير عليه نقلُ شىء من القطع .

---

(١) كتاب الشعر ، غاياته ووسائله ، المازني ، ص ١٠ و ١١ .

(٢) مجلة المقتبس ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، غرة رجب ١٣٢٤ هـ ، ص ٣١٣ و ٣١٤ .

ويروى ابن سليمان الكفرى الحنفى أنه كان هناك بوّاب يعرف بمدود المكفوف ، كان يخيط الثياب ، ويضع الخيط فى الإبرة بفمه ، ويضع الجاخ على الجاخ عند الخياطة (أى يضع حاشيتى الثوب على بعضهما ليخيطهما معا) .

* * *

وكان فى حماه بالشام مكفوف يُعرف بنجم ، يلعب بالحمام ، ويصيد الطير الغريب ؛ وذلك بوساطة أن يبخِّر حمامَه ببخور حادِّ الرائحة ثم يطيِّره ، فإذا عاد الحمام عاد معه طيور غريبة ، فيرمى نجم الشبكةَ على الجميع بنفسه ، ثم يأخذ الحمامَ حمامةً بعد حمامة ، ويشم الجميع ، فما ليس فيه شىء من البخور يعرف أنه غريب فيصطاده ، وما كان فيه رائحة البخور يطلقه ، فيذهب ويعود ومعه طيور غريبة ، فيصطادها بنفس الطريقة .

* * *

وهذا لون من ألوان الذكاء عند المكفوفين مما يتصل بعلم النفس :

فقد رووا عن أبى البركات المكفوف هبة الله بن على المتوفى فى حدود سنة ٥٦٠ هـ أنه كان على عهده فى بغداد مريض بالماليخوليا يعتقد أن على رأسه دنًا ، وأنه لا يفارقه ؛ وكان يتجنب السقوفَ القصيرة ، ويطأطِئ رأسَه ؛ فأحضره أبو البركات عنده ، وأمر غلامه أن يرمى دنا بقرب رأسه ، ويتظاهر بأنه سقط من فوق رأسه ، ويتصايح بذلك ، وأن يضرب الدن بخشبة تكسره ؛ ففعل فزال الوهم بذلك عن الرجل وعاد إليه الشفاء ...

ومن شواهد نبوغ المكفوفين فى باب النحت ماذكرته جريدة «الأهرام» فى أول سبتمبر سنة ١٩٥٥ نقلا عن مراسلها فى روما قالت :

« فى إحدى الأمسيات منذ بضعة أعوام هبط أرنستو ماسويللى إلى

قبو يته بشارع سيبيزيا ، وتناول قطعة الصلصال . . . كان قد فعل ذلك مرارا من قبل ، وأخذت أصابعه الحساسة تعالج الصلصال وتكسبه نعومة وحرارة ثم تشكّله صورةَ وجهٍ جميل حزين ، هى الصورة التى طالما تخيلها فى أحلامه وابتهالاته لوجه السيد المسيح .

كان ماسو يللى ضريرا ، وكان مغمورا لا يعرف عنه أهل الفن شيئاً ، إلى أن صنع ذلك التمثال للسيد المسيح ، وحينئذ فقط بدأ الناس يشعرون بهذا الفنان الضرير الشجاع .

ولد ماسو يللى فى (منفيراتو) فى سنة ١٨٩٩ ، من والدين ينعمان ببسطة فى العيش ، فقضى طفولته وصباه فى سعادة وهدوء ، ولما بلغ السابعة عشرة من عمره كانت الحرب العالمية الأولى قد نشبت ، فتطوع فى الجيش الإيطالى ، ورقى إلى رتبة ملازم ، وفى نوفمبر سنة ١٩١٥ انفجرت قنبلة على مقربة منه ، وأصابت شظاياها عينيه ، ففقد حاسة الإبصار منذ ذلك العهد .

وقضى ماسو يللى عدة سنوات بعد ذلك متنقلا بين المستشفيات لمعالجة إصاباته الأخرى ، فإن بضع مئات من قطع الفولاذ وجدت مستقرها فى جسمه ، وفى أحد المستشفيات قابل الحسناء « سارينا ناثان » الممرضة بالصليب الأحمر الإيطالى ، التى اقترن بها فيما بعد ، والتى علّمته النحت ، وألهمته ، وانتقدته ، وشجعته ، وأعجبت بإنتاجه .

وقد صنع ماسو يللى كثيرا من التماثيل الرائعة ، وكان عليه لكى يصنع هذه التماثيل أن يتحسس وجوه أصدقائه والأطفال الذين تطوعوا للوقوف أمامه ، وأن ينقل قسمات هذه الوجوه على الصلصال بأصابعه الشديدة الحساسية .

وقد بلغ من شدة حساسية أصابعه ، وعظيم ثقته بنفسه ، أنه صنع تمثالا رائعاً للدوق وادست ، بمجرد لمس قسمات وجهه المنقوش على إحدى الميداليات .

وقد توفيت زوجته فى العام الماضى ، فلم يزده حزنه عليها إلا إقبالا على عمله وتفانياً فيه ، وسيفرغ قريباً من آخر أعماله ، وهو تمثال لزوجته التى لم ير وجهها ، ولكنه لمس قسماته بأنامله » .

* * *

وأظن أننا لسنا بحاجة إلى أن نطيل الحديث فى ذكاء المكفوفين من ناحية قوة الحفظ وقوة الذاكرة ، فإن ذلك أمر مشهور مستفيض بين الناس قديماً وحديثا ، وهذا — على سبيل المثال فقط — هو الإمام العلامة أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى المفسِّر ، وُلد أكمه ، وكان أحد الذين يُضرب بهم المثل فى قوة الحفظ والذاكرة .

يقول : ما قلتُ قط لمحدِّث أعد علىَّ ، وما سمعت أذناى شيئا قط إلا وعاه قلبى .

وكان يقول لقائده سعيد بن أبى عروبة : « تجنب بى الحلق التى فيها الخطأ فإنه ما وصل إلى سمعى شىء ، فأداه إلى قلبى ، فنسيه »[1] ! . . .

* * *

ولقد تحدثنا فى موطن آخر عن الفكاهة عند المكفوفين ، وفى هذه

---

(١) مجلة المقتبس ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، غرة رجب ١٣٢٤ هـ ، ص ٣١٥

الفكاهات تلوح دلائل كثيرة على ذكائهم، ودقة تفكيرهم، وسرعة خاطرهم، وحسن تصرفهم، لأنه لا يقتدر على الفكاهة القوية المتقَنة إلا من أوتى حظَّه من الذكاء وبراعة التصرف ..

ومن أدلة ذكاء المكفوفين أجوبتُهم المسكتة المقنعة، فهذا مثلا هارون الرشيد الخليفة العباسى يعارض فى بعض مجالسه فى خلافة على، لأن عليا رضى الله عنه هو زعيم الطالبيين، وبين بنى العباس وأولاد بن أبى طالب منافسة وعداء، فيقول هارون الرشيد : لا يُثبت أحدٌ خلافةَ على بن أبى طالب إلا قتلتُه . ويسمعه محمد بن حازم المكفوف المتوفى سنة ١٩٤، فيجيب الخليفةَ على ذلك القول إجابةً مسكتة مقنعة؛ فيقول له : ولمَ ذلك يا أمير المؤمنين؟ لقد قالت تيم : منا خليفة « وهو أبو بكر »، وقالت عدى : منا خليفة « وهو عمر »، وقالت بنو أمية : منا خليفة « وهو عثمان »؛ فأين حظكم يا بنى هاشم من الخلافة لولا علىّ ؟.

فتراجع هارون وقال : صدقت، لا ينفى أحدٌ عن علىٍّ الخلافةَ إلا قتلتُه !!...

ومن الأجوبة المسكتة الدالة على الذكاء ما كان من صالح بن عبد القدوس الشاعر المكفوف، فقد جاءه رجل وقال : إنى أسألك على البديهة لتجيبنى على البديهة. ثم قال :

الموت باب وكلُّ الناس داخله   فليت شعرىَ بعد الباب، ما الدار ؟

فقال صالح بن عبد القدوس : وأنا بدورى أرد عليك على البديهة :

الدار جنات عدن، إن عملتَ بما   يُرضى الإله، وإن خالفتَ فالنار !

وأنشد بشار بن برد قوله :

وإذا قلتُ لها : جُودى لنا خرجت بالصمت عن لا ونعم

فقال له أحد الناس : يا أبا معاذ ، هلا قلتَ « خرست » بدل « خرجت بالصمت » ؟ فقال بشار على البديهة : « لو أنى فى مثل عقلك لقلتُ هذا . . . أأتطيَّر على من أُحبُّ بالخرس » ؟!..

ولقد أمر المهدى أمير المؤمنين بضرب بشار بن برد المكفوف سبعين سوطا ، فكان إذا أوجعه السوط يقول : « حس » ، وهى كلمة تقولها الزنادقة فى موقف الألم .

فقال أحدهم لأمير المؤمنين : انظر إلى زندقته فإنه يقول « حس » ، ولا يقول : بسم الله .

فقال بشار وهو تحت العذاب : ويلك ، أطعامٌ هو فأسمِّى الله عليه ؟ . .

فقيل له : أفلا قلتَ : الحمد لله ؟ .

قال بشار : أوَ نعمةٌ هى حتى أحمد اللهَ عليها ؟ .

ومن أمثلة ذكاء المكفوفين أيضا موقف عبد ياليل بن عمرو الثقفى من حوادث الرجم بالشهب التى رُوى أنها وقعت حين بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ حُجبت الشياطين عن استراق السمع من السماء ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد فيها لاستراقه ، فرُمُوا بالنجوم ، فعرفت الجن والشياطين أن ذلك لأمر حَدَث من أمر الله فى العباد ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله من سورة الجن :

« ... وأنَّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشُهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رَصَدًا ، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربُّهم رشدا » .

عن عامر الشعبي قال : لما بُعث النبى صلى الله عليهوسلم رجمت الشياطين بنجوم لم يكن يُرجم بها من قبل ، فأتوا عبدياليل الثقفى فقالوا : إن الناس قد فزعوا ، وقد أعتقوا رقيقهم ، وسيَّبوا أنعامهم لما رأوا فى النجوم ، فقال لهم — وكان رجلا أعمى —: لا تعجلوا وانظروا ، فإن كانت النجوم التى تُعرَف فهى عند فناء الناس ، وإن كانت لا تُعرَف فهو من حَدَثٍ .

فإذا هى نجوم لا تُعرَف ، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم[١] .

فانظر إلى دقة عبدياليل فى التفرقة بين النجوم المألوفة وبين النجوم الطارئة غيرالمعروفة ... وانظر كيف أدرك أنه إذا كانت النجوم معتادةً فذلك دليل على أن نهاية العالم قد أتت ، إذ تأخذ أركانه المألوفة فى التداعى ، وأما إذا كانت النجوم الراجمة نجوما غريبة غير مألوفة ، فإن ذلك دليل على أن القوة المسيطرة على الكون بعثت بها دليلا وشاهدا على حدوث أمر جديد غريب ...

۞ ۞ ۞

ومن ذكاء المكفوفين أيضاً ودهائهم ما كان من أمر أبى قحافة والد

---

(١) كتاب عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ، لابن سيد الناس ، ج ١ ص ٥٥ و ٥٦ .

الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويحسن أن نترك للعقاد فى كتابه « عبقرية الصديق » قصَّ بعض المظاهر لهذا الذكاء ، بالعبارة التالية :

« عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفةً يرفع صوته على أناس لم يكن فى مكة أرفع منهم صوتاً وأعظم خطرًا ، وكان مكفوفَ البصر على باب داره بمكة يومَ أقبل أبو بكر إليها معتمرا بعد مبايعته بالخلافة ، فقيل له : هذا ابنك ! .. فنهض يتلقاه ، ورآه ابنهُ يهم بالنهوض ، فعجل نازلا من راحلته وهى واقفة قبل أن ينيخها ، وجعل يقول : يا أبت لا تقم !...

ثم لاقاه والتزمه وقبَّل بين عينيه ، ولم ينتظر — وهو فى نحو الستين — أن ينيخ راحلته لينزل منها ، مخافةً على أبيه من مشقة النهوض .

ودعا الخليفةَ بأبى سفيان لأمر أنكره منه فأخذته الحدة التى كانت تراجعه فى بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبى سفيان ، وهو يلين له ويسترضيه ؛ فسأل أبو قحافة قائدَه : على مَنْ يصيح ابنى ؟ .

فقال : على أبى سفيان .

فدنا منه يقول له ، وفى كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الإنكار ، وفيه دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة : أَعَلَى أبى سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد عدوت طورك وجزت مقدارك ! . . .

فابتسم أبو بكر والصحابة ، وقال لأبيه المنكر فى رضاه ، الراضى فى إنكاره :

يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين ...

وهذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظَهرت من هذا الأب

الصالح ، يوم نعوا إليه رسولَ الله فقال : أمر جَلَل . ، وسأل : ومن وَلِيَ الأمرَ بعده ؟ . قالوا : ابنك .

فعاد يسأل : فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟

قالوا : نعم . . .

قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ! . . .

بل هذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت منه حين هاجر ابنُه مع النبي عليه السلام ، فأقبل على أحفاده يسألهم : ما ترك لكم بعد هجرته من المال ؟ . . .

وهى التى ظهرت منه حين ذهب ابنه ينفق من ماله لإعتاق الأرقّاء الذين عذَّبهم المشركون ، فكان يقول : لو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالا خلدا يمنعونك ويقومون دونك ؟ . ويقول له ابنه : يا أبت ، إنى أريد ما عند الله ! . . .

ثم عاش الأب الصالح حتى قبض ابنه العظيم ، فردَّ ميراثَه منه إلى أحفاده وسأل حين بلغتْه وفاتُه (وهو يقول : رزء جَلَل . . . رزء جَلَل) : فمن ولى الأمرَ بعده؟ .

قالوا : عمر . قال : صاحبه ! . يعنى صاحبَ الأمر ، أو صاحبَ الصِّدِّيق ؛ فى إيجاز كافٍ كإيجاز ابنه العظيم . . .

كثير مما فى أبى بكر من هذا الأب الصالح : طيبة فى يقظة فى استقامة ، ويزيد عليه ابنه فى كل وصف حميد » . .

* * *

والمكفوفون أنفسهم قد أدركوا أن الذكاء شيء مقسوم لا كثرهم ، وأنهُم عوِّضوا من أبصارهم قوةً فى بصائرهم ، ورهافة فى شعورهم ، ودقة فى إحساسهم ، ونورًا فى قلوبهم ، فتراهم يحدِّثون الناس بأنهم لم يفقدوا الجليل حين فقدوا الأبصار ، وأن ذكاءهم ونور أرواحهم وبقية ملكاتهم كانت خير العوض عن ضياء أعينهم .

ونسوق فيما يلى طائفةً من الشواهد المختلفة التى تؤيد ما ذكرناه :

أنشد الجاحظ لابن عباس :

إن يأخذ اللهُ من عينىّ نورَهما ... فقى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دَخَلٍ ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وقال الخريمى :

فإن يك عينى خبـــا نورُها ... فكم قبلها نورُ عين خبَـــا
فلم يعم قلبى ، ولكنما ... أرى نورَ عينى لقلبى سعى

وقال بشار :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلَّقها ... قلبى ، فأضحى به من حبها أثرُ :
أنَّى ولم ترها تهذى ؟ فقلتُ لهم : ... إن الفؤادَ يَرى مالا يرى البصر

وقال بشار :

يزهِّدنى فى حب عبدة معشرٌ ... قلوبُهم فيهـــا مخالفة قلبى
فقلت: دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يُبصر ذو اللب

وقال إبراهيم بن محمد التطيلى :

شمس الظهيرة أعشت كوكبىْ بصرى ... كذا سنا النجم فى ضوء الضحى خمدا

إن نازع الدهرُ فى ثنتين من عددى ... فواحد فى ضلوعى يبهر العددا
تغنى عن الشهب فى أجفانه مقلا ... من كانت الشمس فى أضلاعه خلَدا
من طال خُلقا نبى عن خَلْقه قصرا ... لا تقدر الجِلْد منه ، واقدر الجَلَدا
لا يدركُ الرمحُ شأوَ السهم فى غرض ... ولو تسلسل فيـــه منْه مَدَدا!
لم يكفِ أنى غريب الشخص فى بلدى ... حتى غدوت غريبَ الطبع متحدا

وقال بشار :

عميتُ جنينا ، والذكاءُ من العمى ... فجئت عجيبَ الظن للعـــلم موئلا
وغاض ضيـــاءُ العين للعلم رافدا ... لقلبٍ إذا ما ضيَّع الناسُ حصلا

وقال العز الضرير الإربلى ، وقيل هى لغيره :

وكاعبٍ قالت لأترابهـــا : ... يا قومُ ما أعجبَ هذا الضريرْ
هل تعشق العينان مالا ترى ؟ ... فقلت والدمع بعينى غزير :
إن كان طرفى لا يرى شخصَها ... فإنها قد صُوِّرتْ فى الضمير

وقال على بن عبد الغنى الحصرى :

وقالوا : قدعميتَ ؛ فقلت : كلا ... وإنى اليوم أبصرُ من بصير
سوادُ العين زاد سواد قلبى ... ليجتمعا على فهم الأمور

وقال أبو على البصير المكفوف :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ... ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ... ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وقال أيضاً :

إذا ما غدت طلابةُ العلم مالها ... من العلم إلا ما يخلَّد فى الكتبِ

غدوتُ بتشميرٍ وجِدٍّ عليهم ... ومحبرتى سمعى ، ودفترها قلبى

وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يُذهب الله من عينى نورَهما ... فإن قلبي بصير ما به ضررُ
أرى بقلبيَ دنياى وآخرتى ... والقلبُ يدرك ما لا يدرك البصر

وقال أبو على المنطقى :

ما للهموم إذا ما هِيمُها وردت ... علىَّ لم تفْض من وِرْد إلى صَدَرِ
كأنما وافق الأعشابَ رائدُها ... لدى حماى ، فقد ألقى عصا السفر
إن يجرح الدهرُ منى خيرَ جارحة ... ففى البصائر ما يُغنى عن البصر

وقال بشار بن برد :

وعدنى الأعداءُ ، والعيبُ فيهم ... وليس بعار أن يقال : ضريرُ
إذا أبصر المرءُ المروءةَ والتقى ... فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وذخرا وعصمةً ... وإنى إلى تلك الثلاثِ فقير !

وقال رجل للقاسم بن محمد المقرىء الشاعر وقد ذهب بصره : لقد سُلبتَ أحسنَ وجهك . قال : صدقتَ ، غير أنى مُنعتُ النظر إلى ما يلهى ، وعُوِّضت الفكرة فى العمل فيما يجدى !..

التصوير الحسي والمعنوى

فى شعر المكفوفين

يظنُّ الكثير من الناس أن المكفوف إذا فقد بصره انقطعت صِلاتُه بالمحسوسات والمشاهدات ، وانطفأ عنده ضوءُ التصور ، وضعفت لديه ملكةُ التصوير ؛ وخاصة إذا وُلد المكفوف بلا بصر : ولكن هذا الظن تصادمه شواهدُ كثيرة تدل على أن المكفوفين يبرعون أحياناً كثيرة فى إدراك المحسوسات ، وفى إدراك المرئيات . وفى تصوير الأمور الحسية المركَّبة والمعقَّدة بأسلوب فنى يدل على ملكة وألمعية ، كما يدل على دقة وبراعة . . .

وكذلك نشاهد المكفوف أحياناً يتناول مسائلَ فنية ، فيها عمق الفكرة، وصعوبةالموازنة ، ودقة الحكم : فيتناولها تناول الحكيم العميقالخبير ، ويأتى فيها بمـا يثير اللب حيناً ، والدهشة أحياناً .

ولسنا نريد هنـا تقصِّيَ الأسباب التى تؤدى إلى هذا عند المكفوف ، ولا العوامل التى تعاونه على إتقان ذلك الأمر فذلك باب واسع يجب أن يفرغ له متخصص أو متخصصون ، ليبحثوه فى القديم والحديث ، وعند الكبار من المكفوفين والصغار ، وعند النساء منهم والرجال ، وعند الأميين منهم والمتعلمين ؛ وهنـاك عناصرُ الموهبة الفطرية ، والاستعداد الشخصى ، والبيئة الخاصة ، والظروف المواتية ، والرفقة المعاونة ، والثقافة الواسعة ، والمحـاولة المتكررة ، والعزم القوى ؛ وهناك نظرية التعويض بين الحواس، والاعتماد على التلقى والسماع ، والتفنن فى التقليد والمحاكاة ؛ إلى غير ذلكمن

العناصر والأسباب والعوامل التى تؤثر آثارَها المختلفة فى تكوين هذا الإتقان . . .

هذا مثلا هو الشاعر المكفوف بشار بن برد يصف جيشاً فى بضعة أبيات، فيرسم لنا صورة حسية حية متحركة فائرةً بالحركة مليئة بالمشاهد المختلفة ، بحيث يقول الجاهل لأمر بشار إن هذا شعر رجل حديد البصر قوى الرؤية دقيق الملاحظة ، كان يلاحظ الجيش من أول تحركه ، إلى آخر حركاته ، فيرصد بوساطة بصره عَدَدَه وعُدَدَه ، وسلاحه وثيابه ، ويرصد تنقلاته وخطواته ، ويرصد ظواهر الوقت الذى سار فيه وحارب خلاله . وما عرض لهذا الوقت من تغيرات ، ثم يرصد ما وقع خلال العراك بين الجيش وخصومه من صدام ونزال ، وما حدث من هجوم وطعن وموت وانقهار وفرار ، وكيف كان العِثْيَر يسود الأفق ، ويملأ الجو ويحجب السماء ، وكأن النهار قد استحال إلى ليل بهيم لايُرى فيه من نجوم إلا هذه السيوف وهى تتهاوى على رءوس أعدائها، فكأنها كواكب تكشف الطريق أمامهم إلى الهلاك ، كما تنير الطريق لأصحابها نحو الفوز والانتصار ، فيقول :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى	وبالشوك والخطى حُمر ثعالبه [١]
غدونا له والشمس فى خدر أمها	تطالعنا ، والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموتَ من ذاق طعمه	ويدرِكُ من نجى الفرارُ مثالبُه
كأن مُثار النقع فوق رءوسنا	وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [٢]
بعثنا لهم موت الفجاءة ، إننا	بنو الموت خفّاق علينا سباسبه [٣]

---

(١) الحصى : العدد ، والشوك : شبا الأسنة . والخطى : الرمح . وثعالبه : أطرافه .
(٢) النقع : الغبار .   (٣) يريد الرايات .

فراحوا فريق فى الإسار ، ومثله   قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا الملك الجبار صعَّر خدَّه   مشينا إليه بالسيوف نعاتبه !

هذه ملحمة مرسومة مصوَّرة ، وليست خبراً منطوقا فحسب ...

هذا هو الجيش الكبير العريض ، يخرج فكأنه الليل الطويل الشامل ؛ وها هو ذا يزحف بعدده الهائل ، وأسنته المشرعة ، ورماحه المسدَّدة ذات الأطراف الحمر ، والشمس تبدي من كيانها جزءًا وتخفى أجزاء ، والندى ما زال حباتٍ فِضيةً متجمدةً ، لم تُذبها حرارةُ الشمس بعد ؛ وهاهم أولاء يَصْلَون نار المعركة ، وإذا الموت يتقدم كطعام إلى المكسورين المقهورين ، وإذا المثالب والمعايب تكسو من ارتضى الفرار ، والنقع وهو الغبار يعلو الرءوس ، وقد قلب النهار ليلا ، والسيوف فى وسطه تتساقط كالكواكب من بريقها ولمعانها ، وهى فى نزولها تسوق الموت السريع المفاجىء للأعداء ؛ وتنتهى المعركة ، ويعود الجيش الظافر ، وفريق من أعدائه مأسور ، وفريق مقتول ، وفريق هارب جبان !! ..

أليست الصورة كلها مشاهدَ تتحرك وتنبض بالحياة ؟ ...
وهى تصوير شاعر مكفوف !! ..

* * *

وهذا هو الفضل بن محمد القصبانى النحوى المكفوف ، الإمامُ فى علم العربية ، المتوفى سنة ٤٤٤ ، يصف لنا صنفاً خاصاً من الناس ، تكرمهم فلا يزدادون إلا لؤماً وطغياناً ، وضَعة وعدوانا ، وتؤدبهم وتقسو عليهم فتأمن شرهم ، وقد تستفيد خيرَهم ، فيأتى لك فى وصفهم بلوحة معبِّرة مجسِّمة ، فيقول :

فى الناس من لا يُرتجَى نفعُه إلا إذا مسَّ بإضرارِ
كالعود لا يُطمَع فى ريحه إلا إذا أُحرق بالنـار !

أشاهدتَ صورةَ الشمعة وهى مشتعلة الرأس ، تجود بضوئها وإنارتها على الناس ، بينما تذوب هى وتحترق ، ولولا هـذا الاحتراق ما أضاءت للناس ؟. أرأيت عودَ النِّدِّ وهو لا يُظهر رائحته الطيبة إلا إذا مسسته بالنار ففاح وذاع ؟... كذلك هذا الصنف من الناس ، لا يمنعون شرهم ، ولا يجودون بخيرهم ، إلا إذا مستهم نارُ التأديب والتهذيب .. والتشبيه ليس من كل وجه !.

فانظر كيف اختار الشاعر المكفوف لتصوير هذا المعنى الدقيق تلك اللوحةَ الناطقة المعبِّرة ؟... وهذا يذكرنا بقول الآخر :

وإذا أراد الله نشرَ فضـــيلة طُويت أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرْفِ العود

* * *

وانظر لشافع بن على بن عساكر العسقلانى المكفوف ، يريد أن يصوِّر لنا ما طرأ على سواد شَعره من مشيب ، وكيف بدا هذا المشيبُ عن يمين وشمال ؛ فيختار تشبيهَ هذا الشيب الأبيض خلال الشعر الأسود بالنهار الماتع الوضَّاح ، حين يقبل على سواد الليل وظلامه ، فيمحوه ويعلوه ؛ ويقول لنا إن سواد الشعر الذى كان لى فى الشباب ما هو إلا كالظلام الذى يصاحب الشكوكَ والظنون والريب ، ولذلك يقترن الشباب عادة بالجهل والاندفاع والانغمار فى الشهوات والملذات ؛ ولكن بياض هذا الشيب يشبه اليقينَ بنوره وإيمانه وثباته ، والشيخوخة هى عهد التذكر والاتعاظ ؛ فانظر كيف اختار فى حديثه كلَّ هذه الأمور الذى يظهر فيها الحسى الواضح بجوار المعنوى المستتر ، فيقول :

قال لى مَنْ رأى صباحَ مشيبى   عن شمال من لمتى[١] ويمين :
أى شىء هذا ؟ فقلت مجيبا :   ليلُ شك محاه صبحُ يقين !

* * *

وعندما أراد أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى الأسدى الكفيف الشاعر المتفنن فى علوم القرآن أن يصف فتاةً يهواها ، اختار فى تشخيصها وتقريب جمالها من فهم السامع أوصافاً حسية تقتضى فى أصلها الرؤيةَ والمشاهدة ؛ فنراه يقول :

أراك عينىْ كحيلِ الطرف ذى حور[٢]   ظبى ، خلا أنه ظبى من البشرِ
أغنى من الغصن قَدًا بالقوام ، كما   أغنى بغرته عن طلعة القمر
يفتر عن أشنبٍ عذب مراشفهُ   كالمسك نكهتُه فى ساعة السحر[٣]
مستملح الدل ، حلو الشكل ، مانظرت   إليه عين فلم تُفتَتن من النظر
ماكان أحسن إذ تمت محاسنُه   لو تمَّ لى منه إشفاقٌ على ضررى
جرى هواه مجارى الروح فى جسدى   وحلَّ منى محل السمع والبصر

حينما يقرأ الإنسانُ مثلَ هذه الأبيات أو يسمعها يحسبها لأول وهلة أنها لرجل مبصر ، لا لشاعر كفيف ، ولكنه يقرأ قوله : « لو تمَّ لى منه إشفاق على ضررى » فيقطع بأن القائل كفيف ، لأن الضرر هنا هو كف البصر .

---

(١) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، جمعه لمم ولمام .

(٢) الحور : أن يشتد بياض العين ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حواليها ، أو شدة بياضها وسوادها فى بياض الجسد ، أو اسوداد العين كلها مثل الظباء ، ولا يكون فى بنى آدم ، بل يستعار لها (القاموس) .

(٣) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان . والنكهة : اسم من الاستنكاه ، وهو شم رائحة الفم .

وإنما يحسب الإنسان أن هذه الأبيات لمبصر من كثرة ما أورد فيها من الأمور التى تُرى وتُشاهَد ، فالطرف الكحيل ذو الحور ، وهو شدة البياض مع شدة السواد ، والظبى بشكله الخاص ، والغصن ، والقد ، والقوام ، والغَرة وهى البياض فى الجبهة ، وطلعة القمر ، والأشنب وهو صاحب الأسنان التى فيها رقة وعذوبة وحدة وبياض ، وحلو الشكل الذى ندرك حلاوة شكله برؤيته ...

كل تلك الأشياء أمور تحتاج إلى النظر والمشاهدة ، وقد استطاعت ألمعيةُ الشاعر المكفوف أن يحسن بينها التأليفَ والانسجام ، حتى تتكون منها هذه الصورة التى رسمها لمن يهواه ... ولا عجب أن يبرع الشاعر هذه البراعةَ التصويرية فى وصف من يعزه ويحبه ، فقد استبد به هواه وسيطر عليه ، حتى أصبح يسرى من قلبه مسرى الروح من جسمه ، ولا غناء للجسم ولا بقاء له بغير روح ، وقد حلَّ منه كما قال محل السمع والبصر .

وإبراهيم بن محاسن القضاعى الشاعر المكفوف يصف بسمةً ومشية ، فيقول :

بسمت وهنا فأومض البرق ومشت زهوًا فغنَّت الوُرقُ

قدك والغصن ليس بينهما إذا تثنيتِ وانثنى فرق

والوجه والفرع يا معذبتى ذا مغرب ، وذا شرق !

أرأيت ؟ .. لقد بسمت وضحكت ليلا فبدت أسنانها لؤلؤا لامعاً ساطعاً كأنه البرق الخاطف للأبصار من شدة الضياء والالتماع ، والبرق شىء مرئى مشاهَد ، غير مسموع ولا ملموس باليد ؛ ولقد مشت تتخطر مزهوة بشبابها ورقة إهابها ولين أعطافها ، فإذا الحمائم تحييها بالغناء ، وإذا كان الغناء شيئا

مسموعا ، فإن التخطر المزهو فى المشية شيء منظور ، ثم هذا هو قوامها حين تمشى ، ما أشبهه — فى استقامته حيناً ، وتثنيه حيناً — بالغصن ، يهدأ الريح فنرى استواءه واستقامته ، ويهب النسيم فيلويه ويثنيه من رقته وليونته ؛ رهذا أمر منظور غير مسموع ؛ ثم هذا وجهها النيِّر ، وذاك فرعها وهو شعرها الأسود . إن وجهها بضيائه ونوره يشبه مشرق الشمس مصدرِ النور ، وإن شعرها يشبه المغرب ، لأن المغرب يوحى بالليل حيث لا نور ..

* * *

وهذا هو الإمام عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى ، أحد الفقهاء السبعة ، وهو من أعلام التابعين ، لقى خَلقا كثيراً من الصحابة ، وسمع من عائشة وأبى هريرة وابن عباس ، رضى الله عنهم جميعاً ، وهو مؤدِّب الإمام العادل والخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يقول : لأن يكون لى مجلس من عبيد الله أحب إلىَّ من الدنيا . . .

عبيد الله هذا هو الذى يقول :

شققتِ القلبَ ، ثم ذررت فيه هواكِ ، فليم ، فالتأم الفطورُ
تغلغل حبُّ عثمة فى فؤادى فباديه مع الخافى يسـير !
توغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حزن ، ولم يبلغ سرور

هذه عملية جراحية خطيرة جداً ... وأين موضعها ؟ فى أدقِّ عضو وأخطره فى جسم الإنسان ... فى القلب ... تلك الساعة الإلهية الدقّاقة التى لا تكف عن المسير ، ولو أصابها عطبٌ لعطب الجسم كلُّه وذهبت الحياة ...

إن الإمام عبيد الله فى صورته الشعرية الرائعة تلك يحدثنا بأن عثمةَ هذه قد شقت قلبَه بمشرط ماضٍ حاد رقيق عنيف ، تعرفه هى ويعرفه هو

كذلك ، وبعد أن شقت القلبَ إلى أقصاه ، بذرتْ فيه بذورَ حبها وهواها ، فلم تدع زاويةً منه ولا ناحية إلا غمرتها بتلك البذور ؛ ثم عادت فأغلقت القلبَ ، ولحمت الشق ، فالتحم والتأم ، وزال الانفطار الذى كان ، وكأنه ما كان ، ولم يبق هناك أثر للجراحة ولا للشق ، ولا منفذ ليدخل غريب إلى الداخل ، ولا ليبرز شىء من الهوى إلى الخارج ...

فهو إذن هنـاك ... هناك نائياً فى الأعماق ، وفى غور الفؤاد البعيد ، لا يصل إليه شيء مهما كان قوى التأثير ، ولا يبدو منه إلا الخفيف اليسير عند مناسبته وداعيه ، وهو قد توغل وأسرف فى التوغل ، إلى أعمق الأعماق ، بحيث لا يبلغه سارٍ ولا محاوِل ، فالشراب لا يصل إليه ولا يبديه ، والحزن لا ينتهى إليه ولا يمسه ، والسرور كذلك لا يبلغه ولا يكشفه ؛ وكأن عبيدالله يتحدى أمهر الجراحين بعد عثمة هذه أن يصلوا إلى استخراج هـذا الهوى المستكن فى أعمق أعماق فؤاده ... ولن يستطيعوا فى زعمه مهما حاولوا .

فهل تراد بعد هذا دقةٌ فى الرسم ، أو روعة فى التصوير ؟! ..

وممن ؟ . من شاعر مكفوف !! ..

* * *

وهذا أبو الفتح بن التعـاويذى الشاعر المكفوف ، يخبرنا أن الريح إذا ازدادت حرارتهـا ، فليس ذلك لعامل جغرافى ، بل لأنها مرت على الجحيم المستعرة فى فؤاده المحزون ، وإذا رأينا النياق تتلفت أثناء المسير حنيناً إلى مواطنها ومعاطنها وحماها ، فذلك لأنها تشارك التعـاويذى فى تلفته وحنينه ، ومع ذلك كله لم يفز الشاعر من أحبائه بمـا أراد ، بل عاد من دولة الكواعب الغيد خاسراً خائباً مغبوناً ، فهو يقول :

إن تنكروا نَفَسَ الصَّبا فلأنها   مرت بزفرة قلبيَ المحزونِ

وإذا الركائب فى المسير تلفتت فحنينهـــا لتلفتى وحنينى
يا سَلْمُ ، إن ضاعت عهودى عندكم فأنا الذى استودعتُ غير أمين
أو عُدْتُ مغبونا فما أنا فى الهوى لكمُ بأول عاشق مغبون !

✡ ✡ ✡

ونعود إلى بشار الكفيف لنراه يصوِّر لنا الكرمَ والبخل — وهما أمران معنويان فى حقيقتهما — بصورة حسية مرئية مجسَّمة ، فهو يرينا للبخل وللبخيل عِلَلًا شوهاءَ نكراء ، تبدو فى صورة منفِّرة مثيرة ، تشمئز منها النفوس ، وتفر منها العيون ، لأنها علل زرق العيون فى أوجه سود ..

وأما الكريم — مهما كان عطاؤه قليلا — فهو أشبه بالبستان، تُورِق فيه الأشجار ، ثم تأتى بأطيب الأثمار ، وفى هذا يقول بشار :

إن الكريم ليُخفى عنك عُسرتَه حتى تَراه غنيا وهو مجهودُ[(١)]
وللبخيـــل على أمواله عللٌ زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكرهتَ أن تعطى القليلَ، ولم تقدر على سعةٍ لم يظهر الجود
أَوْرق بخير ترجَّى للنوال ، فما تُرجَى الثمارُ إذا لم يورِق العود
بُثَّ النوالَ ، ولا تمنعك قلتُه فكل ما سدَّ فقرا فهو محمود !

✡ ✡ ✡

وهذا أبو على المنطق الشاعر العالم الذى أصيب بكف البصر فى آخر عمره يصور تراكم الهموم عليه بعد كف بصره ، فيقول :

---

(١) أى فى مشقة وفقر .

ما للهموم إذا ماهيمها وَردتْ   عليَّ لم تَنفض من وِرْد إلى صَدَر[1]
كأنما وافق الأعشابَ رائدُها   لدى حماى ، فقد ألقى عصا السفر
إن يجرح الدهرُ منى خيرَ جارحة   ففى البصائر ما يغنى عن البصر !

هذه أيضاً صورة فنية قوية ، تعتمد الحس والرؤية والمشاهدة ، أكثر مما تستند إلى التعقل والتفكير ؛ فأبوعلى يرى أن كتائب الهموم قد أحاطت به ولم تنتقل عنه ، فهذه هيمها وهى الإبل العطاش قد وردت إليه لتشرب من مائه ، ولكنها لم ترجع ولم تنتقل ، والوُرُود هو الإقبال على الماء ، والصدور هو الرجوع عنه ؛ وكأن سائق الإبل — إبل الهموم — والباحثَ لها عن المرعى قد وجد كلَّ الأعشاب المطلوبة لها عند الشاعر ، فألقى عصاه عنده ، واستقر به النوى ، كما قر عيناً بالإياب المسافر .

ولكن أبا على برغم هذه الهموم كلِّها لم ييأس ولم يقنط ، وإذا كان قد فاته نورُ البصر ففى نور بصيرته ما يغنيه ويكفيه ! ..

* * *

وهذا هو المبارك بن المبارك بن سعيد بن الدهان الضرير النحوى يُلِمُّ فى أبياته التالية بصور حسية مرئية تذكِّر بقوة هذه الناحية عند كثيرين من المكفوفين ، فيقول :

مامرَّ يومٌ ، ولا شهر ، ولا عيد   فاخضر فيه لنا من وصلكم عود
عودوا تعــد بكم الأيامُ مشرقةً   وإن أبيتم ففى الأسقام لى عودوا[2]

---

(١) هيم : جمع هيمان وهو الشديد العطش ، ومنه قوله تعالى : « فشاربون شرب الهيم » . والورد : الإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله . والصدر : الرجوع عن الماء .

(٢) عودوا : من عيادة المريض أى زيارته للاطمئنان عليه وعودوا الأولى : ارجعوا .

كم ذا التجنى ؟ وكم هذا الصدودُ ؟ صِلوا ... مَن حظه منكمُ همٌّ وتسهيد
لو تسألوا كيف حالى بعـد بُعدكم ... فالحال شاهدة ، والسقم مشهود
لولا التعلل بالآمال متُّ أسى ... يفنى الزمانُ ، وما تفنى المواعيد
ولو شكوتُ الذى ألقى بحبِّكمُ ... إلى الجلاميد رقَّتْ لى الجلاميد
يا هذه ، ما أنام الليل من وَلهى ... كأنما حاجبى بالجفن معقود
قلَّ اصطبارى ، وزاد الوجدُ بى ، فأنا ... بكِ الشقىِ ، وغيرى منك مسعود
تلذ فى حبِّك الأيامُ لى ، وأرى التعـ ... ذيبَ عذباً به ، والقلب مجهود !

ويجب أن نلاحظ فى الأبيات الماضية ما جاء فيها من ذكر اخضرار العود ، وإشراق الأيام ، والصدود وفيه غالباً حركةُ إعراض حسية مرئية ، والحال الشاهدة ، والسقم المشهود . والجلاميد وكيف ترق ، وانعقاد الجفن بالحاجب . إلى غير ذلك من أشياء ...

* * *

ومن براعة المكفوفين فى الصور الأدبية تفننُهم فى المحسِّنات اللفظية أحياناً ، فهم يأتون بالجناس الدقيق : والجناس هو أن تذكر كلمتين لفظُهما واحد ، ولكل منهما معنى خاص ، ويترتب على ذلك حسنٌ فى الكلام وإعجاب به ؛ وذلك مثل ما وقع للفقيه الشاعر المكفوف محمد بن محمد الفرجوطى الذى كانت له مشاركة فى الفقه والفرائض ، وكان خفيفَ الروح ، ذكياً حسنَ الأخلاق ، وتُوفى سنة ٧٣٧ ﻫ .

أراد أن يهجو رجلا يدّعى أنه يقول الشعر ، ولكنه لا يأتِى إلا بالسخف والهراء الذى يشبه الغائط ، وهو من جهله لا يحسُّ بذلك ولا يدرى ، فقال فيه :

وشاعرٍ يزعم من غِرَّةٍ وفرطِ جهل أنه يشعرُ
يصنِّف الشعرَ ، ولكنه يُحدِثُ من فيه،ولا يشعر !

و « يَشعر » الأولى معناها ينظم الشعر ، و « يَشعر » الأخرى معناها يحس ويدرك ! ...

و « يحدث » معناها يأتى بالغائط . . . وليس وراء ذلك تقبيح .

وهذا أبو الفضل برهان الدين سليمان بن موسى الأديب البارع ، العارف بصناعة الكحل ، كان بينه وبين القاضى الفاضل صحبة ومداعبة ، فكتب إليه القاضى الفاضل ، وكان قد كحَّله :

رجل توكل بى ، وكحَّلنى فدهيت فى عينى وفى عينى
وخشيت ينقل نقط كحلته عينىَّ من عين إلى غين

و « العين » الأولى هى الباصرة ، و « العين » الأخرى هى الذهب ، أى المال ، يقال للذهب : عين .

وفى البيت الثانى يقول إنه يخشى من الكحَّال أن ينقل عينه إلى غين ، والغين هو الغشاوة والظلام[1] ، ولاحظوا الاتفاق فى الكتابة بين « عين » و « غين » ما عدا نقطة واحدة !! . .

ومن براعة التفنن فى هذا الجناس قول الشاعر المكفوف على بن أحمد بن هبل :

---

(١) فى كتاب « اللهجات وأسلوب دراستها » للدكتور أنيس فريحة ، ص ١٥ ما نصه : « وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن ، كما فى غم وغيم وغبن وغطيطة ».

لقد سبتنى غداةَ الخيف غانيةٌ قد حازت الحسنَ فى دلٍّ لها وصِبا
قامت تميس كخُوط[1] البان ، غازله مع الأصائل ريح شمأل وصَبا
يكاد من دقةٍ خصرٌ تدل به يشكو إلى ردفها ـ من ثقله ـ وَصَبَا
لولم يكن أقحواناً ثغرُ مبسمِها ما هام قلبى بحبها هوًى ، وصَبا

فنرى أن الشاعر ذكر كلمة « وَصَبَا » أربع مرات ، ولكنها ذات معنى خاص فى كل مرة : « فالصِّبا » فى البيت الأولى معناها الشباب ، « والصَّبا » فى البيت الثانى ريحٌ جميلة مهبُّها كما يقولون من مطلع الثريا ، وقيل : سميت صبا لأنها تستقبل البيت فكأنها تحن إليه ، وكلمة « وصبا » فى البيت الثالث هى « الوصب » بمعنى الإجهاد والتعب ، وكلمة « صَبَا » فى البيت الرابع فعل ماض بمعنى حنَّ إليه واشتاق ...

ولا شك أنها براعة فنية من الشاعر المكفوف أن يذكر لفظا واحداً أربع مرات ، وفى كل مرة يريد به معنى خاصًّا ، دون اضطراب فى الوزن أو المعنى . .

ومثل هذا براعتهم فى التورية ، وهى ذكر لفظ يحتمل معنين أحدهما قريب والآخر بعيد ، كقول جمال الدين محمد بن المكرم المكفوف :

بالله إن جزت بوادى الأراكْ وقبَّلت عيدانُه الخضْرُ فاكْ
ابعث إلى المملوك من بعضه فإننى والله مالى سواكْ !

فكلمة « سواك » تحتمل أن يكون معناها : مالى غيرك ، وتحتمل أن يكون معناها عود السواك المعروف الذى تُنظف به الأسنان .

---

(١) الخوط : الغصن الناعم .

وقريب من هذا التفنن اللفظى أن شيخ القراء بدر الدين محمد بن أحمد بن بصخان المكفوف المتوفى سنة ٧٤٣ هـ دخل مع الشيخ المكفوف نجم الدين القفخازى فى درب العجم وبه ظروفُ زيت[1]، فعثر الإمام فى أحدها، فقال الشيخ نجم الدين: تعسنا فى ظرف المكان. فقال له الشيخ بدر الدين: لأنك تمشى بلا تمييز. فقال نجم الدين: إن هذا حال نحس!... والظرف، والتمييز، والحال من مصطلحات النحاة، ولها قبل ذلك معانيها اللغوية ...

* * *

ومن روعة التصوير المعنوى عند المكفوفين أنهم يتناولون أحيانا مسائلَ فيها عمقُ الفكرة، وصعوبة الموازنة، ودقة الحكم، فيبرعون فى عرضها، ويُحسنون فى الحكم عليها بصورة تثير الدهشة والإعجاب ...

هذه مثلا مسألة الحب ... إن الحب فى أغلب أحواله — إن لم يكن فى سائرها — يحتاج إلى النظر والمشاهدة، فالإنسان لا يحب إلا من يراه ... وقد يُعجب المرء بإنسان يسمع عنه محامدَ أومحاسن، ولكن هذا شىء، والحب شىء آخر؛ فإن هذه العاطفة القوية العارمة التى لها فى النفس والحس جذورُها وأسبابها تنبت عن الرؤية والملاحظة البصرية، بل أكاد أقول إنها تنبت من تكرار الرؤية ومداومة الملاحظة؛ وكم من وجهين تلاقيا فما تعاطفا ولا تجاذبا أول الأمر، ولكن تكررت اللقيا، وتكررت الرؤية، وتكررت الملاحظة، فنبتت هذه العاطفة قليلا قليلا، أو حثيثاً حثيثاً، حتى تمكنت وسيطرت؛ وهذا لا يمنع من نشوئها للنظرة الأولى ...

وما دام نشوء هذه العاطفة يرجع فى أغلب الأحيان إلى النظر، فكيف يحب المكفوف؟ ...

---

(١) يقصد بالظروف هنا الأواني الموضوع فيها الزيت.

تفنن كثير من شعراء المكفوفين فى تصوير ذلك، وعمدتهم فى التعليل هى أن الأذن تقوم عندهم مقام العين. وأن استماع هذه الأذن إلى وصف المحبوب وإلى صوته نفسه يقوم مقامَ رؤيته، ويضربون لذلك مثلا، هو حب موسى عليه السلام لربه، حينما ذهب ليلقاه، فإنه كان يسمعه ولا يراه: فيقول الشاعر المكفوف أبو العز مظفر بن إبراهيم:

قالوا: عشقتَ وأنتَ أعمى ظبيا كحيلَ الطرف ألمى(١)
وحُــلاه ما عاينتَهـــا فنقول: قد شغلتْك وهما
وخياله بك فى المنـــام فما أطاف ولا ألمّا(٢)
من أين أرسل للفؤا د وأنت لم تنظره سهما؟
فأجبتُ: إنى موسوىُّ العشق إنصاتا وفهما
أهـــوَى بجارحة السما ع، ولا أرى ذات المسمَّى!

ويضربون لذلك مثلا آخر، وهو أن الإنسان يحب الجنة غاية الحب، لمـا فيها من نعيم مقيم وهناء دائم، ومع ذلك هو لم ير تلك الجنة يوما من الأيام، ولذلك يقول الشاعر المدنى المكفوف:

أيا مَنْ لامنى فى حبِّ مَنْ لم يره طرفى
لقـــد أفرطتَ فى وصـ فك لى فى الحب بالضعف
فقل: هل تُعرف الجنـــةُ يوما بسوى الوصف؟

ويقول فى هذا المعنى أبو يعقوب الخريمى المكفوف:

قالت ـ وتهزابى ـ غداةَ لقيتُها: يا للرجال لصـــبوة العميان

---

(١) اللمى (مثلثة اللام): سمرة فى الشفة، والألمى صاحب الشفة السمراء.
(٢) يقال ألم يفعل: أى كاد.

فأجبتُها : نفسى فداكِ ، فإنما عينى وأذنى فى الهوى سيان

ويقول أيضاً بشار بن برد المكفوف :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا : بمن لا ترى تهذى ؟ فقلتُ لهم : الأذن كالعين تُوفى القلبَ ما كانا

* * *

ولا أريد أن أمضى فى الاستعراض والتعليق ، فإن حبل الكلام بذلك يطول ، وحسبى أن أورد بعض النماذج من شعر المكفوفين ، لترى فيها براعتَهم وحسن تصويرهم الحسى والمعنوى ، ولطيفَ عرضهم لآرائهم وأفكارهم وأشجانهم المختلفة بأساليب قد تفوق أحيانا ما للشعراء المبصرين .

هذا أبو الحسن على بن عبد الغنى الُحصْرى الشاعر المكفوف المتوفَّى سنة ٤٨٨ هـ يقول

أقول له وقد حيَّـــا بكأس لها من مسك ريقته ختامُ :

أمن خديك ُتعصر ؟ قال : كلا متى عُصرتْ من الورد المدام ؟

وهما بيتان يذكران قارئهما بقول حافظ إبراهيم :

يا غلامُ المدامَ والكاس والطاس وهيء لنا مكانا كأمس

واسقنا جهـــرة حتى ترانا لا نطيق الكلام إلا بهمس

خمرة قيـــل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس !

والحصرى الكفيف السابق ذكره هو صاحب القصيدة العاطفة الشهيرة التى يقول فيها :

يا ليل الصب متى غدُه ؟ أقيامُ الساعة موعدُه ؟

رقد السُّمَّار ، وأرّقه أسفٌ للبين يردده
فبكاه النجم ، ورق له مما يرعاه ويرصده
نصبت عيناى له شركا فى النوم فعز تصيُّده
صاحٍ والخمر جنى فمه سكران اللحظ معربده
يا من سفكت عيناه دمى وعلى خديه توردُه
خداك قد اعترفا بدمى فعلام جفونُك تجحده
بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالَك يُسعده
لم يُبق هواك به رمقا فلتبك عليه عُوَّده
وغدا يقضى ، أو بعد غد هل من نظر يتزوده ؟
ما أحلى الوصلَ وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران ، فيا لفؤادى كيف تجلده !

وأبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى الشاعر الأديب المكفوف المتوفى سنة ٣٠٥ ﻫ ، يقول فى تسويغ الصمت ، وضنه بما عنده من ذخائر على غير مستحقيها :

قالوا : نراك تطيل الصمت ، قلت لهم :
ما طول صمتى من عىٍّ ولا خرس
لكنه أحمدُ الأمرين عاقبة
عندى ، وأبعده من منطق شكس [1]
أأنشر البز فيمن ليس يعرفه ؟
أو أنثر الدر للعميان فى الغلس ؟

---

(١) شكس : صعب

قالوا : نراك أديبا لستَ ذا خطل

فقلت : هاتوا أرونى وجه مقتبس[1] ؟

لو شئتُ قلت ، ولكن لا أرى أحداً

يروى الكلامَ فأعطيه مدى النَّفَسِ !

وقال على بن جبلة العكوك الشاعر المكفوف المتوفى سنة ٢١٣ :

« زرت أبا دلف بالجبل[2] ، فكان يُظهر من إكرامى وبرى والتحفى بى أمرا مفرطا ، حتى تأخرت عنه حينا حياء ، فبعث إلىَّ معقل بن عيسى فقال : يقول لك الأمير ، قد انقطعتَ عنى ، وأحسبك استقللت برى بك ، فلا يغضبك ذلك ، فسأزيد فيه حتى ترضى .

فقلت : والله ما قطعنى إلا إفراطه فى البر ؛ وكتبت إليه :

هجرتك ، لم أهجرك من كفر نعمة — وهل يُرتجى نيلُ الزيادة بالكفر ؟

ولكننى لما أتيتك زائراً — فأفرطتَ فى برى عجزتُ عن الشكر

فَمِ الآن لا آتيك إلا مسلِّما — أزورك فى الشهرين يوما، أو الشهر

فإن زدتنى برا تزايدت جفوة — ولم تلقنى طول الحياة إلى الحشر !

فلما قرأها معقل استحسنها جداً ، وقال : أحسنت والله ، أما إن الأمير لتعجبه هذه المعانى . فلما أوصلها إلى أبى دلف قال : قاتله الله ، ما أشعره وأدق معانيه فأعجبته فأجابنى لوقته ، وكان حسن البديهة حاضر الجواب :

ألا رب ضيف طارق قد بسطته — وآنسته قبل الضيافة بالبشر

أتانى يرجِّينى فما حال دونه — ودون القِرى والعرف من نائلى سترى

---

(١) مقتبس : مستفيد .

(٢) أبو دلف أمير أديب معطاء مدحه العكوك كثيرا :

وجدت له فضلا عليَّ بقصده إليَّ ، وبرًّا زاد فيه على برى
فزودته مالا يقل بقاءه وزودنى مدحا يدوم على الدهر[1]

وهذا محمد بن حازم بن عمرو الباهلى الكفيف ، يدعوه إبراهيم المهدى يوما إلى الشراب ، فيأبى ويعلل إباءه تعليلا مقنعاً شافياً ، فيقول :

أبعد خمسين أصبو والشيب للجهل حربُ ؟
سن ، وشيب ، وجهل أمرٌ لعمرك صعب
يا ابن الإمام ، فهلا أيام عودىَ رَطْب ؟
وشيب رأسى قليل ومنهل الحب عذب
وإذ سهامى صياب ونصل سيفى عضب
وإذ شفاء الغوانى منى حديث وقرب ؟
الآن حين رأى بى عواذلى ما أحبوا
وأقصر الجهلُ منى وساعد الشيبَ لب
وآنس الرشدَ منى قومٌ ، أُعاب وأصبو ؟
آليتُ أشرب كأسا ما حَجَّ لله ركب !![2]

وهذا هو المبارك بن المبارك بن الدهان الواسطى المكفوف المتوفى سنة ٦١٢ يُرينا كيف يحتال لإبلاغ صوته إلى محبوبته ، ويقيم هذا الإسماع مقام اللقاء ، فيقول :

أرفع الصوتَ إن مررتُ بدار أنتِ فيها ، إذ ما إليك وصولُ
وأحيِّ من ليس عندى بأهل أن يحيَّ كى تسمعى ما أقول !

---

(١) انظر كتاب الأغاني ، ج ٨ ص ٢٥٦ .
(٢) يروى أنه كان يشرب النبيذ فى شبابه ثم تاب .

ولصالح بن عبد القدوس الشاعر المكفوف أشعار كثيرة فيها دقة وقوة ، نقتطف منها قوله :

يا صاح لو كرهت كفى مصاحبتى ... لقلت إذ كرهت كفى لها : بِينِى
لا أبتغى وصل من لا يبتغى صلتى ... ولا أُبالى حبيبا لا يبالينى

وقوله :

أنستُ بوحدتى ، فلزمت بيتى ... فتم العزُّ لى ؛ ونما السرور
وأدَّبنى الزمان ، فليت أنى ... هُجرتُ ، فلا أُزار ولا أزور
ولست بقائل ما دمتُ يوما : ... أسار الجندُ أم قدم الأمير ! ؟

وقوله :

لا يعجبنك من يصون ثيابَه ... حذرَ الغبار ، وعرضُه مبلول
ولربما افتقر الفتى ، فرأيته ... دنسَ الثياب ، وعرضُه مغسول

وقوله :

واحذر معاشرةَ الدنىّ ، فإنها ... تُعدى، كما يعدِى الصحيحَ الأجربُ
يلقاك يحلف أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب!

ولصالح بن عبد القدوس قطعة باكية أسيفة ، قالها وهو ثائر حائر يندب بصره :

عزاءَكِ أيها العينُ السكوبُ ... ودمعَكِ ، إنها نُوب تنوبُ
وكنتِ كريمتى ، وسراجَ وجهى ... وكانت لى بك الدنيا تطيب
فإن أك قد ثكلتُك فى حياتِى ... وفارقنى بك الإلفُ الحبيب

فكلُّ قرينةٍ لا بد يوماً سيشعب إلفها عنها شعوب[1]
على الدنيا السلامُ ، فما لشيخ ضرير العين فى الدنيا نصيب
يموت المرءُ وهو يعد حيا ويُخلف ظنَّه الأملُ الكذوب
يمنينى الطبيبُ شفاءَ عينى وما غير الإله لها طبيب
إذا ما مات بعضُك ، فابك بعضا فإن البعض من بعض قريب!

وهذا أبو الحسن منصور بن إسماعيل الشاعر الكفيف المتوفى سنة ٣٠٦هـ يقول :

الكلب أحسن عشرة وهو النهاية فى الخساسهْ
ممن ينازع فى الرياسة قبل أوقات الرياسه !

ويقول :

لى حيلة فيمن ينم وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقول فحيلتى فيه قليله !!

وهذا أبو العز عبد الله بن هرمز البغدادى المقرئ المكفوف يقول وما أرقّه فيما يقول :

هنيئاً لك النوم يا نائمُ رقدتَ ولم يرقد الهائمُ
وكيف ينام فتى مغرمٌ برى جسمَه سرُّه الكاتم ؟
أريد لأضمر وجدى بكم فيظهره دمعى الساجم
فليت الذى شفّنى حبُّه بما فى فؤادى له عالم
عساه على ظلمه يرعوى فيدنو ، وقد يرعوى الظالم!

(١) اسم الموت .

وهذا بدر بن جعفر بن عثمان الأميرى المتوفى سنة ٦١١ ﻫ يقول فى وصف أهل زمانه :

عذيرى من جيل غدوا وصنيعهم بأهل النُّهى والفضلِ شرُّ صنيعِ
ولؤم زمان ما يزال موكَّلا بوضع رفيع ، أو برفع وضيع
سأصرف صرف الدهر عنى بماجد متى آته لا آته بشفيع !

* * *

لقد أردت من هذه الجولة فى رياض شعر المكفوفين أن أقدم نماذج سريعة لروعة تصويرهم الحسى والمعنوى ، ولست إلا فاتحاً لباب يؤدى إلى طريق طويل واسع ، تنهض على جانبيه دراسات كثيرة متعددة يجب أن يقوم بها المتخصصون فى شئون المكفوفين ، ليحللوا لنا ما نُقل إلينا من أشعار هؤلاء، ويستخرجوا منها قواعد ونتائج تفيد من ناحية التحليل الأدبى الفنى ، وتفيد أكثر من ذلك فى ميدان التعرف إلى شئون المكفوفين.

مواقف في السيرة للمكفوفين

الغرض فى هذا البـاب هو أن نستعرض بعض المواقف التى كانت للمكفوفين خلال سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، لنرى كيف جاهد هؤلاء فى سبيل الحياة أو الفكرة ، وكيف صبروا واحتملوا ، وكيف بذلوا ما فى طاقاتهم فلم يقصِّروا ؛ ثم نعقِّب على ذلك بذكر بعض المواقف لمن نالهم عجز حسى فى حياتهم خلال هذه السيرة العاطرة ، فبذلوا جهدهم كذلك ليتغلبوا على هذا النقص ، ويسايروا موكب الحياة .

لقد جرى الحديث فى غير هذا الموطن عن مكانة عبد الله بن أم مكتوم ومواقفه ، وحسبه أنه تولى إمارةَ المدينة فى حياة الرسول عليه السلام ثلاث عشرة مرة ، وحينما نطالع أخبار الغزوات المحمدية نجد فى أغلبها هذه العبارة :

« واستخلف النبيُّ صلى الله عليه وسلم على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم » .

وكأنَّ هذا الاستخلافَ المتكرر المتتابع تكرارٌ كريم نبيل للترضية والاعتذار ، حتى يمسح النبيُّ عليه صلوات الله على ما نال نفسَ عبد الله من إعراض الرسول عنه فى ذلك الموقف المعروف .

والرأى عندى أنه يجب التعرف الواسع إلى حياة ابن أم مكتوم ، ويجب أن توضع عنه دراسة مفصلة ، ليجد فيها المكفوفون مثلا من أمثلة شخصياتهم التاريخية المتميزة .

وندخل بعد هذا فى استعراض المواقف التى كانت للمكفوفين خلال السيرة النبوية الكريمة . . .

يروى التاريخ أن الخليفة العبقرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت

له جارية تسمى « زِنِّيرة »[١] ، قد أسلمت قبل أن يُسلم ، فكان — وهو فى جاهليته لم يستضىء بنور الإسلام بعد — يضربها على إسلامها ضرباً شديداً ، حتى فقدت بصرها ، فاحتملت ذلك راضيةً شاكرة ، وقالت قولةً وعاها التاريخ ، وقدَّرتها العقول . قالت : « عميت عينى ، وتفتَّح قلبى » !.

فزادها ضرباً وإيلاماً حتى شلت رجلها ، فقالت : « والله لولا خشية عجزى عن الوقوف بين يدى الله تعالى لقلت له : زدنى » .

فأنستها حلاوةُ الإيمان نكبةَ كفِّ البصر ومرارةَ إيلام التعذيب .

ويقول السيوطى فى « الخصائص الكبرى » تحت عنوان « باب التى عميت من المسلمات ورُدَّ عليها بصرُها » ما نصه : « أخرج البيهقى عن عروة أن أبا بكر أعتق ممن كان يعذب فى الله سبعة ، منهم الزِّنِّيرة ، فذهب بصرها ، وكانت ممن يعذَّب فى الله ، فتأبى إلا الإسلام . فقال المشركون : ما أصاب بصرَها إلا اللات والعزى . فقالت : كلا والله ما هو كذلك ، فردَّ اللهُ عليها بصرَها » .

* * *

وهذا مكفوف من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . خدم الدعوة ، وتعب فى سبيل الإسلام ، وكان فيه برغم كفِّ بصره إباءٌ وشمم وأنفة ...

هو عبد الله بن الأرقم الصحابى الكاتب ، أسلم يوم الفتح ، وكتب للنبى ولأبى بكر وعمر ، وولى بيتَ المال لعمر وعثمان ، وكُفَّ بصرُه ، وكان

---

(١) فى القاموس : « زنيرة كسكينة رومية صحابية كانت تعذب فى الله ، فاشتراها أبو بكر رضى الله عنه وأعتقها » .

من فضلاء الصحابة وصلحائهم . وروى له البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

أجازه عثمان ثلاثين ألف درهم ، فرفضها ولم يقبلها تعففا وتقوى .

وتوفى فى حدود الستين للهجرة (كما فى نكت الهميان) . وفى (تقريب التهذيب) للنووى : « ومات فى خلافة عثمان » .

* * *

وهذا موقفٌ مكفوف ، فيه خير وبركة . .

أصاب المسلمين قحطٌ فى العام السابع عشر الهجرى ، على عهد عمر ، وسُمِّىَ هذا العام عامَ الرمادة[١] ، فقال كعب لعمر : يا أمير المؤمنين ، إن بنى إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا ، استسقوا بعصمة الأنبياء .

فقال عمر : هذا عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وصنو أبيه[٢] ، وسيد بنى هاشم . (يعنى العباس بن عبد المطلب) . فمشى إليه عمر ، وكان العباس حينئذ مكفوفا ، فشكا إليه عمر ما أصاب الناس ، فخرج معه العباس ، وصعد عمرُ المنبرَ وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك اليومَ بعمٍّ نبينا ، فاسقنا . اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه ، فاسقنا الغيث ، ولا تجعلنا من القانطين .

---

(١) فى القاموس : « ورمدت الغنم ترمد : هلكت من برد أو صقيع ، ومنه عام الرمادة فى أيام عمر رضى الله عنه ، هلكت فيه الناس والأموال » . وفى النهاية لابن الأثير : « ومنه حديث عمر : أنه أخر الصدقة عام الرمادة ، وكانت سنة جدب وقحط فى عهده ، فلم يأخذها منهم تخفيفا عنهم ، وقيل سمى به لأنهم لما أجدبوا صارت ألوانهم كلون الرماد »

(٢) الصنو : الأخ الشقيق .

ثم قال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، قم وادع .

فقال العباس بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم إن عندك سحابا ، وعندك ماء ، فانشر السحاب ، ثم أنزلِ الماءَ فيه علينا ، فاشدد به الأصل ، وأطِلْ به الفرع ، وأدرَّ به الضرع . اللهم إنك لم تُنزل بلاءً إلا بذنب ، ولا تكشفه إلا بتوبة ، وقد توجه القومُ بى إليك ، فاسقنا الغيث . اللهم اشفعنا فى أنفسنا وأهلينا . اللهم اسقنا سقياً وادعاً نافعاً ، طبقاً سحًّا عاما[1] . اللهم لا نرجو إلا إياك ، ولا ندعو غيرك ، ولا نرغب إلا إليك . اللهم إليك جوعُ كلِّ جائع ، وعُرى كل عار ، وخوفُ كل خائف ، وضعفُ كل ضعيف !...

واستمر العباس رضى الله عنه فى دعاء طويل ، وبعد قليل أنزلت السماءُ المطر ، حتى استوت الحفر بالآكام ، وأخصبت الأرضُ ، فقال عمر : هذا والله الوسيلةُ إلى الله والمكان منه .

ولهذا كان الناس يسمون العباس المكفوف : « ساقى الحرمين » .

وقال حسان بن ثابت :

سأل الإمامُ وقد تتابع جدبُنا فسُقى الإمامُ بغرة العباسِ

عم النبى ، وصنو والده الذى ورث النبى بذاك دون الناس

أحيا الإلهُ به البلادَ ، فأصبحت مُخضَّرة الأجناب بعد الياس

وقال الفضل بن عباس بن عتبة :

بعمِّى سقى الله الحجازَ وأهلَه عشية يستسقى بشيبته عمرْ

توجَّه بالعباس فى الجدب راغباً فما كرَّ حتى جاء بالديمة المطر

(١) الوادع : الساكن المستقر . والطبق من المطر : العام . والسح : الصب والسيلان .

ولما سُقى الناسُ طفقوا يمسحون أركان العباس ، ويقولون له : « هنيئاً لك ساقى الحرمين » !...

* * *

وهذا عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، الذى كف بصره ، وهو ابن عم الرسول صلوات الله عليه ، وحَبْر الأمة ، وترجمان القرآن ، وأبو الخلفاء... كان عمر يقول فيه وهو الخبير بالرجال : « ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَئول ، وقلب عَقول » !... وهذا الوصف من عمر يدل أوضح الدلالة على ما بلغه ابن عباس من مكانة ونبوغ .

ومما يدل على ذكاء ابن عباس وبراعته وألمعيته أن معاوية بن أبى سفيان قال له ذات يوم : ما بالكم تُصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ فأجابه ابن عباس الجوابَ الموجِع بقوله : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية !!... (والبصائر هى القلوب والعقول) .

وهذا يذكّرنا بموقف للنبى صلوات الله عليه يبيّن أن عمى القلب خطير . فقد نزل النبى فى غزوة أُحد مع بعض الصحابة فى طريق مملوك لرجل مجرم مكفوف البصر ، اسمه مربع بن قيظى ، فلما سمع مربع بنزول الرسول ومنْ معه فى أرضه ، قام يرميهم فى وجوههم بالتراب ، ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فإنى لا أُحل لك أن تدخل حائطى .

ثم أخذ حفنةً من التراب ، وقال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرَك يا محمد لضربتُ بها فى وجهك !... فبادر القوم ليقتلوه ، فقال الرسول : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر !...

ولـكن سعد بن زيد تعجل قبل أن يقول الرسول جملته ، فضربه بالقوس في رأسه فشجَّه .

وهذا النهى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما كان من سوء أدب الرجل لون من ألوان الرحمة النبوية الـكريمة ، وانظر كيف قدَّم الرسولُ ذكرَ عمى القلب على عمى البصر ، فكأن عمى القلب هو السبب فى جهالة الرجل وحماقته ، ثم ثنَّى بذكر عمى البصر ، ليجعله سبباً للعفو عنه !...

بل ويذكِّرنا ذلك بموقف آخر ، يرمز إلى أن أعمى القلب ينبغى أن يكون مكفوف البصر ، حتى لا يسىء استخدامَ بصره ...

فهؤلاء هم كفار قريش المشركون ، يكيدون للرسول ما يكيدون ، ويعاندونه ما يعاندون ، ويعارضون دعوته بما يعارضون ، ثم يقر قرارُهم على قتله للتخلص منه ، وذلك بأن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلدا نسيبا وسيطا ، ويأخذ كل منهم سيفا صارما بتارا ، ويتجمعوا على محمد ويشتركوا فى قتله ، ليضيع دمُه بين القبائل وهو الذى جاء رحمة للعالمين ، فلا تستطيع قبيلته أن تأخذ بثأره ، فتأخذ الدية .

ويحيط الكافرون ببيت النبى ليلا وقد أعمى الله منهم القلوبَ والبصائرَ فبغوا وطغوا ، وتطلعت عيونهم الشرِّيرة تبصر لهم طريقَ الغواية والإثم ، وخرج محمد عليهم وقد أعلمه الله بما هناك ، وقضى بعصمته من هذا السوء ، وأخذ حفنة من التراب فنثرها عليهم ، فأخذ الله أبصارهم ، وكف أعينَهم عن رؤيته وهو خارج يتلو قوله تبارك وتعالى :

« يس ، والقرآن الحـكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيلَ العزيز الرحيم ، لتنذر قوما ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون ، لقد حقَّ القولُ

على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقْمَحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ...

* * *

وهذا موقف لصحابى مكفوف فيه أدب وذوق :

إنه أبو عبد الرحمن[1] سعيد بن يربوع بن عنكثة بن عامر بن مخزوم القرشى المخزومى ، من مسلمة الفتح ، وقيل أسلمَ قبل الفتح ، وشهد بعض الغزوات ، وعاش مئة وعشرين سنة ، وقيل إنه عاش أكثر من ذلك ، وكان اسمه الصَّرْم ، فسماه الرسول : سعيد ، إذ قال له : « أنت سعيد » .

وقد سأله الرسول صلى الله عليه وسلم : أيما أكبر ، أنا أو أنت ؟ . فقال : أنت أكبر منى وخير ، وأنا أسنُّ . ولم يقل : « وأنا أسن منك » حتى لا يكون استدراكا أو تفضيلا على النبي ولو فى السن ، وفى اللفظ ! . . .

وقد يستطيع بعضُنا أن يجيب بمثل ذلك الآن ، لأننا سمعنا مثل هذا فتعلمنا منه وتهذبنا به ، والسابق له الفضل لأنه رائد ومبتكر ، وهذا الجواب السديد قد قيل منذ أكثر من ألف سنة !! . . .

وقد نُسب مثل هذا إلى العباس بن عبد المطلب ، إذ سأله سائل : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . فأجاب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى ، وأنا وُلدتُ قبله ! ...

* * *

---

(١) ويقال : أبو هود ، ويقال أبو يربوع ، ويقال أبو مرة ، وتوفى سنة أربع وخمسين للهجرة

وهذا موقف فيه تذكرٌ جميلٌ لجهود صحابي كفيف ...

لقد حدثت حادثة الإفك التي اتُهمتْ فيها الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنهما ، ورُميت بالفاحشة زوراً وبهتانا ، واشترك فى هذه الفرية حسان بن ثابت الشاعر لقدَرٍ قدَّره الله ، ثم نزل قوله تعالى فى براءة عائشة : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم »[1] . إلى آخر ما قال جلَّ جلاله ...

وتاب حسان مما كان ، وكُفَّ بصرُه ودخل وهو كفيف على عائشة رضى الله عنها ، فهشَّت له وبَشَّت ، ووضعت له وسادةً فجلس عليها ، وأكرمته ، ورأى ذلك عبد الرحمن بن أبي بكر أخوها فقال لها : أتُجلسينه على وسادة وقد قال ما قال ؟ ! فقالت : إنه كان يجيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى يدافع عنه بشعره) ، ويشفى صدره من أعدائه ، وقد عَمِيَ ، وإنى لأرجو أن لا يُعَذَّب فى الآخرة ! .

فهى قد ذكرت سببين لإكرامه : أولهما أنه يدافع عن الرسول ويرد بشعره على شعراء المشركين ، والآخر أنه كُفَّ بصرُه ؛ وفى هذا التبيان تقدير لهذا الصحابي المكفوف وتنويه به ؛ وحسان هو الذى قال له الرسول : « جبريل معينك » ، وقال : « أجب عن رسول الله ، اللهم أيِّده بروح القدس »[2] ، وقال : « اهجُهم وجبريل معك » ، وقال : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح عن رسول الله » .

* * *

---

(١) سورة النور ، آية ١١ .

(٢) روح القدس هو جبريل عليه السلام .

وهذا موقف لصحابى جليل فيه رقة مؤثرة مبكية . .

إنه الشاعر المخضرم[1] أمية بن الأشكر الكنانى الصحابى، من بنى ليث ، كان من سادات قومه ، وقد كف بصره ، وكان له ولد اسمه كلاب ، خرج باختياره فيما يظهر — على عهد عمر بن الخطاب — مع الجند الغازى مع أبى موسى الأشعرى ، واشتاق إليه أبوه أمية ، فأمر قائدَه أن يأخذ بيده إلى المسجد حيث يوجد عمر ، فلما صار أمامه أنشده الأبيات التالية :

أعاذلُ ، قد عذلتِ بغير قَدْرٍ ... وما تدرين عاذلُ ما أُلاقى

فإما كنتِ عاذلتى فرُدِّى ... كلابا إذ توجَّه للعراق

فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديدُ الركن فى يوم التلاقى

فلا وأبيك ما باليتَ وجدى ... ولا شغفى عليك ولا اشتياقى

وإيقادى عليك إذا شَتوْنا ... وضَمَّك تحت نحرى ، واعتناقى

فلو فلق الفؤادَ شديدُ وجد ... لهمَّ سواد قلبى بانفلاق

سأستعدِى على الفاروق ربًّا ... له عمد الحجيج إلى بُساق[2]

وأدعو الله محتسبا عليه ... ببطن الأخشبين إلى دفاق[3]

إنِ الفاروقُ لم يردُدْ كلابا ... على شيخين هامهما زواق[4]

---

(١) قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم ، لأنه أدرك الخضرمتين ، وأصل الخضرمة قطع طرف الأذن من الناقة ، ولما جاء الاسلام أمرهم النبى بتغيير موضع القطع .

(٢) الفاروق لقب عمر ، لأن الله أعز به الإسلام ، وفرق به بين الحق والباطل ، والبساق بوزن الغراب : جبل بعرفات ، وهو أيضا بلد بالحجاز .

(٣) الأخشبان : جبلا مكة ، أبو قبيس والأحمر ، وجبلا منى . ودفاق بوزن غراب : موضع أو واد .

(٤) الهام : جمع هامة ، والهامة طائر كان العرب يتوهمون أنه يطير فوق قبر الميت ، يطالب بدمه ، فيهتف : اسقونى اسقونى ، حتى يقتل قاتله ، ويقال : فلان هامة اليوم أو غد ، أى يموت =

فبكى عمر رضى الله عنه ، لأنه رأى والدا مكفوفَ البصر يفيض به وجده ، ويشتعل فى صدره شوقُه إلى ولده . ويعبر عن وجدانه بذلك الشعر البليغ المثير ؛ وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يطلب إليه أن يرد كلابا بسرعة إلى المدينة ، وفعل أبو موسى ، ولما دخل كلاب على عمر قال له أمير المؤمنين : مابلغ من بِرِّك بأبيك ؟ . قال كلاب : كنت أوثره[1] ، وأكفيه أمرَه ، وكنتُ إذا أردت أن أحلب له لبنا ، أجىء إلى أغزر ناقة فى إبله ، فأريحها وأتركها حتى تستقر ، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد . ثم أحلب له فأسقيه !!...

فاستبقاه عمر فى ناحية ، وبعث إلى أمية أبيه ، فجاء الشيخ الكفيف وهو يتهادى وقد انحنى ، ولم يخبره عمر أولا برجوع ابنه ، ولعله أخفى ذلك عنه قليلا لحاجة فى نفسه ؛ فلما صار الشيخ أمامه قال له عمر : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ ! ... أجاب أسيفا : كما ترى يا أمير المؤمنين . فقال عمر : هل لك من حاجة ؟ . قال : نعم ، كنتُ أشتهى أن أرى كلابا فأشمّه شمة ، وأضمه ضمة ، قبل أن أموت !! . .

وفاض التأثر بعمر فعاد إلى البكاء وقال : ستبلغ فى هذا ما تحب إن شاء الله تعالى ... ثم إن عمر أمر كلابا أن يحلب ناقة لأبيه كما كان يفعل ، وأمره أن يبعث بلبنها إليه ، ففعل ، وأخذ عمر الإناء وفيه اللبن ، وناوله لأمية قائلا : اشرب هذا يا أمية — وفى رواية : يا أبا كلاب ...

وأخذ أمية الإناء ، فلما أدناه من فيه هتف قائلا : والله يا أمير المؤمنين ،

= اليوم أو غداً والزواقى : جمع زاق ، والزاقى هو الطير الصائح . والمعنى أن الشيخين قاربا الموت وأنهما إذا ماتا كانا فى حكم القتيلين بسبب فراق ابنهما كلاب وسيكون لكل منهما هامة تزقو وتصيح مطالبة بدمه .

(١) أوثره : أفضله على نفسى .

إنى لأشم رائحةَ يدىْ كلابٍ فى الإناء ... وعاد عمر إلى البكاء ، وأمر بأن يأتى كلاب فأحضروه ، وقال عمر لأمية : هذا كلاب عندك ، وقد جئناك به ... فوثب إلى ابنه وضمّه ، وجعل يقبله ويشمه ، وجعل عمر والحاضرون يبكون !! ..

وقال عمر لكلاب : الزم أبويك . فلم يزل مقيما معهما حتى ماتا ! ...

يجب علينا أن نطيل الوقوف أمام هذه الصورة العاطفية المؤثرة .. فنحن نشهد فى هذا الكفيف الرقيق قوةَ عاطفة الأبوة ، ونشهد هذا التصوير الرائع منه لشوقه وحنينه إلى فلذة كبده كلاب ، ونشهد هذه الرقةَ الكريمة النبيلة من الفاروق عمر ، وهذا البكاءَ المتكرر منه مراتٍ ، وهو الصلب الشديد القوى ، ونشهد إعجاب عمر بإكرام الولد لأبيه المكفوف البصر ، ولذلك حَرَص عمر على أن يعيد الولدُ هذا الإكرامَ أمامه حتى تسعد به روحه ، ونشهد هذا الإحساسَ الدقيق من الوالد الكفيف ، حيث شمَّ رائحة ابنه فى الإناء بمجرد أن مسَّه بيديه أثناء الحلب[1] ، وهذا يدل على فطنة وذكاء ورهافة إحساس ؛ ونشهد عمر الخليفة ، وهو يمنع الولدَ من الخروج إلى الجهاد المفروض رعايةً لأبيه الكفيف ، وفى هذا ما فيه من تقدير للمكفوف وتيسير عليه !!. .

✡ ✡ ✡

وهذا موقف من مواقف المكفوفين فى السيرة ، نرى فيه عناية نبوية ، ورحمة محمدية بكفيف صحابى : إنه « فوَيْك » الصحابى ، قَدِمَ على رسول الله

---

(١) هذا يذكرنا بما كان من أمر يوسف وأبيه ، حين كف بصر أبي يوسف لفراقه وبكائه عليه ، فأرسل إليه يوسف بقميصه ، فأحس برائحته قبل أن يخبروه به ؛ يقول القرآن الكريم على لسان يوسف : « اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » إلى آخر الآيات .

صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً ، فسأله النبي عما أصابه ، فقال فويك : وقفتُ على بيضةِ حيَّةٍ فأُصيبَ بصري .

فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر ، فرُؤى وهو ابن ثمانين سنة يُدخل الخيطَ فى الإبرة ، وإن عينيه لمبيضتان[1] ...

وفى رواية عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عمَّن حدَّثه جاءت القصة بوجه آخر قريب ، هو أن حبيب بن فورك خرج به أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أصابه . فقال : إنى كنت أمونُ جملا لى ، فوضعت رجلى على بيضة حية ، فابيضَّت عيناى . فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر . يقول الراوى : فلقد أبصرته يُدخل الخيط فى الإبرة وهو ابن ثمانين !!...

وهذا موقف آخر قريب من السابق ، وإن لم يكن مع كفيف :

فى غزوة خيبر ، فى أواخر السنة السادسة من الهجرة ، استعصى على المسلمين فتح حصن من الحصون ، وبعث إليه النبيُّ أبا بكر برايته فقاتل

---

(١) قال أرسطو فى كتاب الحيوان : الخطاطيف إذا عمين أكلن من شجرة يقال لها : عين شمس ، فيبصرن بعد العمى . وهذه الشجرة لها منفعة فى العين التى لا تبصر ، والتى يخاف عليها من اجتماع الماء . قال : والحيات إذا ساخت فى الأرض أظلم بصرها ، فإذا خرجت الى الأرض طلبت الرازيانج (السمر) فمرت بعينها عليه ، فعندئذ ينقى بصرها من الظلمة .

قال الصفدى : الرازيانج هو السمر ، وينبغى أن يغسل قبل أكله فى أول دخوله لهذه العلة . والضب إذا خرج من جحره لا يبصر شيئاً إلى أن يستقبل الشمس فحينئذ يرى .

وفى كتاب (عجائب المخلوقات) للقزوينى : « رازيانج هو النبت المشهور منه برى ومنه بستانى ، رطبه يعقد اللبن ، ويدر الطمث والبول ويفتح السدد ، ويمنع من نزول الماء . والبرى يفتت الحصى ويمنع من الحميات العتيقة ، ويحلل الرياح ويحد البصر ، قال دفراطيس : إن الهوام ترعى الرازيانج الطرى ليقوى بصرها ، والحيات إذا خرجت من تحت الأرض وحكت أعينها استضاءت فسبحان من ألهمها ذلك » .

ولم يكن فتح ، وقد جهد فرجع ، ثم بعث النبي فى اليوم التالى عمر ، فقاتل ورجع وقد جَهِدَ ولم يكن فتح . . . فقال النبي : « لاعطين الراية غدا رجلا يحب اللهَ ورسولَه ، ويحبه اللهُ ورسوله ، ليس بفرّار ، ولا يولى الدبر ، فيفتح الله عز وجل عليه » !.

وفى الغد بعث إلى على ، وهو أرمد شديد الرمد ، فعقد له اللواء ، وقال له : سر . فقال على : يا رسول الله ، إنى أرمد كما ترى ، ما أبصر موضعَ قدمى . فتفل النبي فى عينيه فأبصر . قال على : فما رمدت بعدَ يومِئذ .

وعقد النبي له اللواء ، ودفع إليه الراية ، وقال على : عَلاَمَ أقاتلهم يارسول الله ؟. قال : على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها ، وحسابُهم على الله تعالى ...

فخرج على بالراية مهرولا ، وركزها تحت الحصن فى صخور عظام ، وتترس بباب فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فحاول ثمانية من الصحابة — كما رُوى — أن يقلبوه فلم يستطيعوا ...

٭ ٭ ٭

وفى غزوة أحد كان قتادة بن النعمان بن زيد الصحابى الأنصارى الظفرى البدرى المتوفى سنة ثلاث وعشرين ، يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوس ، حتى اندق طرفاها ، وظل ملازما للرسول ، وكلما وقع أمامه سهم تناوله ورمى به المشركين ؛ وأصابه سهم فى وجهه ، فخرجت بسببه عينه وسالت على خده ، فأخذها بيده ، وذهب إلى النبى بعد تفرق الجمع ، فردَّها النبي إلى مكانها ، ودعا ربَّه قائلا : « اللهم إن قتادة فدَى وجهَ نبيك بوجهه ،

فاجعلْها أحسنَ عينيه ، وأحدَّهما نظرا » .

فكانت أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظرا . . .

وفى رواية ابن الجوزى أن النبي صلوات الله عليه لما رآه وعينه فى يده قال له : ما هذا يا قتادة ؟ . قال : هذا ما ترى يا رسول الله . قال النبى : إن شئتَ صبرتَ ولك الجنة ، وإن شئتَ رددتُها ودعوتُ الله لك فلم تفقد منها شيئا . .

فقال قتادة : يا رسول الله ، إن الجنة لجزاءٌ جميل ، وعطاءٌ جليل ، ولكنى رجل مبتلًى بحب النساء ، وأخاف أن يقلن : أعور ، فلا يُرِدْنَنِى ؛ ولكن تردها إلىَّ ، وتسأل الله لى الجنة !! ...

فقال النبى : أفعلُ يا قتادة ! ... ثم أخذها النبى صلى الله عليه وسلم بيده ، وأعادها إلى موضعها ، فكانت أحسنَ عينيه إلى أن مات ، ودعا له بالجنة رضى الله عنه .

ويُروَى أن ابن قتادة هذا دخل على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأرضاه ، فقال له : من أنت يا فتى ؟ . فقال :

أنا ابن الذى سالت على الخدِّ عينُه ... فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسنَ الردِّ

فعادت كما كانت لأحسن حالها ... فياحسن ماعين ، وياطيب ماردِّ ! [1]

---

(١) ينسب البيتان للخرنق الأوسى ، وفى الأول رواية أخرى هى : « ومنا الذى سالت ، . . » إلخ . وقد قارن الصفدى بين حالة قتادة وحالة فويك السابقة بقوله : « ولاشك أن هذا أبلغ معجزاً من الحديث الأول ، فإن الأول فيه أن عينين كانتا قد ابيضتا ، فتفل فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبصرتا ، وهما أخف أمراً من عين سالت وصارت فى كف صاحبها ، وبانت عن مستقرها ، فيعيدها صلى الله عليه وسلم أحسن من أختها ، وأحد منها نظراً . لاشك أن هذا أبلغ » . نكت الهميان ، ص٣٨ .

فقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأرضاه : « بمثل هذا فليتوسلْ إلينا المتوسلون » . ثم قال :

تلك المكارم ، لا قَعبان من لبن   شِيبَا بماء ، فعادا بعدُ أبوالا !

ويحسن أن نورد الروايات التى ذكرها السيوطى فى كتابه « الخصائص الكبرى »[1] فى حادثة قتادة ، لنتبين ما بين هـذه الروايات من اتفاق أو اختلاف ، قال :

« وأخرج ابن عدى وأبو يعلى والبيهق ، من طريق عاصم بن عمر بن قتادة ، عن جدِّه قتادة بن النعمان ، أنه أصيبت عينُه يوم بدر ، فسالت حدقته على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا . فدعا به ، فغمز حدقتَه براحته ، فكان لا يدرى أى عينيه أُصيبت ! .

وأخرجه البيهق من وجه آخر عن قتادة مثله . وزاد بعد (براحته) : وقال : « اللهم اكسُه جمالا » .

وأخرج ابن سعد بن زيد بن أسلم أن عين قتادة بن النعمان أُصيبت ، فسالت على خدِّه ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فكانت أصحَّ عينيه وأحسنَهما .

وأخرج أبو نعيم من طريق عبد الله بن أبى صعصعة ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن أخيه قتادة بن النعمان قال : أصيبت عيناى يوم بدر ، فسقطتا على وجنتىّ ، فأتيت بهما النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فأعادهما مكانَهما ، وبزق فيهما ، فعادتا تبرقان ! ! . . .

(١) الخصائص الكبرى ، ج ١ ص ٢٠٤ و٢٠٥ . طبعة حيدر أباد الدكن .

وأخرج الحاكم والبيهقي وأبو نعيم ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع بن مالك ، عن أبيه ، قال : رُميت بسهم يوم بدر ، ففُقئت عيني ، فبصق فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا لي ، فما آذاني منها شيء » .

* * *

وإذا كان قتادة قد حَرَص على عينه لئلا يسوءَ منظرُه عند النساء ، فهناك من فضَّل الجنةَ على عينه ...

إنه أبو سفيان صخر بن حرب ، الذي أسلم يوم الفتح ، وكان شيخ مكة ورئيس قريش إذ ذاك ، وحسن إسلامه ، وتوفى بالمدينة سنة إحدى وثلاثين أو أربع وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وقيل : ابن بضع وتسعين سنة .

شهد غزوة الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرُمى يوم ذاك فندرت عينه[1] ، فقال له النبي وعينُه فى يده : أيما أحب إليك ، عينٌ فى الجنة ، أو أدعو الله أن يردها عليك ؟ . فقال : بل عين فى الجنة !! ..

ورمى بها مفضِّلا نعيمَ الله الباقى عليها .

وأصيبت عينُه الأخرى فى غزة اليرموك ، فبقى مكفوفاً ، وكان واعظ الجماعة ومحرِّضهم يوم اليرموك ، وكان يقول :

« اللهَ اللهَ عبادَ الله ... انصروا الله ينصركم . اللهم هذا يوم من أيامك . اللهم أنزل نصرك على عبادك . يا نصرالله اقتربْ ... يا نصر الله اقترب » .

وكانت امرأته هند فى هذه الغزوة فى صفّ النساء ، فقال أبو سفيان للنساء : « لا يرجع إليكن أحدٌ من المسلمين إلا رميتُنَّه بهذه الحجارة » . وكان النساء يقلن يومئذ : لستم بعولتَنا إن لم تمنعونا . أى لم تحفظونا وتدافعوا عنا . وعاد أبو سفيان يقول :

---

(١) أى سقطت .

« يا معشر المسلمين ، أنتم العرب ، وقد أصبحتم فى دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددُه ، شديد عليكم حنقُه ، وقد وترتموهم فى أنفسهم وبلادهم ونسائهم ؛ واللهِ لا ينجيكم من هؤلاء القوم ، ولا يبلغ بكم رضوانَ الله غدًا إلا صدقُ اللقاء ، والصبرُ فى المواطن المكروهة ... ألَا إنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم ، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبرارى ، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ، ورجاء ما وعد الله ، فهو خير معول ، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا ، ولتكن هى الحصون ...

يا معاشر أهل الإسلام ، حضر ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، وهذا الشيطان والنار من خلفكم ؛ اللهَ اللهَ !... إنكم دارة الإسلام وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يومٌ من أيامك ، اللهم أنزلْ نصرَك على عبادك[1] » !!

* * *

وهذا موقف لصحابى مكفوف ، فيه جرأة وإقدام ، وإيثار للعقيدة والإيمان على القرابة والنسب : إنه عمير بن عدى بن خُرشة الخطمى ، إمام بنى خطمة وقارئهم الكفيف ؛ يقال إنه شهد غزوة أُحد وما بعدها لأنه كان يرى بصيصاً ، ولكن أهل المغازى يقولون إنه لم يشهد أحداً ولا الخندق لكفِّ بصره ، وعلى كل حال فهو قديم الإسلام صحيح النية ، وحفظ طائفة من القرآن فسُمِّى « القارىء » .

وكان هو وخزيمة بن ثابت يكسران أصنام بنى خطمة ؛ وهو أول من أسلم من بنى خطمة ؛ وكانت هناك امرأة كافرة مشركة لعينة ، تُسمَّى عصماء بنت

---

(١) انظر كتاب : « أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح » للمؤلف ، ص ٥٤ .

مروان ـ ويقال إنها أخت عمير أو قريبته[١] ـ وكانت عند يزيد بن زيد بن حصن الخطمى ، وكانت فوق كفرها تعيب الإسلام ، وتؤذى الرسول عليه السلام ، وتسبُّه وتطعن فيه ، وتحرِّض عليه وتحض على الفتك به ، وتقول الشعرَ فى ذلك ، وتدبِّر المؤامراتِ له ، ولم تنته عن بغيها وغيِّها .

فسار إليها عمير بن عدى لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهرا من الهجرة ، بدون علم النبى فيما يظهر ، فجاءها فى جوف الليل ، ودخل عليها بيتَها ، وقتلها .

وعاد عمير فصلى الصبح مع النبى فى المدينة ، وأخبره بما فعل وسأله : هل علىَّ فى ذلك شىء ؟ . فقال النبى : لا ينتطح فيها عنزان ؛ فكانت هذه الكلمة أول ما سُمعت من النبى وقال له عمير : إنى لأتَّقى تبعةَ إخوتها . فقال له النبى : لا تخفهم وسماه النبى : عمير البصير[٢] !!...

وربما سوَّلت نفسُ امرىء له أن يحسب هذا التصرفَ قسوة ، والعقاد فى كتابه « عبقرية محمد » يرد على مثل ذلك الحسبان بقوله :

« واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام ، وكان يقول إنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام .

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهِّرون به وبالإسلام ، أو يثيرون العشائرَ لقتاله ، ويُقذعون

---

(١) انظر نكت الهميان .

(٢) بعض الباحثين ينكر تلك الحادثة ، وبعض المغرضين يشوهها ويتزيد فيها .

فى هجوه وهجو دينه ، فينفذ إليهم من يحاربهم فى حصونهم ، أو يتكفل له بالخلاص منهم .

وعاب هذا بعضُ المغرضين من الكتَّاب الأوربيين ، وشبّهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان ، وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمِّه ، ويستهوى الأسماع بسحر حديثه .

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام إنما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وإنما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك ، أو بين الإلهية والوثنية ، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان .

فليس فى حالة سلمٍ مع النبى إذن مَنْ يحاربه فى صميم الدعوة الدينية ، ويقصده بالطعن فى لباب رسالته الإسلامية ، وإن لم ينفر الناس لقتله ولم يحرضهم على النكث بعهده ، وإنما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود[1] » .

* * *

وهذا موقف لصحابى مكفوف فيه تضحية لوجه الله تبارك وتعالى :

هو أبو أحمد عبد الله بن جحش بن رئاب الكفيف ، كان من سابق المهاجرين وطليعتهم ، وكان له مع أسرته دار فى مكة ، فعدا عليها أبو سفيان

---

(١) عبقرية محمد ، ص ٦٧ ، ٦٨ . الطبعة الثالثة .

واغتصبها ، مع أن أبا أحمد كان متزوجاً من أخت أبي سفيان ، فشكا عبد الله ذلك حينما بلغه إلى النبي ، فقال له : ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً فى الجنة خيراً منها ؟ . قال : بلى . فقال النبي : فذلك لك !!...

ومرت الأيام ، وعزَّ أبناءُ الإسلام ، وفتح الله عليهم مكة ، وانتصف الضعفاء لأنفسهم بحق ومعدلة ، فكلم أبو أحمد النبيَّ فى موضوع الدار ليردَّها عليهم ، فأبطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وكأنه أراد أن يبقى أبو أحمد على رأيه من تفضيل ما عند الله من دار فى الجنة ، فذلك خير وأبقى . فقال الناس لأبي أحمد : يا أبا أحمد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن ترجعوا فى شىء أصيب منكم فى الله . . . فأمسك أبو أحمد عن الكلام فى الموضوع ، ورضى بما عند الله ، ولعله سأل الدارَ بعد الانتصار ظنا منه أن ذلك لا يعارض انتظارَه رضوانَ ربِّه ونعيمَه يوم الجزاء ...

* * *

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر من الحديث له صلة بالموضوع ...

ننتقل إلى استعراض طائفة من المواقف لطائفة من الصحابة الأكرمين رضوان الله عليهم أجمعين ، وهذه الطائفة قد أُصيبت بنوع من العجز الحسى ، فلم يمنعهم ذلك أن يؤدوا واجبهم ، ولم يصدهم عن أن يقوموا برسالتهم فى هذه الحياة ؛ وأعتقد أن ذلك يزيدنا اقتناعا بأن العجز الحسى — ككف البصر أو العرج — يجب أن لا يمنع أحدا عن أداء مهمته فى هذه الحياة قدر الطاقة . . .

نحن نرى مثلا أنه فى غزوة بدر الكبرى قد اشترك الصحابى الجليل معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بنى سلمة ، وسمع همساً بأن أبا جهل المشرك

لا يستطيع أحد أن يخلص إليه ، لاحتراسه واحتياطه ، قال معاذ : فلما سمعتُها جعلتُه من شأنى ، فصمدتُ[١] نحوه ، فلما أمكننى حملت عليه ، فضربتُه ضربةً أطنَّت[٢] قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى[٣] حين يكسر بها .

وجاء عكرمة بن أبى جهل عندئذ ، وضرب معاذاً ضربة قطعت يده ، ولكنها ظلت متعلقة بجلدة من جسمه ، فظل يقاتل طول اليوم وهو يسحبها ، حتى تعب منها وآذته كثيرا ؛ فماذا يصنع وهو يريد مواصلة الجهاد ؟ . . .

وضع يدَه تحت قدمه ، وتمطى عليها فى عزم وتصميم وثبات حتى فصلها عن جسمه ، وواصل الجهاد بدونها !...

ويقول ابن وهب فى روايته : « وجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلصقت » .

قال ابن إسحق : ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان ! .

* * *

وهذا موقف لعاجز عجزا حسيا على عهد الرسول صلوات الله عليه ، أبى أن يستنيم لهذا العجز ، فبذل جهده حتى آخر رمق فى حياته ؛ وهو جندع ابن ضمرة الليثى .

نزل قوله تبارك وتعالى فى سورة النساء : « إن الذين توفاهم الملائكةُ ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعَفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت

---

(١) توجهت إليه .　　(٢) قطعت .
(٣) المرضخة : الآلة التى نرضخ بها النوى ، أى نكسره بها (المكسرة) .

مصيرا ، إلا المستضعَفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عَفُوًّا غفورا » وكان ذلك بعد هجرة الرسول إلى المدينة .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات إلى مكة ، فتُليت على المسلمين الذين كانوا فيها ، فسمعها جندع بن ضمرة الليثى ، وهو رجل من بنى ليث ، كان شيخا كبيرا مريضا مقعدا ، فقال : والله ما أنا ممن استثنى الله ، فإنى لأجد حيلة ، ولى من المال ما يبلغنى إلى المدينة وأبعد منها ، والله لا أبيتن بمكة ، أخرجونى ! ..

فخرجوا به على سرير ، حتى أتوا به التنعيم [١] ، فأدركه الموتُ قبل أن يبلغ المدينة ويُتم الهجرة ، فصفّق بيمينه على شماله ، وقال : اللهم هذه لك ، وهذه لرسولك ، اللهم إنى أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ! ...

ثم مات فبلغ خبرُه أصحابَ رسول الله عليه صلوات الله ، فقالوا : لو وافَى المدينةَ لكان أتمَّ وأوفى أجرا ، وضحك منه المشركون ، وقالوا : ما أدرك ما طلب ! ...

فنزل قوله عز وجل : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُرَاغَمًا كثيرا وسَعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما » .

ونحن نرى هنا كيف لم يستسلم جندع لنقصه الحسى الذى أصابه ، بل حاول أن يتغلب عليه ، وأن يبلغ ما يريد ، ويجب أن نتذكر تلك اللذة

---

(٢) التنعيم : مكان عند طرف حرم مكة من جهة المدينة والشام، على ثلاثة أميال ، وقيل أربعة سمى بذلك لأن عن يمينه جبلا يقال له نعيم ، وعن شماله جبلا يقال له ناعم ، والوادى يسمى نعمان .

النفسية العجيبة التى يشعر بها الإنسان وهو يحاول ويجاهد للوصول إلى هدفه، مع قلة وسائله وأسلحته.

* * *

وهذا موقف لصحابى أعرج يسبق سواه :

إنه عمرو بن الجموح الصحابى الأنصارى السلمى، من بنى جشم بن الخزرج، شهد العقبة، وروى بعضهم أنه شهد بدرا، ورُوى أن الرسول قال لنفر من بنى سلمة : سيدكم عمرو بن الجموح. وكان شريفا من أشراف العرب، وقد أخبر النبىّ أنه من أهل الجنة.

وكان عمرو رجلاً أعرجَ شديد العرج، وكان له أولاد أربعة كالأسود، يقاتلون مع النبى، ويشهدون معه المشاهد، فلما كان يوم أُحد أراد الخروج إلى الجهاد، وأراد أولادُه منعَه، فأتى النبىَّ فقال له. إن بَنِىَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه (أى الغزو) والخروجِ معك فيه، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة !!..

فقال له النبى : أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك. وقال النبى لأولاده : ما عليكم ألاَّ تمنعوه، لعل الله يرزقه شهادة.

وخرج عمرو حاملا سلاحه، فلما أراد أن يتوجه نحو الميدان أقبل على القبلة ودعا قائلا : «اللهم ارزقنى الشهادة، ولا تردنى إلى أهلى خائبا». وجاهد حتى استشهد فى غزوة أحد، فقال فيه الرسول صلوات الله عليه : «والذى نفسى بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ فى الجنة بعرجته».

واستشهد معه فى المعركة صديقه الحميم عبد الله بن عمرو بن حرام،

وأراد النبى أن يكرمهما حتى فى الدفن ، فقال : ادفنوا عبد الله بن عمرو مع عمرو ابن الجموح فى قبر واحد ؛ لما كان بينهما من الصفاء ، فحفر عنهما وعليهما نمرتان[1] ، وعبد الله قد أصابه جرح فى وجهه ، فيده على جرحه ، فأُميطت يده عن وجهه ، فانبعث الدم ، فرُدَّت إلى مكانها فسكن الدم !!...

والطريف هنا هو أن عمرو بن الجموح قد اتخذ من عرجته ـ وهى مظنة عجزه واستحيائه ـ سبباً للمفاخرة ، وموضعاً للحديث عن دخوله الجنةَ بها ، فهو يريد أن يطأ « بعرجته هذه » فى الجنة !...

* * *

وهناك من كان يتمنى ألواناً من العجز الحسى فى ميدان الجهاد ؛ فهذا أبو محمد عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى الصحابى ، السابق إلى الإسلام ، صاحب الهجرتين ـ وهو أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين ، وأخو أبى أحمد الذى ذكرناه سابقا ـ[2] يلتقى مع سعد بن أبى وقاص يوم أُحد ، فيقول أبو محمد لسعد : ألا تأتى ندعو الله ؟ ... فخلوَا جانبا ، فدعا سعد فقال :

« يا ربِّ ، إذا لقيتُ العدوَّ غدا فلقِّنى رجلا شديدا بأسُه ، شديدا حَرَدُه[3] ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم ارزقنى عليه الظفر ، حتى أقتله وآخذ سَلَبَه » ! ... فأمَّن عبد الله بن جحش على هذا الدعاء ، ثم دعا هو فقال : « اللهم ارزقنى غدا رجلا شديدا بأسُه ، شديدا حرده ، أقاتله فيك ، ويقاتلنى فيقتلنى ، ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأُذنى ، فإذا لقيتُك قلتَ : يا عبد الله ،

---

(١) النمرة : الشملة المخططة ، كأنها من لون النمر ، لما فيها من السواد والبياض .

(٢) انظر صفحة ١٧٦ من هذا الكتاب . (٣) حرد : غضب .

فيم جُدع أنفك وأُذنك ؟ فأقول : فيك وفى رسولك، فيقول الله : صدقت !...

قال النووى فى « تهذيب الأسماء » عن عبد الله : « واستشهد يوم أحد ، وكان من دعائه يوم أحد أن يقاتل ويستشهد ، ويُقطع أنفُه وأذنه ، ويمثّل به فى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب الله دعاءه واستشهد ، وعمل به الكفار ذلك ، وكان يقال له المجدَّع فى الله تعالى ، وكان عمره حين استشهد نيفا وأربعين سنة . ودفن هو وخاله حمزة بن عبد المطلب فى قبر واحد رضى الله عنهما » .

وقال سعد بن أبى وقاص : « كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتى ، لقد رأيته آخر النهار ، وإن أذنه وأنفه معلقان فى خيط » !...

ورُوى أن عبد الله بن جحش هذا انقطع سيفُه يوم أُحد ، فأعطاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عرجون[1] نخلة ، فصار فى يده سيفا يقال إن قائمه منه ، وكان يسمى العرجون ، ولم يزل يُتناقَل حتى بيع من « بغا التركى » بمائتى دينار ... ووَلِىَ رسول الله تركةَ عبد الله بن جحش ، واشترى لابنه مالا (أرضاً) بخيبر !...

وفى عبد الله بن جحش وأمثاله من الشهداء قال النبى صلوات الله عليه : « أنا شهيد على هؤلاء ، وما من جريح يُجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحُه ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » !...

وقال فيهم : « زمِّلوهم بجراحهم ، إنه ليس مكلوم يكلم فى الله تعالى إلا وهو يأتى يوم القيامة لونه لون دم ، وريحه ريح مسك » !...

* * *

(١) العرجون بضم العين ، ويسمى العذق والقنو ، هو أصل الغصن الذى يكون فيه البلح إذا يبس واعوج ، وفى القرآن الكريم : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

وهذا صحابى جليل يحاول تحدى العجز فى الحواس بصورة تجعلنا نحرِّض المكفوفين على عدم الاستنامة لهذا النقص الحسى ، بل يجب عليهم أن يبذلوا جهدهم ، ويأخذوا نصيبهم من الحياة ، برغم هذا النقص الحسى القليل :

إنه الجواد أبو الجواد جعفر بن أبى طالب الهاشمى الطيار ، ذو الجناحين وذو الهجرتين ؛ ومن متقدمى الإسلام ، وكان هو وأصحابه سببَ إسلام النجاشى ، واعتز المسلمون فى الحبشة بجعفر ، واعتضدوا به ، وكان جعفر أميرهم فى هذه الهجرة ... وقد أمَّره النبى على جيش غزوة « مؤتة[1] » بعد زيد بن حارثة ، فلما استشهد زيد تناول الراية جعفر ، وقاتل بها حتى ألحمه القتال ، فنزل عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم راجلا ، وتناول اللواء بيمينه فقاتل حتى قُطعت يمينُه ، فأخذه بيساره حتى قُطعت يساره ، فاحتضن الراية بعضديه فطُعن فيهما ...

ومن يدرى ، لعله حاول إمساك اللواء برجليه ، فطعنتا كذلك !!...

وظل جعفر يقاتل حتى قُتل وعمره ثلاث وثلاثون ، أو أربع وثلاثون ، سنة ثمان للهجرة .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال : « كنت فى غزوة مؤتة ، فالتمسنا جعفرا فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا فى جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » . وفى رواية للبخارى أيضاً : فعددتُ به خمسين من طعنة وضربة ليس فيها شىء فى دبره ـ أى خلفه أو ظهره ـ وذلك كناية عن عدم الفرار .

وقال الرسول فى جعفر : « إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء » . وقال : « رأيت جعفرا يطير فى الجنة مع الملائكة » . وكان ابن

(١) مؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام ، وكانت هذه الغزوة سنة ثمان للهجرة .

عمر إذا سلم على ابن جعفر قال له : « السلام عليك يا ابن ذى الجناحين »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُثل لى جعفر وزيد وابن رواحة فى خيمة من دُرّ ، كل واحد منهم على سريره ، فرأيت زيداً وابنَ رواحة فى أعناقهما صدود ، ورأيت جعفراً مستقيما ليس فيه صدود ، فسألتُ أو قيل لى : إنهما حين غشيهما الموت أعرضَا ، أو كأنهما صدّا بوجوههما ، وأما جعفر فإنه لم يفعل » !!..

وإنما سقنا هذه المواقف للذين أصابهم نوع من النقص الحسى ، ومع ذلك لم يبالوا به ، بل حاولوا التغلب عليه ، وصمموا على أن يؤدوا واجبهم بكل ما استطاعوا ، لنعطى المكفوفين الذين أصابهم نوع من النقص الحسى بفقد بصرهم أمثلةً تحرضهم على الإقدام والتغلب على هذا النقص ، وبذلك يؤدون واجبهم حسب طاقتهم فى هذه الحياة ...

كفيف يرتد بصيرا ...

قصة يوسف وغيابه عن أبيه قصة معروفة مشهورة ، تكفل القرآن الكريم بقصِّها فى تفصيل وإيضاح ...

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة يوسف فى شأن أبيه يعقوب عليهما السلام : « وتولَّى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين »[1] .

ثم يقول على لسان يوسف مخاطبا إخوته : « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأْتونى بأهلكم أجمعين » . ويقول : « ولما فصلت العيرُ قال أبوهم إنى لأجد ريحَ يوسف لولا أن تفنِّدون ، قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ، قال سوف أستغفر لكم ربِّى إنه هو الغفور الرحيم»[2] .

* * *

هذا نبى مكفوف البصر يرتد إليه بصره بفضل الله وقدرته ، وليست هذه هى المرة الفريدة التى يحدثنا القرآن الكريم فيها عن ارتداد البصر إلى الذين فقدوه ، فإنه يحدثنا بمثل هذا عن عيسى عليه السلام : « أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً

---

(١) كظيم : مملوء من الغيظ على أولاده ، ممسك له فى قلبه لا يظهره . تفتأ : أى لا تزال تذكره تفجعاً عليه . حرضاً : أى مريضاً مشفياً على الهلاك .

(٢) العير : القافلة للتجارة . تفندون : أى تنسبونى إلى الفند ، وهو نقصان العقل الذى يحدث من الهرم .

بإذن الله ، وأُبْرئ الأكمهَ والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين »[١] .

جاء فى تفسير المنار[٢] :

« ومقتضى مذهب الصوفية أن روحانية عيسى كانت غالبةً على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين ، لأن أمه حملت به من الروح الذى تمثل لها بشرا سويا ، فكان تجرده من المادة الكثيفة للتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه ، وبذلك كان إذا نفخ من روحه فى صورة رطبة من الطين تحلها الحياة حتى تهتز وتتحرك ، وإذا توجه بروحانيته إلى روح فارقت جسدها أمكنه أن يستحضرها ويعيد اتصالها ببدنها زمناً ما .

ولكن روحانيته البشرية لاتصل إلى درجة إحياء من مات فصار رميما ، ويؤيد ذلك ما ينقله النصارى من إحياء عيسى للموتى ، فإنهم قالوا إنه أحيا بنتاً قبل أن تُدفن ، وأحيا اليعازر قبل أن يبلى ، ولم ينقل أنه أحيا ميتاً كان رميما .

وأما إبراء الأكمه والأبرص بالقوة الروحانية فهو أقرب إلى ما يعهد الناس ، لا سيما مع اعتقاد المريض . ويقول مجاهد : إن الأكمه من لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمشهور أنه من وُلد أعمى . وأما الإخبار ببعض المغيَّبات فقد أُوتيه كثير من الأنبياء ، وممن دون الأنبياء » .

ونعود إلى قصة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام ...

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤٩ . (٢) تفسير المنار ، ج ٣ ص ٣١٢ .

يقول القرآن الكريم : « وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » .

أى أعرض يعقوب عن أبنائه حينما أخبروه أن ولده الثانى بنيامين قد بقى عند عزيز مصر ، بعد أن احتال يوسف لذلك بالحيلة الواردة فى السورة ؛ واكتمل بذلك حزن يعقوب ، وبلغ جهده ، وجدَّد الله مصيبته فى يوسف ، فقال : « يا أسفا على يوسف » !... أى يا حزناه ، لأن الأسف شدة الحزن .

« وابيضت عيناه من الحزن » قيل إنه لم يُبصر بهما ستَّ سنين ، وأنه كُفَّ بصره ، قاله مقاتل . وقيل قد تبيضُّ العينُ ويبقى شىء من الرؤية ، وإنما ابيضت عيناه من البكاء بسبب الحزن[1] .

والعَبْرة إذا كثرت محقت سوادَ العين ، وقلبته إلى بياض كدِر ؛ والابيضاض كناية عن كفِّ البصر ، فيكون قد ذهب بصره ، وقيل إن بصره لم يذهب كلية ، بل ضعف ضعفاً شديداً .

وكان منذ خرج يوسف من عند يعقوب إلى يوم رجوعه ثمانون سنة ، لم يفارق الحزنُ قلبَه ، ودموعُه تجرى على خديه ، ولم يزل يبكى حتى ذهب بصره ، وما على الأرض يومئذ أكرم على الله منه

والظاهر أن يعقوب عليه السلام لم يحدث له هذا الأمر عند الحادث الأخير ، وهو ضياع بنيامين منه ، فقد رُوى أن جبريل زار يوسف فى السجن ، فقال له يوسف : أيها الملَك الكريم على ربِّه ، هل لك علم بيعقوب ؟ . قال : نعم ، ابيضت عيناه من الحزن عليك . قال يوسف : فما بلغ

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ٩ ص ٢٤٧ .

من الحزن ؟ . قال : حزن سبعين مثكلة . قال : هل له على ذلك أجر ؟ . قال : أجر مئة شهيد[١] ...

ويروى القرطبي أن يعقوب كان يصلى ، ويوسف نائم معترض بين يديه فغطّ يوسف فى نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غطَّ ثانية فالتفت إليه ، ثم غط ثالثة فالتفت إليه سروراً به وبغطيطه ، فأوحى الله تعالى إلى ملائكته ؛ « انظروا إلى صفيِّ وابن خليلى قائماً فى مناجاتى يلتفت إلى غيرى ؛ وعزتى وجلالى لأنزعن الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقن بينه وبين من التفت إليه ثمانين سنة ، ليعلم العالمون أن من قام بين يدىَّ يجب عليه مراقبة نظرى » ‎!!... هكذا يروى ‎!! .

والالتفات فى الصلاة نقص فيها يعاقَب الإنسانُ عليه من ربه ، ولذلك جاء فى البخارى عن عائشة : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد .

* * *

وإنما حزِن يعقوب هذا الحزنَ البليغ على ابنه لأنه خاف على دين يوسف حينما علم بحياته ، أو حزن لأنه سلَّمه إليهم صغيرا فندم على ذلك . أو لأنه ابنه وهذا يكفى ؛ والحزن ليس محظورا ، وإنما الممنوع الولولة وشق الثياب والكلام بما لا ينبغى ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » ! ...

ثم تمضى السورة فى قصِّ ما حدث :

---

(١) تفسير الآلوسى ، ج ٤ ص ١٠٠ .

« قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضاً أو تكون من الهالكين ، قال : إنما أشكو بَثِّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بَنِىَّ اذهبوا فتحسسوا من يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسَّنا وأهلَنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مُزْجاة[1] فأوفِ لنا الكيلَ وتصدَّقْ علينا إن الله يجزى المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أإنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى ، قد منَّ الله علينا ، إنه من يتَّق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ؛ قال : لا تثريب[2] عليكم اليومْ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا بقميصى هذا فألقوهُ على وجه أبى يأتِ بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين » .

كان الله سبحانه قد أعلم يوسفَ عليه السلام أن قميصه يردُّ على أبيه بصَره ، ويقال : إن هذا القميص هو قميص إبراهيم الذى ألبسه الله إياه وهو فى النار بعد ما ألقاه الكفار فيها ، وهو من حرير الجنة ، وكان قد كساه إسحقَ ، وإسحقُ كساه يعقوبَ ، ويعقوبُ وضعه فى قصبة من فضة ، وعلَّقه فى عنق يوسف تبركا ولما كان يخاف عليه من العين ، وأخبره جبريل بأن هذا القميص فيه ريح الجنة ، وريح الجنة لا يقع على مريض أو لديغ أو مبتلًى إلا عُوفِىَ وسَلِم .

وقيل إن القميص الذى بعث به يوسف هو القميص الذى قُدَّ من دُبر

(١) مزجاة : قليلة رديئة ، يردها الناس ويدفعونها لعدم رغبتهم فيها .
(٢) لا تثريب عليكم : أى لا تأنيب منى لكم .

فى موقفه مع امرأة العزيز ، ليعلم يعقوبُ بذلك أن ابنه يوسف قد عُصِمَ من الفاحشة ، والقول الأول أصح

وفى تفسير الآلوسى[1] : « وقال الإمام : يمكن أن يقال لعلَّ يوسفَ عليه السلام علم أن أباه ما عَرَا بصرَه ما عراه إلا من كثرة البكاء وضيق القلب ، فإذا أُلقى عليه قميصُه فلا بُدَّ وأن ينشرح صدره ؛ وأن يحصل فى قلبه الفرحُ الشديد ، وذلك يقوىِّ الروحَ ويُزيل الضعفَ عن القُوَى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فذلك القدر مما يمكن معرفته بالعقل ، فإن القوانين الطبية تدل على صحته » .

وقيل إن الذى حمل القميص هو يهوذا ، وقد قال ليوسف : « أنا الذى حملتُ إليه قميصك بدم كذبٍ فأحزنتُه ، وأنا الذى أحمله الآن لأسُرَّه ، وليعود إليه بصرُه » !!...

قال الله تعالى : « ولما فصلت العير قال أبوهم : إنى لأجد ريحَ يوسف لولا أن تفنِّدون ، قالوا : تالله إنك لفى ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيرا ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله ما لا تعلمون » ؟ .

خرجت القافلة من مصر إلى الشام . فقالت يعقوب لمن حوله : إنى لأجد ريحَ يوسف ؛ لأن الريح هبت فحملت رائحةَ قميص يوسف إليه ؛ قيل : وبينهما مسيرة ثمان ليال أو عشر أو شهر ، بحسب اختلاف الوسائل ، وقُدِّرت المسافة بنحو ثمانين فرسخا .

وقال مالك : إنما أوصل ريحَه مَنْ أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد

(٣) تفسير الآلوسى ، ج ٤ ص ١١٠ .

إلى سليمان عليه السلام طرفُه . وقال مجاهد : هبت ريح فصفَقت القميص (أى قلبته يمينا وشمالا) فراحت روائحُ الجنة فى الدنيا ، واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أن ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : إنى لأجد ريح يوسف ! ...

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » . أى ألقاه على عينيه، والبشير كما سبق هو يهوذا ، قال لإخوته : لقد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص الترحة ، فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة . . .

وقال سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أى دين تركت يوسف ؟ . قال : على الإسلام . قال : الآن تمت النعمة . وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد يعقوبُ عنده شيئاً يثيبه به ، فقال : والله ما أصبت عندنا شيئاً ، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليال ، ولكن هوَّن الله عليك سكراتِ الموت ! ... وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز ! ...

جاء فى « نكت الهميان »[١] للصفدى :

« قال حُذَّاق الأصوليين إن العمى لا يجوز على الأنبياء ، لأن مقام النبوة أشرف من ذلك . ومنعوا من عمى شُعيب وإسحاق ، وقالوا : لم يَرِد بذلك نص فى القرآن العظيم ، ليكون العلم بذلك قطعيا ؛ وأُورد عليهم قصة يعقوب عليه السلام : « وابيضت عيناه من الحزن » فهذا صريح ، وقوله تعالى : « فارتد بصيرا » . وبياض العين لا يكون إلا بذهاب السواد ، ومتى فُقد السواد حصل العمى ، والارتداد لا يكون إلا عوداً إلى الحالة الأولى ، والحالة الأولى كان فيها بصيرا ، فدلَّ على أن الحالة التى ارتد عنها كان فيها أعمى.

---

(١) ص ٤٢ — ٤٤ .

وأجاب المانعون بأن قوله : « ابيضت عيناه » كناية عن غلَبة البكاء وامتلاءِ العين بالدموع ، كما قال الشاعر :

وقفتُ كأنى من وراء زجاجة　　إلى الدار من فَرْط الصَّبابة أنظرُ

فعيناى طَوْرًا تَغرقان من البكا　　فأغشى، وطورا يحسران فأُبْصر !

فهذا الشاعر ادَّعى أن عينيه إذا غرقتا من البكاء صار أغشى ، فلا يرى بهما شيئاً ، وإذا غدرت الدموع عاد إلى الإبصار . وقوله : « من وراء زجاجة » كناية عن غلبة الدموع ، لأن الدموع تكون بجمودها فى عينه كالزجاجة التى تغطِّى بصره، وهى متى كانت كذلك كانت بيضاء ، فهذا مثل قوله تعالى : « وابيضت عيناه من الحزن » فلا يدل ذلك على العمى قطعا .

وقوله تعالى : « فارتد بصيرا » ذهب جماعة من المفسرين إلى أنه قد عمى بالكلية ، وقالت جماعة : بل كان قد ضُعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان ، فلما ألقوا القميص وبشروه بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحُه ، وانشرح صدره ، وزالت أحزانه ، فعند ذلك قوى ضوء بصره ، وزال النقصان عنه . وهذا الذى يليق بجناب النُّبوة المعظمة ، وهو أن يكون النبى سليم الأعضاء صحيح الجوارح ، كامل الخَلْق ، بريا من العاهات ، معتدل المزاج . ومن هنا قال الفقهاء : لا يجوز أن يكون الإمام أعمى . والصحيح من مذهب الشافعى رضى الله عنه أن القاضى لا يكون أعمى ، وفى المذهب وجهٌ فى جوازه مبنىٌّ على أن عَمى شعيب وغيره من الأنبياء صحيح ؛ قيل : ومقام النبوة أشرف من مقام القضاء » .

* * *

ماذا نستفيد من قصة يعقوب وارتدادِ بصره إليه ؟!...

نستفيد أن الحزن يؤدى إلى كفِّ البصر أحيانا ، أو إلى إضعافه على الأقل ، فيجب أن نتجنب أسبابَ الحزن ما استطعنا ، وأن نجنِّب غيرنا هذا الحزنَ حتى لا نجنى على سلامة العيون !.

ونستفيد أن السرور والبهجة مما يحفظ البصر ، فيجب أن نأخذ حظنا القويم من السرور والبهجة ، ويجب أن نتيح لسوانا فرص السرور والانشراح ، حتى لا يكون الحرمان من البهجة سبباً لضياع الأبصار .

ونستفيد أن المكفوف قد تتوافر له حساسية دقيقة بالغة ، فهذا يعقوب عليه السلام قد أحس بقميص ابنه من مسافة بعيدة ، واستطاع أن يشم ريح القميص بصورة مثيرة للدهشة ؛ وقد يكون من الممكن استغلال مثل هذه الحساسية عند النابغين من المكفوفين بطريقة تنفعهم وتنفع مجتمعهم .

ونستفيد أن كف البصر قد أصاب الأنبياء ، وهذا هو الواضح الملائم لظاهر التعبير القرآنى ؛ ومقام النبوة مقام شريف كريم . فكأن كف البصر ليس عيبا قادحا فى كرامة الشخص ، وإلا لما أصيب به الأنبياء .

ونستفيد أن إيجاد السرور والبهجة بقوة يرد ضعف البصر قوة ، بل رأيناه مع يعقوب يرد البصر كاملا بعد فقده ، وربك يفعل ما يشاء ويختار ..

عطف كريم

١ — المركز النموذجي لتدريب المكفوفين .

٢ — جمعية الضياء للرقي بالمكفوفين .

٣ — جمعية النور للنهضة بمكفوفي البصر .

٤ — الجمعية المصرية لرعاية العميان .

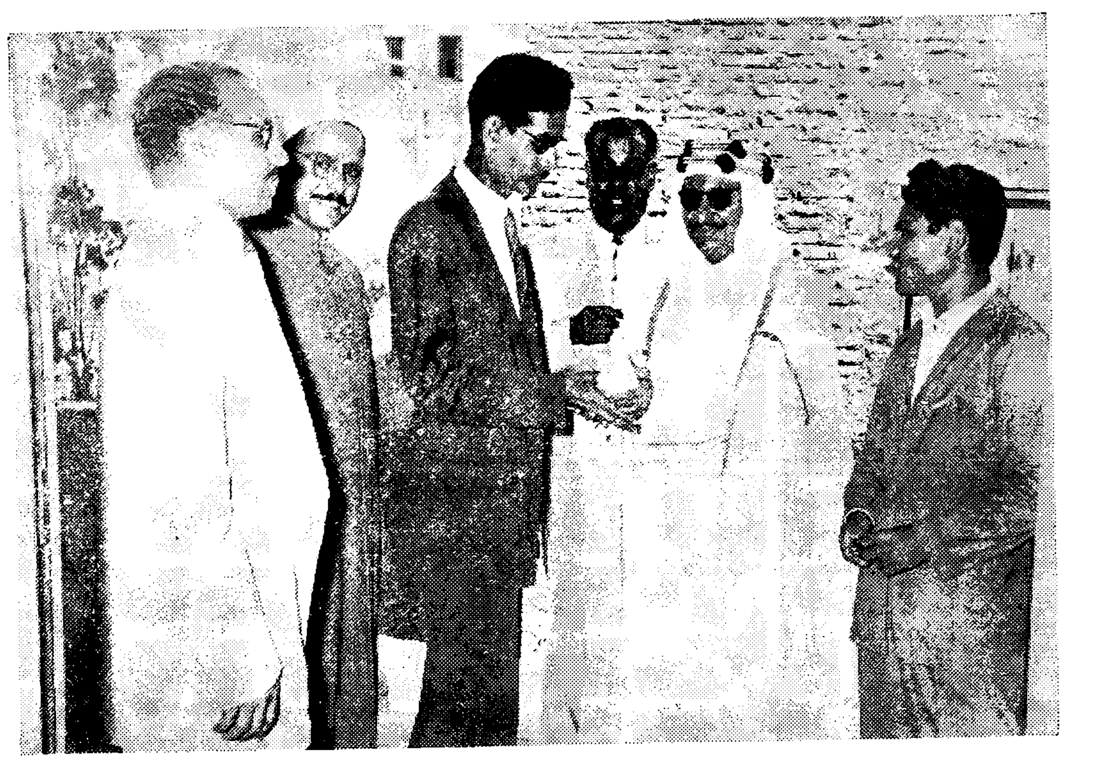
٥ — جمعية مساعدة الضريرات .

٦ — معهد الكفيفات المسيحيات .

* * *

في اليومين السابع والثامن من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٥ م ، تفضل سمو الأمير الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف والمحاكم والأوقاف في الكويت ، بزيارة هذه الجمعيات في القاهرة وضواحيها ؛ وتبرع لكل جمعية منها بمبلغ مائة جنيه ، وكان بصحبته مؤلف الكتاب .

وهذه فيما نعلم أول مرة يزور فيها أمير عربي كريم أمثالَ هذه الجمعيات المحتاجة إلى الرعاية والمعاونة ، ويتبرع لها بمثل هذا المبلغ ، ويكون لزيارته أَثر حميد . كما أظهر سموه الحرصَ النبيلَ على نشر البحوث الدائرة حول المكفوفين ؛ فاستوجب بذلك الشكرَ له من المكفوفين ، ومن الذين يُعْنَوْن بالمكفوفين ، والله خيرُ الشاكرين .



سمو الأمير عبد الله الجابر الصباح وهو يقدم تبرعه لرئيس جمعية من جمعيات المكفوفين ،
وقد ظهر فى الصورة مؤلف الكتاب ، والسيد عبد اللطيف الشملان مدير بيت الكويت بمصر



سمو الأمير عبد الله الجابر الصباح وهو يقدم تبرعه لرئيس جمعية أخرى من جمعيات المكفوفين ، وقد وقف بينهما المؤلف ، كما ظهر فى الصورة السيد عبد اللطيف الشملان .

عينا أرليت[1]

بقلم آنه مارى ديلوررد نيسنا

وُلدت أرليت بعينين جميلتين ، ما كادت تفتحهما لترى الضوءَ لأول مرة حتى صاح أهلها قائلين : ياجمال عينيها !...

وشبت أرليت ، وهى تسمع الثناءَ على جمال عينيها ، حتى أصبحت مؤمنةً فى قرارة نفسها بأن عينيها هما سر كيانها ...

وراحت أرليت تستغل ما حبتها به الطبيعة من جمال فى عينيها ، فأخذت تتعالى على زميلاتها فى المدرسة ، وتقف مواقفَ مصطنعة لإظهار سحر عينيها. ولم تقتصر تصرفاتها هذه على المدرسة ، بل كانت من خصائصها فى البيت ، وفى البيئة المحيطة بها ...

واشتهرت أرليت بين الجميع بعينيها الجميلتين ، وأصبحت تعتقد أنَّ من حقها ، ومن واجب كل من يتصل بها ، أن يُشِيد أمامها بجمال عينيها . وشجعها أهلها على ذلك ، حتى أصبح من المؤلم نفسياً لها أن يقابلها شخصٌ دون أن يحدثها أولا عن جمال عينيها ...

وكان لأسرة أرليت قريب اسمه سيلفان ، وكان يشتغل مدرسا ، وكان يكبر أرليت بأكثر من ١٠ سنوات .

لم يرض سيلفان هذا عن الطريقة التى تنشأ عليها أرليت ، ولفت أنظار الأسرة إلى ذلك ، فلم تهتم بما قال ، وكانت النتيجة أن غضبت منه أرليت

(١) عن جريدة الأهرام ، ١٩٥٥/٦/١١ — ص ١١ .

نفسها عندما علمت برأيه فيها ، وراحت تنعته بصفات مضحكة للسخرية منه .

وانقضت أيام الطفولة ، وانتهت أيام الدراسة ، وأصبحت أرليت فى العشرين من عمرها ، شابةً ممشوقة القوام ، جميلة الشكل ، ولها عينان ... نعم لها هاتان العينان اللتان كانتا مثارَ إعجاب الجميع منذ طفولتها .

وراحت أرليت تتردد على حفلات الرقص والملاهى العامة ، وكانت ، كما كانت تتوقع دائماً ـ موضع إعجاب كل من يتقرب إليها من الشبان . لا ... لم يكن الإعجاب منصباً عليها شخصياً ، بل كان ـ والحق يقال ـ مركّزا على جمال عينيها .

وانقضت سنوات ، وأرليت تعيش فى مرح وابتهاج . كل ليلة رقص وعشاء مع المعجبين ، ولكن لم يتقدم أحد منهم إلى أهلها ليخطبها .

ولما بلغت أرليت الخامسةَ والعشرين من العمر ، بدأ القلق يساور أهلها . إن ابنتهم برغم أنها موضع إعجاب كلٍّ من يعرفونها لم تجتذب أى شاب طلب يدها .

والواقع أن كثرة ما سمعته أرليت من عبارات الإعجاب بجمال عينيها ، جعلتها فتاةً مغرورة . فكثيراً ما أهانت مَنْ معها بألفاظ جافة وعبارات نابية ، إذا هم قصَّروا فى الإشادة بجمال عينيها . وكان الشبان يعرفون ذلك عنها ، فكانوا يسخرون منها .

أدركت أرليت هذه الحقيقة ، فأصيبت بحالة نفسية سيئة . انحطت روحها المعنوية ، وشعر أهلها بذلك ، فأرسلوها إلى الريف لقضاء إجازة هناك تريح فيها أعصابَها ، وتستجم ، وتغير أفكارها .

وكانت أرليت ، بعدما أدركت سخريةَ الناس منها ومن غرورها ، تُؤثر العزلة .

وفى إحدى هذه النزهات ، وكانت فى إحدى القرى القريبة من السواحل الشمالية لفرنسا ، فاجأتها عاصفةٌ ممطرة ، فأسرعت تبحث عن أى مكان تأوى إليه ، ورأت منزلا قريباً ، فاتجهت إليه ، ووجدت بابه مفتوحا ، فدخلت ورأت فتاةً ذاتَ شعر جميل تذهب وتجىء فى المطبخ .

لم تهتم أرليت فى بادىء الأمر بتلك الفتاة شخصياً ، وإنما اهتمت بجمال شعرها . أما تلك الفتاة ، فقد استدارت عندما سمعت وقع أقدام أرليت فى داخل المنزل وما كادت عينا أرليت تقعان على عينى تلك الفتاة ، حتى جمدت أرليت فى مكانها ... وأدركت أن فى الدنيا عينين تفوقان عينيها جمالا وسحراً .

وقالت الفتاة صاحبة الدار :

— من أنت ؟ .

فقالت أرليت :

— معذرة يا آنسة إذا كنت قد اقتحمت منزلك . فأنا فتاة من باريس أقضى إجازةً هنا ، وقد فاجأتنى العاصفة .

فابتسمت صاحبة المنزل وقالت :

— تفضلى بالجلوس .

ثم اتجهت نحو الفرن ، وأخرجت طبقاً من الحلوى ، وقالت لأرليت :

— اسمحى لى أن أقدم لك قطعة من هذه الحلوى . ولكنى أرجوك أن تخبرينى أولا إذا كانت قد استوت ، لأنى عمياء لا أرى .

ذُهلت أرليت عندما سمعت ذلك ، واصفر وجهها ، وأدركت صاحبةُ المنزل بحسها المرهف ما أصاب الضيفةَ الباريسية ، فقالت لها :

— لعلك تتساءلين كيف أتمكن من إعداد الطعام والحلوى وأنا لا أرى . إن المسألة مسألة تعود ، ثم إنى فى بادىء الأمر لم يكن لى أى عمل ، أما الآن فإنى أستطيع أن أتصرف وحدى أثناء غياب أبى ، إذا كانت كل المعدات والأدوات اللازمة فى متناول يدى .. إنك لم تقولى لى إذا كانت الحلوى قد استوت .

فقالت أرليت : إن الحلوى لم تستو بعد ، وينبغى إعادتها إلى الفرن .

وتعاونت أرليت مع صاحبة المنزل على إعادة طبق الحلوى إلى الفرن . وأحست أرليت بحب عجيب نحو تلك الفتاة الشجاعة الصابرة على مصيبتها .

وسألتها أرليت منذ متى هى على تلك الحال ، فقالت الفتاة العمياء : منذ خمس سنوات . كنت فى السادسة عشرة من عمرى ، وكنت لا زلت فى المدرسة ، وكانت لى عينان جميلتان ، وكنت أحب الاستماع إلى إعجاب الناس بهما ، حتى صرت متكبرة ومغرورة . وذات يوم أصابنى دوار شديد وألم فى الرأس . لست أذكر كم من الزمن عانيت ، إلى أن أجريت لى عملية جراحية ، خرجت منها عمياء ، لأن عصب الإبصار تلف أثناء العملية .

وأرادت أرليت أن تواسى الفتاة العمياء ، ولكن الفتاة العمياء هونت عنها ، وراحت تكمل عملها فى المطبخ ، كما لو كانت ترى تماما .

وشعرت أرليت أن ما أصاب تلك الفتاة قد يصيبها . وفى تلك الأثناء قالت لها الفتاة العمياء :

— ما أهمية جمال العينين . إن المهم هو أن تكون للإنسان عينان يرى بهما .. إن الرؤية شيء رائع .

وبكت أرليت ، فأقبلت نحوها الفتاة العمياء ، وأعربت لها عن أسفها ، إذا كانت قد آذت شعورها ، ولكن أرليت قبلتها ، وقالت لها : إنها تشعر بالعرفان نحوها ، لأنها ردتها إلى طريق الصواب .

ثم روت أرليت قصة عينيها الجميلتين .

عادت أرليت من إجازتها وقد تغيرت تماما . أصبحت وديعة ولطيفة . تعطف على الفقراء ، وتزور المستشفيات ، وخاصة ملاجيء العميان .

ولاحظ أهلها ذلك التغير عليها ، وحدث أن قال لها أحد المعجبين إن عينيها جميلتان رائعتان ، فردت عليه بما لم يكن أحد يسمعه منها من قبل . قالت :

— كل العيون سواء . المهم هو أن ترى .. إن الرؤية شيء رائع .

وفى إحدى زياراتها لإحدى المستشفيات ، رأت قريبها سيلفان يزور أحد أصدقائه ، وكانت تجرى له جراحة فى عينيه . ارتاح لرؤيتها وابتسم . تغيرت نظرته إليها ونظرت إليه ولكن بإكبار واحترام ، وليس بسخرية واستهزاء ، كما كانت تفعل فيما مضى .

وكانت الدهشة عظيمة ، وخاصة عند الأهل ، لما أعلنت أرليت أنها ستتزوج الأستاذ سيلفان .

وقالت وهى تشرح الأمر لأفراد الأسرة : إن المهم هو أنه قد تم بيننا التفاهم بغض النظر عن فارق السن ، فقد أصبحت أفهمه ، وأصبح يفهمنى !.

الشاعر المكفوف أحمد الزين

هذا شاعر مكفوف ، يُعَدُّ فى شعره وفنه مفخرةً من مفاخر المكفوفين فى العصر الأخير ، وأعتقد أن دراسةَ شعره مما يجب على المتخصصين فى شئون المكفوفين ، ليروا مدى الصلة بين هذا الشعر وبين كفِّ البصر ، أو مقدار تكييفه لشعر الشاعر ، ولكى يطّلعوا على جوانبَ من التفنن استطاعها الشاعرُ من ناحيةِ التصوير والتخيُّل والدقة والبراعة . .

والشاعر المرحوم أحمد الزين الذى تُوفى منذ سنوات عالم من علماء الأزهر الشريف ، تخرَّج فيه ، واشتغل بعد تخرجه محامياً شرعياً ، ولكنه لم ينجح فى عمله ، ولم يستمر فيه طويلا ، لأنه لم يدرَّ عليه ما يُقيم أودَ حياته ؛ فتوسط له المرحوم الشاعر محمد الهراوى لدى المسئولين فى دار الكتب المصرية حتى اشتغل فى القسم الأدبى بها ، وحدث بينه وبين رئيسه فى هذا القسم خصامٌ ، ووقع بينهما ذات يوم شجار ، فزلَّ لسانُ رئيسه وقال له : ألا تحمد الله على أننا احتملناك وأنت أعمى !. فجُنَّ غضبُ الزين ، وأجابه معرِّضا برجوليته : إن كف البصر خير من أشياء أخرى ...

وكان هذا الرئيس يتثنى فى مشيته وينغم صوته كما يقولون .

وهذه الغضبة تدلنا على ضيق الزين الشديد بنقصه الحسى الذى أصابه فى بصره ، وتألمه ممن يعرِّض بهذا النقص ، وقد قرأت شعر الزين ، ولقيتُه فى حياته مرات ، واستمعت منه جانبا من أشعاره ، ولكنى لا أذكر شيئاً قاله عن كف البصر ، ولعله حَرَصَ على تجنب ذلك استجابةً لضيقه بتلك العلة .

وقد حدثنى بعض أصدقائه أنه كان يلقاه فى ميدان ملئ بالناس والعربات كميدان باب الخلق ، وهو يسير بلا قائد أو عصا ، فيقبل عليه ليأخذ بيده حتى يصل إلى غايته ، فيجذب الزين يدَه من يد ذلك الصديق بعنف وشدة ، ويأبى أن يقوده أحدٌ فى مسيره ، وكأنه يريد ألا يشعر الناسُ بأنه كفيف البصر ، ولعل لحدة مزاجه المشهورة دخلا فى ذلك .

ونحن نطالع ديوان الزين فلا نجد فيه شيئاً قاله عن المكفوفين ... لا نجد قصيدة ولا مقطوعة ولا بيتاً ... لا نجد له حديثاً فى المكفوفين لا بالتصريح ولا بالتلميح ؛ وليس هذا من ضعف شعوره بكفِّ البصر ، بل لعل هذا من قوة شعوره بهذا النقص الحسى ، وشدة ضيقه به ، ولذلك تجاهله أو تناساه ،

وهيهات ! . . . ولكن لسان الزين اندفع فى أرجوزة له ، فذكر مادة « العمى » فى بيت يقول :

وليس عالى الهممِ من كان ذا قلب عَمِ

ولعلها فلتة الإنسان المبتلَى بالنسيان ، أو لعله أراد التعريض من بعيد بأن عمى القلب أشد نكبةً من كفِّ البصر .

وحدثنى الشاعر الأستاذ أحمد محفوظ الذى يقص علينا الكثير من أخبار الزين أن الزين قد كُفَّ بصرُه فى صغره ، بسبب مرض موروث من آبائه ، ولذلك كان الزين يحذر أن يصبح مصير ابنه الوحيد « أسامة » الطالب بالأزهر الآن كمصيره ، فكان يعالجه بعناية حتى لا يصاب بالمرض نفسه الذى ينتهى إلى كف البصر ، وبرغم ذلك فإن « أسامة » ضعيف البصر .

وكان الزين يلبس العمامة فى أول أمره ، ثم تركها فجأة إلى الطربوش والبذلة الإفرنجية ، ولكنه كان غير أنيق فى الحالتين ... ويخيل إلىَّ أن فراره

من العمامة كان فرارا من الظهور بمظهر المكفوفين ، لأن الأغلبية الغالبة من مكفوفى الشرق يلبسون العمامة أو ما قاربها ...

وكانت الخصومات بينه وبين رئيسه سببا فى متاعب كثيرة له ، وقد تعرض بسببها يوماً للفصل من دار الكتب ، لو لا أن توسط له أمير الشعراء شوقى ، فبقى بعد أن خصموا من مرتبه جانباً ، وكان يحاول أحيانا أن يتقرب من بعض الكبار فى الدار ، فلا يفلح فى ذلك ولا يوفَّق له ، ويعلق الزين على ذلك بقوله : « ما حيلتى ، إنى أنافق فلا أنجح فى النفاق » !! ...

وقد حدث ذات مرة أن عُيِّن مديرٌ جديد لدار الكتب المصرية ، فصاغ الزين فى تهنئته عشرةَ أبيات ألقاها بين يديه مفاجِئاً بها زملاءه ، وبعد أيام تجدد الخصامُ بينه وبين رئيسه ، وكانت النتيجة أن خصم المدير الجديد له عشرة أيام من راتبه ، فقال الزين : الحمد لله إذ لم أجعل القصيدة ثلاثين بيتاً ، وإلا لخصم لى شهراً كاملا !! . .

وكان الزين شاعراً راويةً حافظا ، ظريفا مداعبا ، له نكت يقولها أو ينقلها ، وهو فى هذه الناحية كشاعر النيل حافظ إبراهيم ، بل بعضهم يفضِّله هنا على حافظ ، وربما كان للزين من مظاهر الذكاء واللطافة[١] وبراعة النكتة وسعة الرواية ما يفوق شعره .

يقول عنه الأستاذ أحمد أمين : « وكان رحمه الله متعدد النواحى الطيبة ، فهو مصحح ماهر كما أبنت[٢] ، وهو شاعر رقيق ، وهو حسن الذوق ،

---

(١) فى أساس البلاغة : « وإن فيها للطافة خلق . . ولطف الشىء لطفا ولطافة : صار لطيفا » فالكلمة إذن من العامى الفصيح .

(٢) انظر مقدمة ديوان أحمد الزين .

يحفظ الكثير من الشعر الجيد ، ويملأ مجالسنا سرورا بإنشاده اللطيف ، وهو مرهَفُ الذوق فى النكت ، يعرف جيِّدها من رديئها ، ويروى لنا منها ما استجاد ، حتى يستخرج ضحكَنا من الأعماق » .

ولما مات والده سأله الشاعر محفوظ : كم ورثتَ من أبيك ؟ فقال : أربعين فدانا (مع أنه لم يرث غير فدان ونصف) . فقال له : وماذا زرعتها ؟ . فتلبث قليلا ، وهنا سمع بائعاً ينادى على الجزر ، فقال : زرعتُها جزرا !! ...

وكان فى الزين رحمةٌ ، وطيبةُ قلب ، وكرمُ يد ، واحتمالٌ لدعابة الصديق ، ولكنه مع ذلك كان سريع الغضب إذا تطاول عليه أحد ، وكان يرد العدوان بالعدوان ، ولكن من غير حقد مقيم إذ كان يتألم لمصاب عدوه . .

وحدث بين الشاعر وبين أخيه الشيخ محمد الزين نزاع استمر طويلا ، وكان الشاعر يرى أن أخاه قد اغتصب حقه ، واستولى على نصيبه ، ولم ينصفه . ولا تزال أسرة الزين المكونة من زوجته وابنه أسامة تقيم فى حى الحلمية الجديدة بالقاهرة .

وقد مرض الشاعر فى نهاية حياته بمرض السرطان ، واستمر فى العلة نحو أربعة أشهر ، ثم توفى وهو فوق الخمسين ، وكان كثيرا ما يردد قول ابن الرومى :

لو أن عمرى مئةً هدَّنى تذكُّرُ أنى نصَّفْتُها

وقد رأت لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة أن تقوم بواجب الوفاء للشاعر أحمد الزين بعد وفاته ، فطبعت ديوانَه على نفقتها عام ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م ، وخصّصت ما يجىء من هذا الديوان لأسرة الشاعر الرقيقة الحال .

وقبل هذا الديوان أصدر الزين سنة ١٩١٧ ديوانا اسمه «القطوف الدانية» جمع فيه طائفة من شعره، وفى نهايتها تخميسة لمعلقة امرئ القيس، وفى سنة ١٩١٨ أصدر كتابا اسمه «قلائد الحكمة» وكتب مقدمة هذا الكتاب المرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى، كما قرظه الشاعر المشهور إسماعيل صبرى.

وللزين طائفة من الفصول الأدبية تحت عنوان «النقد والمثال»، نشرها فى مجلة الرسالة، وطائفة أخرى بعنوان «من أحسن ما يروى»، نشرها فى مجلة الثقافة، إلى غير ذلك من البحوث.

وقد اشترك الزين فى إخراج طائفة من الكتب القيمة، مثل «الإمتاع والمؤانسة» لأبى حيان التوحيدى، وديوان حافظ إبراهيم. وعهدتْ إليه دارُ الكتب المصرية تصحيح كتاب «نهاية الأرب» وديوان الهذليين. فأتى فيهما بألوان بارعة من التصحيح والتقويم.

يقول الأستاذ أحمد أمين عن هذه الناحية فيه:

«وكان ذهنه لاحظاً فاحصاً، ولست أنسى يوماً وقفنا فى عبارة نحو أسبوعين لم نعرف تصحيحها، وهى عبارة أبى حيان عن ابن مسكويه بأنه كان «غبيا بين أنبياء»، فوقفنا فيها، حتى جاء الزين يوما فرِحا، وقال إنى وجدت حلها، وهى أنه كان: (عييابين أبيناء)، فشكرته على اكتشافه وهنأته بحسن توفيقه؛ ومثل هذا عشرات الكلمات».

ومن العجيب أن كفَّ البصر عند الزين يجعله بعيدا عن مهمة التصحيح، لكنه كان مصححاً ماهراً، يجيل الجملةَ فى ذهنه أسبوعا أو أكثر. ثم يخرجها صحيحةً مستقيمة.

* * *

وأحمد الزين شاعر دقيق الحس مشبوب العاطفة . وكان فى أول أمره يقلِّد شعراءَ الجاهلية ، ولكنه انصرف عن التقليد إلى الشعر المبتكر المطبوع الذى يدل على رقة ودقة .

ها هو ذا الشاعر تُظلم أمامه صفحةُ الحياة ، وتحرمه الأقدار التطلعَ إلى المرئيات والمشاهدات ، ولكنه يعيش فى نور من قلبه ، وضياءٍ من صفاء نفسه ؛ وإذا كان قد عدم الصاحبَ والنصير ، فإنه قد وجد خير صديق فى الضمير ، ذلك المحاسب الذاتى الخفى ، والمراقب النفسى الدقيق ، الذى يسرى من الإنسان مسرى الدماء فى العروق .

فنرى الشاعر يتحدث عن الضمير فيقول :

لاتسلنى عن صاحبي ونصيرى　　　لم أجد لى فى الدهر غير ضميرى

ثم يصور ذلك الضميرَ ، وكيف استسرَّ فلا يراه راءٍ ، ولا يشاهده مشاهد ، فيقول :

هو سرٌّ يحار فى كنهه اللـ　　　ـبُّ ، وتعيا به قُوى التفكيرِ
مَبلغُ العـلم أنه روحُ خير　　　باطن الشخص ، ظاهر التأثير
كل حى عليه منه رقيبٌ　　　حلَّ من قلبه مكانَ الشعور

وانظر إليه حين يبرع فى تصوير سلطان الضمير ، ومصاحبته لذويه دائمـا ، وقيامه على حراسة المبادئ والفضائل ، ودقته فى المراجعة والمحاسبة ، فيقول :

هو روح من الملائك يسمو　　　بسليل الثرى لعـالَم نورِ
قد تولت بالأنبياء عصور　　　وهو باقٍ على توالى العصور
حافظا فى الزمان ماخلّفوه　　　قائما فى الصدور بالتذكير

حاملاً من شرائع الخير كُتْباً قُدستْ من صحائف وسطور
ليس يعفو عن الهناتِ وإن ها نت ، مُلِحٌّ فى اللوم والتعذير
هو إن شئتَ كان جنةَ خلد وإذا شئتَ كان نارَ السعير !

ثم نرى الشاعر المكفوف وهو يحدثنا عن استجابته لنداء ضميره ، وحملِه الآلامَ فى سبيل إرضائه ، وصبره على كراهية الناس فى سبيل هذا الإرضاء ، فيقول :

كم حملتُ الآلامَ فيه ، وسُخْطَ النا س ، حتى فقدتُ وُدَّ عشيرى
ليس يزكو غرسُ المودة فى النا س بغير النفاق والتغرير
لم يَدَعْ لى صدقُ المقال صديقًا فلأعِشْ قانعا بودِّ ضميرى !

* * *

ونرى الشاعر الكفيف يصوغ قصيدة عن « الصناعات والفنون بين مصر وأوربا » فينعَى على بنى قومه أنهم يحلمون دائماً ولا يعملون ، وأنهم بين نائم لا يستفيق وصاحٍ غافل ، والمجد لا تبنيه إلا العزائمُ القوية ، والهمم الجبارة ، والأعمال العظيمة ؛ ويذكِّر قومه بأبناء البلاد الأخرى الذين استغلوا الماء والهواء والصحراء وكلَّ ما فى أيديهم لبناء المدنيات والحضارات ، بينما نرى الشرقيين غارقين فى لعب الورق والنرد والشطرنج ، يقطعون فراغهم بالجلوس على المقاهى وأفاريز الطرق ، وكلُّ أمل المتعلم منهم أن يجد له فى الحكومة وظيفةً تضمن له الرزق ، ولا شيء وراء ذلك من جهاد أو اجتهاد ، فيقول :

ألقوا على دور الحكومة عبأهم حتى شكا الأعياءَ جهدُ الحاملِ
من فاته عيشُ الوظائف بينها فنصيبه فى العيش خيبةُ آمل
وخلت متاجركم ، وأقفر سوقكم من سلعة ، إلا طعامَ الآكل

فعلامَ نُزْهَى بالثياب ، ومالنا   فى صنعها يدُ ناسجٍ أو غازلِ ؟
أيجر ذيلَ الفخر غِرٌّ ، مالَه   فى ثوبه حتى أداة الغاسل ؟!

* * *

ولعل أكبرَ شيء غاظ ذلك الشاعرَ المكفوف فى حياته هو اختلال الأوضاع فى دنياه ، واضطراب الموازين فى مجتمعه ، وفساد الأمور فى بيئته ، ورواجُ التملق والنفاق بين قومه ، وضياع الحقوق والكفايات بين الآثمين الذى يصلون إلى أهدافهم على أشلاء غيرهم ، ويملأون بطونهم بلحوم سواهم ، ويرتفعون على أكتاف ضحاياهم : ولذلك تحدث الشاعر الزين فى مواطن كثيرة من شعره عن هذه الأدواء ، فنراه فى قصيدته « الملق[1] » يقول :

كم كفاياتٍ نفاها قومُهـــا   وجهودٍ أُلقيت فى الطرقِ
وُضعت فى موطئ النعل ، ولو   أنصفوها وُضعت فى الحدَق
فأتِ علياءَهم من بابها   لا تُضِعْ عمرك بين الورق
لم أكن فى نعتهم مختلِقاً   لعنـــةَ الله على المختلق
علِّمونا أننـــا فى بلد   فيه من لم يتملَّق يُملق[2]
أودعُونا ، فلكم دنيا الغِنَى   إنما نحيـــا بدنيا الُخلق
مرةً أخطأتُها فى عمرى   بثناء قلتُـــه فى نزِق
منذ أن أخطأتُ فيه لم أبت   ليـــلةً إلا بطرف أرِق

ويعود فى قصيدته « صرعى الأغراض[3] » وهى طُرفة من الشعر الاجتماعى ، تعبر عن الآلام المكظومة ، والكفايات المظلومة . فيتحدث

(١) ديوان أحمد الزين ، ص ١٢
(٢) أى من لم ينافق يفتقر ويجوع .
(٣) ديوان الزين ، ص ١٤ .

عن سوق النفاق الرائجة الواسعة ، التى يرخص فيها الغالى ، ويرتفع فيها الوضيع ، فهذه نفوس كريمة عظيمة لا تلقى إلا الجحودَ والنكران ، وهذه نفوس وضيعة حقيرة ترتفع وتسود ، فيقول :

دع الحديثَ عن القسطاس فى عُصَبٍ ما سوَّدتْ بينهـا إلا مُرائيها
سوق النفاق بهم شتى بضائعُها تُزجَى لمن يشترى إفكاً وتمويهاً
أرخصتمُ غالىَ الأخلاق فى بلد لم تغلُ قيمتُه إلا بغاليهـا
يا رُبَّ نفسٍ أضاء الطهرُ صفحتَها أفسدتموها ، فزلت فى مهاويها
وكم قلوبٍ كساها الحسنُ نضرتَه دنَّستموها ، فعاد الحسنُ تشويها
أغلقتمُ سبلَ الأرزاق ، لم تدعوا لفاضلِ الُخلق سعياً فى نواحيها !

ويعود فى قصيدته عن « ذكرى حافظ إبراهيم[1] » فيختمها بخطاب أسيف حزين يوجهه إلى قومه ، ويلومهم فيه على الفوضى التى ضربت أطنابَها بينهم ، فسوَّت بين الُحرِّ والدُّون ، ولم تفرق بين الحلى وأحجار الطواحين[2] ، ويرى أن ذلك يؤدى إلى خمود العزائم وركود الهمم ، وإذن يكون الجهل خيراً من العلم ، والحمق أفضل من العقل ، فيقول :

تواصت بغبنٍ شيبُكم وشبابُكم وفوضى الهوى سادت مُجِدًّا بلاعبِ
فأحجم عن ميدانها كلُّ سابق جوادٍ ، وجلَّى فيه تهريجُ صاخب
وأمسى زمامُ الفكر فى يد عصبة هم المثل الأعلى لسخف المواهب

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٠
(٢) من شعر العقاد هذه الأبيات :

إنا نريد إذا ما الظلم حاق بنا عدل الأناسى لا عدل الموازين
عدل الموازين ظلم حين تنصبها على المساواة بين الحر والدون
مافرقت كفة الميزان أو عدلت بين الحلى وأحجار الطواحين !

علام يجيد الفنَّ فى مصر متقنٌ إذا كان بالتهريج نيلُ المراتب ؟

فيا جهلُ واصلْنا . ويا علم فابتعد ويا حمق لا زمْنا ، ويا عقل جانب !

أرى الجهل نورًا فى بلادٍ رجالها خفافيشُ يُعشيها ضياء الكواكب

إذا الشعب بالإهمال أرسب عاليا فلا بِدع لو يعلو به كلُّ راسب ! !

وأكاد أؤكد أن ذلك الشاعر المكفوف الموهوب عاش وهو يصطلى بنيران ثورة نفسية عنيفة مكبوتة ، فهو يرى نفسَه أهلا للكثير ، وعنده مواهب تؤهله للقيام بالكثير ، ولكنه مكفوف البصر . والقومُ مِنْ حوله يخطئون فيظنون أن مثله لا يصلح إلا لتلقِّى كلمات الرحمة والإشفاق : وإنه ليغضب من ذلك كلَّ الغضب ، ويألم له أشدَّ الألم : ولست أدرى ماذا كان يقدِّم الزين إلى أمته فى ميدان الفكر والفن ، لو أنه وجد من حوله مَنْ يقدِّره ، ومن ينصفه ، ومن يهئ أمامه الأسبابَ للتغلب على ذلك النقص الحسى الذى عرض له ...

إنى واثق كل الثقة أنه لو توافرت للزين الوسائلُ التى تتوافر للمكفوفين فى العالم الحديث المتحضر الراقى لأتى بالأعاجيب وصنع العظائم ، وإذن فلا ملام عليه ولا عتاب ، حين نراه من حين إلى حين يصرخ تلك الصرخات الأليمة الوجيعة الدالة على الحزن العميق والغيظ الدفين ... ولعله من أفضل ألوان الخير أن يكون لنا فى مثل هذه الحالة عبرةٌ أو عظة ننتفع بها فى معرفة واجبنا نحو هؤلاء الذين فقدوا البصر الحسى ، فنقوم لهم بذلك الواجب كاملاً ، حتى لا تضيع عليهم فرصةٌ من فرص المحاولة والسعى المثمر المنتج فى هذه الحياة ، فتنحرف نفسياتُهم من جهة ، ويحرم المجتمع من جهودهم

ومحاولاتهم من جهة ثانية ، وتُصب علينا منهم اللعناتُ من جهة ثالثة . .

* * *

ومما يقرب من المجال السابق ضيقُ الشاعر بالثناء الكاذب ، والادعاء المغرور ، والتطاول المتبجح ، والترفع الآثيم ، فنراه فى قصيدته : « خدعة الثناء ، وفتنة الأدعياء[1] » يصوِّر لنا كيف يصل التبجح ببعض الناس حدًّا يظنون معه أنهم جبال ، وهم فى الواقع نمال ، ويحاولون أن يقودوا غيرهم ، وهم أعجز عن أن يقودوا أنفسَهم ، ويتصدرون للإفتاء وإبداء الآراء ، وهم صورة مجسَّمة من الجهل والحماقة ، فيقول فى مطلع القصيدة :

كلُّهم فى الهوى يزيِّن دينَــه ألفُ مفتٍ ، ومالكٌ فى المدينه !
جهلوا لُجةَ البحار ، ومسرى ريحها ، وادعوا قيادَ السفينه !
كاد يهوِى بها إلى القاع فوضى من دعاوى الجهالة المأفونه !
نجِّها ربِّ ، إننا قد جعلنا كلَّ فن فى غير مَنْ يُحسنونه !

ويعرض لنا الزين صوراً من هذا الادعاء الكاذب ، فيقول :

كلَّ يوم يكرِّمون دَعِيًّا كان عدلُ الجزاء لو يرجمونه !
كلما أرسل الحمارُ نهيقاً ظنَّ أهلَ السماء يستمعونه !
ويخال السبعَ السموات نشوى من فيوضات جهله والرُّعونه !
قد تفشى التمويهُ فى مصر حتى تحسب الزهرَ موَّهوا تزيينَه !

---

(١) الديوان ، ص ٣ .

ولا ينسى الزين — وهو من علماء الأزهر الشريف — أن يندِّد بالادعاء فى الدين ، فيقول :

ودعىّ فى الدين ، والدينُ يشكو فعلاتٍ كالكفر منـــه لعينه
نال ما يشتهى من الجاه باسم الد ين زُورا فى الأمـــة المسكينه
هو فيهم كالذئب بين دجاج أو شـــياه يختار منها السمينه
فقد الدينَ ، واليقين ، وصار الما لُ والجاهُ دينَـــه ويقينَه
تخــذ الإفكَ والتملق ديناً فجميعُ الأديان تلعن دينَه !

ويعود فى قصيدته : « غربة النبوغ[1] » إلى التنديد بذلك الادعاء ، ويبكى على ضياع العبقرية والنبوغ ، ويرثى لضياع الذكى الألمعى بين هؤلاء الجهلاء ، ويطلب إليهم أن يعلِّموه شيئاً من نفاقهم حتى يستطيع أن يصل كما وصلوا ، وهنا قد يظن ظان بالشاعر أنه قد قَبلَ الوصولَ إلى الغرض بأية وسيلة ، وأن الغاية عنده قد بدأت تبرر الواسطة ، ولكن الشاعر يسارع فينفى ذلك الوهم ، ويصارح بأن العبقرى سيظل على أنفته وإبائه مهما ناله وأصابه من جحود ونكران ، ويسمو الشاعر ثم يسمو حين يجعل هذا الذكى العبقرىّ روحا من الله ، ويبين أنه يقدم إلى الناس ما ألهمه الله من روائع ، وإن يكن التعبير قد خان الشاعر هنا فاستعمل كلمة « الكتاب » مع أن الكتب الموحاة من الله وَقْفٌ على الرسل .

استمع إليه إذ يصور ذلك بلغته الشعرية المعبِّرة فيقول :

كم دعىّ قلدتموه خطيرَ الأمـــر فيـــكم ، وذُدتمُ أربابَه

(١) الديوان ، ص ١ .

وغبيٍّ يحيا سعيدا ، وتغْزو ... ن إليه من كلِّ فن لبابَه
حين يشقى أخو الذكاء. ويطوِى ... فيكمُ العمرَ خاملاً أوصابه
لم ينافق فيستحق لديكم ... رغدَ العيش محكِما أسبابه
علّموه الرياءَ مما علمتم ... وخداعَ النُّهى فيقرع بابه
بل دعوه وشأنَه ، لن تروه ... بائعا نفسَه ولا آدابَه
إن سفْك الدماء أوهى حسابا ... من دم الفضل تحملون حسابه
إنما العبقرى روحٌ من الله ... أمين يُوحى إليكم كتابه
إن قتل النبوغ قتلٌ لشعب ... وعنادٌ لله فيمن أنابه

✡ ✡ ✡

ونشهد فى هذا الشاعر المكفوف أنفةً وإباء ، فهو يترفع عن الصغائر ، ويتعالى عن مواطن الابتذال ، وإنه لخُلق كريم أن نرى المكفوف يتأبى ويترفع ، لأن الناس يحسبونه محتاجا إلى التدلى والتدنى ، بسبب فقده لبصره ، فإذا رأينا المكفوفَ يتأبى على الضيم ، ويترفع عن مواطن الصغار ، كان ذلك تحديا للضعف ، واحتمالا لابتلاء الحياة ، وصبراً عن بعض المغنم ، واستغناءً عن سفلة الناس ...

يقول الزين من قصيدته « بين الحب والحرب »[1] :

ليس لى ما عشتُ فى دنياكمُ ... ما أراه يستحق الطمعا
لست أبغى رىَّ آمالى بما ... سفكَ الظلمُ دماً أو أدمعا
مطلبى أطهر من أن يرتعى ... جثثَ الإخوة يبغى شبعا

---

(١) الديوان ، ص ٢٤ .

فدعوا قلبي وما يشغله ... لم يدع فيه الهوى متسعا
غَرَسَ الحبُّ به دوحتَه ... فزكَتْ أصلا، وطالت أفرعا
صادفت منبتَها فانبسقت ... وأصابت من وفائي منبعا

وأنتهز الفرصة التي أشار فيها الشاعر إلى الوفاء فأقول إنه مولع بهذا الوفاء، حاضٌّ عليه بشغف، داعٍ إليه بإلحاح، فنراه يصوغ قصيدةً كاملةً بعنوان «الوفاء»[1] فوق ذكره للوفاء في مناسبات مختلفة، ومن هذه القصيدة قوله:

قد قال أهلُ العلم فيما أُرسلا: ... كاد الوفيُّ أن يكون مُرْسَلا
وإنني لم أر كالوفاءِ ... أدعَى إلى الإخلاص في الإخاء
وليس من شيء سوى الإخلافِ ... أدعى إلى تقاطع الأُلَّاف
لا تعتذر في الخلف بالموانع ... فإنه من سيئ الطبائع
من أكثرَ الأعذارَ فيما يفعلُ ... فعن قليل عذرُه لا يُقبل
إياك والإكثارَ في الأعذار ... وفعلَ ما يُلجئ لاعتذار
حذارِ أن تقول: لا بعد نعمْ ... وابدأ «بلا أفعل» إن خفتَ الندم

* * *

وللشاعر في ديوانه جملةٌ من الأراجيز، أغلبها في قواعد الأخلاق وآداب السلوك، فهو يُعنَى خلال هذه الأراجيز بالنص على آداب الحديث، وآداب الجلوس، وآداب الطعام، وآداب الزيارة، وآداب المتعلم، وآداب الضيافة، وآداب الأصدقاء، وغير ذلك من الآداب.

---

(١) الديوان، ص ١٤٠.

وهو يأتى فى هذه الأراجيز بفنونٍ شتى من النصائح والآداب والعادات، مما يدل على بصيرة نافذة بما يجب أن يكون عليه الرجلُ الكامل فى معاملته وسلوكه ؛ وهذه ناحية هامة تذكّرنا بعناية المكفوفين بالجوانب الأخلاقية والسلوكية فى حياة الناس ، وترشدنا إلى أن هؤلاء المكفوفين لهم النصيب الملحوظ من الحرص على الأخلاق والتمسك بالآداب .

نرى الشاعر الزين مثلا فى قصيدته « فى الكلام والصمت »[1] يعلِّم الإنسان كيف يحرص على الحكمة فى نطقه وصمته ، فلا يتكلم إلا بحساب ، ولا يصمت حين يحسن الكلام ، ولا يسرف فى مواطن الإيجاز ، ولا يعىَ عن رد الجواب ، فيقول :

عقل الفتى مكتَّمُ	يُظهره التكلم
وإنما الإنسانُ	العقلُ واللسانُ
سلامةُ العقولِ	فى قلة الفضولِ
قل حسنًا لتسلَما	أو استمع لتغنما
وحاذر الإكثارا	ولا تكن مهذارا
لا يزدهيك صامتُ	إن الجماد ساكت
كم صامتٍ لجهله	وناطقٍ لفضله
وليس تركُ المنطقِ	دليلَ حسن الُخلق
رُبَّ سكوتٍ عىٌ	ورب نطقٍ غَىٌ

ويعود الشاعر فى قصيدته « آداب المجالس[2] » فينصح المرءَ بألا يحرص

---

(١) الديوان ، ص ١٤٦ .

(٢) الديوان ، ص ١٥٧ .

على صدر المجلس ، لأن ذلك غرور قتال ، وأن يعرف مكانته مع غيره ، وألا يكون لحوحا فى الأسئلة ، وأن يخفض من صوته ، وأن يكون رقيقاً طريفا فى حديثه ، عذبا فى مسامرته ، مفيداً فى محاورته ، وألاَّ يثقل على معارفه بكثرة الزيارات ، فيقول :

فلا يُغَرَّ بالصدور العاقلُ　　فإنما داء الصدور قاتلُ
واعرف لكلٍّ حقَّه فى المجلسِ　　فإن هذا من فعال الكيِّس
واجلس بحيث ينبغى لمثلكا　　فإن هذا من سماتِ فضلكا
إياك أن تجلس فى مقامِ　　تهان فيه بعدُ بالقيام
واحذر من الإكثار فى التسآل　　وغضَّ من صوتك فى المقال
وكن طريفَ القول والمحاضره　　وكن رقيقا حسن المسامره
ولا تزر من زرتَ إلا غِبا[1]　　تزد لديه كَلَفًا وحبّا
من أكثر المجئ والذهابا　　إلى الصحاب ضيَّع الصحابا !

ويعود فى قصيدته « آداب الإخوان[2] » فيُرينا فنونا من العادات الكريمة والتقاليد الحسنة ، مما يدل على بصر بطبائع النفوس ، وخبرة بما يجذبها ويمتلكها ، وما يسئ إليها فينفرها ، فهو ينصح بحسن الاستماع إلى الصديق ، حتى ولو كان الحديث معروفاً للمستمع ، لأن الأول يقول :

من لى بإنسان إذا أغضبته　　وجهلتُ كان الحلمُ ردَّ جوابه
وإذا صبوتُ إلى المدام شربت من　　أخلاقه ، وسكرت من آدابه
وتراه يُصغى للحديث بسمعه　　وبقلبه ، ولعله أدرى به !

---

(١) قليلا فى فترات متباعدة .

(٢) الديوان ، ص ١٦٥ .

يقول الزين من أرجوزته :

أنصتْ إلى حديث من تكلَّما ... وإن تكن منه بذاك أعلما
لا تشتغل عنـــه بما سواه ... ولا تمارِ فى الذى يراه
فإنه من خُلق الأرذالِ ... وليس فى شئ من الكمال
ولا تردَّه إلى الصـــوابِ ... وأنتما فى حضرة الأصحاب !

وفى أرجوزة أخرى[1] يقول :

وإن أتيتَ مجلسَ الإخوانِ ... فلا تجالسهم بلا استئذان
خشية أن يَمسَّك احتقارُ ... وأن يكون بينهم أسرار
فإن دُعيت للدخول فادخلِ ... وإن أبوا فاتركهمُ ، لا تُثْقلِ !

وفى أرجوزته « آداب الأكل[2] » يرشد الآكل إلى الآداب المختلفة التى يجب عليه أن يتبعها حتى يكون رجلا لطيفا متحضرا ، وفيها يقول :

دونك غسلَ اليد قبل الأكل ... لا يهنأُ الأكلُ بغير غسلِ
وكثِّر الأيدى على الطعامِ ... فإنه من خُلق الكرام
حذار الاتكاءَ حين تأكلُ ... واعمل كما كان النبى يعمل
ولا تغيِّر هيئـــةَ الجلوسِ ... ولا تكن فى الأكل ذا عبوس
إياك والتبديلَ فى المكان ... فإنها من خفة الإنسان
وحاذر الصمتَ على الطعام ... فإنها من سيرة الأعجام
إياك أن تأكلَ مما يبعدُ ... عنك ، فهذا خُلقٌ لا يحمد

---

(١) الديوان ، ص ١٧١ .
(٢) الديوان ، ص ١٧٧ .

ويحذر الشاعر من عيبٍ دقيق قد يرتكبه الإنسان مع ضيفه دون أن يشعر، فيؤدى ذلك العيب إلى إساءة الضيف أو إيلامه، وهو أن يلاحظ الإنسانُ ضيفَه حين أكله.

ويقص علينا الشاعر فى ذلك قصةً عربية قديمة فيقول:

وغُضَّ عنهم طرفَك استحياءَ ولا تقل: هل تشربون ماءَ؟
فإن من أخبارِ من قد سلفا أن امرأً واكلَ بعضَ الخلفا
فأبصر الأميرُ بعض الشَّعَرِ فى لقمة الفتى، فقال: انتظر
إنى أرى وسطَ الطعام شَعَرَا فنحِّه، فإن فيه ضررا
قال له الفتى: أأنت ناظرُ إلىَّ؟ إنى للطعام هاجر
أتنظر الشعرةَ فى طعامى؟ أفضلُ من طعامكم صيامى
كيف ترى اللقمةَ فيها شَعْرَه؟ ليس الكريمُ من يُحدّ نظره
فقال: فاسترها، وكن لى غافرا ليس الكريمَ للمساوى ناشرا

ويواصل الشاعر فى قصيدته «آداب الضيافة[1]» تبصيرَ الناس بالآداب المختلفة التى يجب أن يحرصوا عليها فى مواطن الضيافة والطعام، ومن ذلك قوله:

ودعْ لربِّ المنزلِ ترتيبَ أهل المحفل
لا تعترض ما يفعله فذاك شىءٌ تجهله
لعل ذاك الصدرا به سواك أحرى
إيــاك والتضييقا تؤذى به الصديقا
وافسَح إذا قيل افسح ولا تقل: لم أبرح

---

(١) الديوان، ص ١٨٠.

أرأيت هذا التفصيلَ الدقيق المتنوِّع لأساليب المعاملات والاتصالات بالناس ؟... ألا يدل ذلك على ذوق لطيف، وشعور دقيق، وإحساس مرهف ؟...

ألا يُطلعنا هذا على جانب من تلك الجوانب الكريمة التى تعمر بها صدورُ هؤلاء الأشفاء المكفوفين هنا وهناك ؟... ألا يُشعرنا ذلك أيضاً بمبلغ ما عند هؤلاء النابغين المكفوفين من رغبة الإحاطة بالموضوع، والدقة فى التفصيل. والروعة فى التصوير، ومحاولة الاستقصاء فى الأجزاء ؟...

وهاهو ذا الشاعر المكفوف نفسه يصوغ قصيدةً فى «الساعة[1]»، فيصوِّرها تصويراً دقيقاً بليغاً، ربما لا يستطيع أن يأتى به بعضُ المبصرين، ونقتطف من تلك القصيدة الأبياتَ التالية :

مع الزمان دائره ... وبالحساب سائره

قد قَنِّعت ناحيــة ... منها، وأخرى حاسره

نقّارة، لا تخطئ الوز ... نَ، تقول : شاعره

تبدأ حيث تنتهى ... دائبــةً، مثابِره

حائرةً، وهديها ... فى أن تظل حائره

إن لم تَصُنْ من عبث ... مشت خُطاها عاثره

لسانُهـــا عقاربٌ ... تزحف غير غادره

حسبك من وفائها ... نومُك وهْى ساهره

ياحسنَها فى المِعصم العا ... جىِّ وهى سافره

وكم يصاب سيرها ... بعــلَّة مساوِره

(١) الديوان، ص ٧٥.

والصدقُ من طبيبها ... بُعدَ السماء العاشره
كم يدَّعِي كسراً ، ولو ... يصدق كان كاسره
أُجرته على السقيم ... والصحيح وافـــره
ترى له « عيـادةً » ... فى كل حين عامره
لا يُخرج الساعةَ إلا ... كى تعود زائره !

وننتقل مع الشاعر من تصويره لشئون الساعة إلى تصويره لابتسامة[١] ، كى نرى هذا التفنن العجيب فى تعداد أنواع الابتسامات ، ولكل نوع منها تصوير وشأن ، فهو يقول :

يا مُنى النفس ، يا مثابةَ حبٍّ ... ابسمى ، يبسم الرجاءُ بقلبى
أسفرى عن شعاع ثغرك يُسفر ... لفؤادى نورٌ من الحسن يُصبى
وأضيء ذاك السنا من ثنايا ... ك ، تضيء بالرجاء أحلامُ صبٍّ
ابسمى للصديق بسمةَ راضٍ ... عن هواه ، يُنيل قربا بقرب
ابسمى للوشاة بسمةَ زارٍ ... ساخر بالوشاة ، غير مُلبِّ
ابسمى للسقيم بسمة آس ... أىُّ طبٍّ فى سحرها ، أى طب ؟
ابسمى للزمان بسمة لاهٍ ... ليس يُلوى على الزمان بعيب
ابسمى للحيـــاة بسمة راج ... ينهب العيشَ بالمنى أىَّ نهب
ابسمى ، كلُّ ما ترين جميـــل ... كلُّ شىء يحلو بقلب المحب
ابسمى للظلام يبسم بصبح ... وابسمى للصباح بسمة عُجْب
ابسمى للرياض يبسم لك الزهـــرُ ، ويُكْسَ النباتُ نضرةَ خصب

(١) الديوان ، ص ٤٦ .

لله در الشاعر ، ولله هذا التشقيق الرائع الفاتن فى وصف الابتسامة ، وتعدادِ أنواعها وألوانها ومشخصاتها ... هذا رجل كفيف البصر ، والابتسامة شيء غير مسموع ولا ملموس ، ولكنه شيء يُرَى ويُشاهَد بالبصر ، فكيف تأتى لذلك المكفوف أن يصورها ذلك التصوير ، بعد أن يدركها ذلك الإدراك ؟ وكيف بلغ به تفننُه هذا المبلغَ الذى جعله يذكر لنا ما يقرب من عشرة أنواع من الابتسامات ... فالبسمة الراضية للصديق ، والبسمة الزارية الساخرة للوشاة ، والبسمة الآسية الشافية للسقيم ، والبسمة اللاهية للزمان ، والبسمة الراجية للحياة ، والبسمة الجميلة لكل شيء جميل ، والبسمة الكاشفة لحجب الظلام ، والبسمة العاجبة للصباح ، والبسمة الزاهرة للرياض ! ..

هذه كلها أنواع من الابتسامات ، وكلُّ ابتسامة منها بلون وطعم ومقام ، فأى اقتدار من الشاعر المكفوف جعله يؤلف بين هذه الأنواع كلها ، ويفصِّل الحديثَ عنها فى آن واحد ؟ ! ...

ولا يكتفى الشاعر بهذه الأنواع التى صورها فى ابتداع ، بل يزيد عليها ، فيختم قصيدته قائلا :

ابسمى للمُقِلِّ يستصغر الكو　　نَ بما فيه من ثراء وكسبِ
ابسمى لى إذا سألتُ لقاءً　　بسمةٌ منك لو تشائين حسبى !

وقد يظن ظان أن تكرار كلمة « ابسمى » مما يعاب على الشاعر ، وعندى أن هذا التكرار مما يُحمد له ولا يعاب عليه ، وإذا كان التكرار معيبا أو مذموماً فى بعض المواطن فإنه فى بعضها الآخر طراز من البلاغة ، ولون له روعته من البيان ، وقد جاء التكرار فى التنزيل المجيد ،

وفى البيان النبوى الرفيع ، وفى مأثور الشعر والنثر .

وتكرار كلمة « ابسمى » هنا تكرار جميل لطيف محبّب إلى النفس ، وهو يذكّرنا بتكرار أمير الشعراء أحمد شوقى لكلمة « أقبلى » فى قصيدته « دمعة وابتسامة »[١] التى يحيي بها « أم المحسنين » ، وفيها يقول :

أقبلى ، أحسنَ دنيا أقبلت   لبنى الآمال فى أحسن دينْ
أقبلى صُبحا لأنضاء السُّرَى   وسماءً للعِجاف المُسْنِتين[٢]
أقبلى كالشمس لم تَجْعَل لها   موكبا ، أو تتخذْ من حاشرين[٣]
أقبلى فى بحرك الطامى إذا   عبثَ السيفُ بموج المحتفين
أَقبلى كالشمس راقَتْ فى الضحى   ثم راعَتْ فى الأصيل الناظرين[٤]

* * *

ومما يقرب من هذا تصويره للواعج نفسه ونيران صدره فى قصيدته : « القُبلة الممنوعة »[٥] وهى قصيدة ساحرة مثيرة ، بموضوعها ، وجرسها ، وصورها الشعرية الفتانة ، وفى مطلعها يقول :

يا غُلّةَ الصدر فى حَرِّ الجوى زيدِى   أبت شفاهُكِ حتى بالمواعيد
سحرية الفم ، لو مسَّتْ بقبلتها   فمَ العييِّ لحلّت كلَّ معقود
تكاد من رقة تُغْرى مقبِّلَها   أن يحتسيها رحيقا غير مورود

(١) ديوان الشوقيات ، ج ١ ص ٣١٩ .
(٢) الأنضاء : المهازيل . والسرى : السير ليلا . والسماء : المطر . والعجاف : المهازيل . والمسنتين : المجدبين .
(٣) حشر الناس : جمعهم .
(٤) راعت : أوجدت فى نفوسهم روعة .
(٥) الديوان ، ص ٦٣ .

قد صاغها الله لما أشركت أممٌ ... به، فقال: اشهدوا برهانَ توحيدى

قل للبخيلة: جودى، لا لقيتِ جوًى ... إن كان يشفع لى قولى لها: جُودى

وساعة تحت أفياء الهوى سلفت ... يا ساعةً تحت أفياء الهوى عودى

ما ضرَّ لو أنها فى قبلة سنحت ... منَّتْ بوعد، وإن ضنت بموعود

هل حاذرتْ حَرَّ شوقى حين ألثمها ... أن تُذبل الوردَ أنفاسٌ بتصعيد؟!

وتثور الذكرى عند الشاعر، فتهيج عواطفَه فى نفسه، وتحرك أشجانَه فى صدره، وتبعث فى خاطره أطيافا للماضى تقلق جوانبَ الحاضر، فيستبد الحنين بالشاعر المكلوم، ويطغى عنده الشوقُ إلى تلك اللحظات العذبة التى مرت عليه فى أمسه، وهو ناعم البال سعيد الحال، يتقلب مع من يهوى فى رياض مزهرةٍ من الرضا واللقاء واجتماع الشمل. ولقد مرت هذه اللحظات كأسرع ما تكون، لأن لحظات الصفاء قصار، وأما اليوم فليس عنده إلا الحرمان والشجن، فيقول فى تفنن وبراعة تصوير[1]:

عاود القلبَ حنينُه ... من على الشوق يعينُه؟

ويح قلبى من غرام ... هاج بالذكرى كمينُه

يالخفاق إذا ما ... قرَّ هزته شجونه

واصلٌ من صدَّ عنه ... صائن من لا يصونه

خانه الصبرُ ولولا الصـ ... ـدُّ ما كان يخونه

يازمانا لم تكن إلا ... هنيهاتٍ سنينُه[2]

---

(١) الديوان، ص ٤٥.

(٢) بالرفع على لغة من يعرب سنين بالحركات. ومنه الحديث: «اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف».

كنتَ روضاً حالياً بالوصـ ـل قد رفَّت غصونه
حُلُمٌ إن يمحُه الدهـ ـرُ ، فنى الذكرى مصونُه
كلمـــا مرَّ بقلبى ذكـرُه جُنَّ جنونه !

* * *

وعلى الرغم من كف البصر عند الشاعر نراه ذا صلة بالفنون ، يتحدث عنها ، ويقارن بينها ، ويميز غثَّها من سمينها ، ويغيظه الادعاءُ فيها ، ويندب حظَّ المُجيدين لها ، فنراه يقول فى ختام إحدى قصائده :

غَلب المدَّعون فى الفن حتى أخرسوا بالصياح مَنْ يتقنونه
كدّروا وِرْدَه الشهىَّ ، فعافتْـ ـه أباةُ النفوسِ ، لا يَرِدُونه
كلُّ فن فى مصر عاد طِلاءً فأخو العقل من يسىء ظنونه
كلَّ يوم فيهـا نشيِّع فنًّـا هالكًا لا يحسُّ من يبكونه
عظَّم اللهُ أجرَكم فى حياة العلـ ـمِ ، لاقَى بالأدعياء مَنونَه !!

* * *

والكفيف الذكى حينما يفقد بصرَه ، أو يخرج إلى هـذا الكون بدون بصر ، يلجأ إلى سمعه يتخذ منه عيناً ، فهو يدرِّب هـــذا السمعَ على تتبع الأصوات ، والتقاط النبرات ، والتفرقةِ الدقيقة بين مختلِف النغمات ، وبذلك تتكون له ملكة سمعية ، أو دُربة أُذنية خاصة ، لا تجعله يشعر بمـا فقده من إبصاره إلا نادراً .

ولذلك يقول أبو يعقوب الخريمى المكفوف :

قالت : وتهزا بى غداة لقيتها : يا للرجال لصبوة العميان

فأجبتُها : نفسي فداك ، فإنما عيني وأذني في الهوى سيان![1]

وقد رأيتُ في شعر الشاعر المكفوف أحمد الزين اهتماماً واسعاً بأمر الحديث والاستماع ، وعناية خاصة بتتبع الأصوات والنغمات ، فنحن نراه في قصيدته : « بين الحب والحرب[2] » يخاطب فتاته راجيا إياها أن تُسمعه حديثها الذي يجعل من كل شيء مِسْمعا ، ويصف هذا الحديث بأنه أشهى متعةٍ في هذه الحياة ، وكأنه يستعيض خير العوض عن مشاهدتها بحاسة الإبصار برؤيتِها رؤيةً سماعية عن طريق حديثها والإنصات إليها فيقول لها :

أمتعينا ، والمنى مسعدة ليس هذا العيشُ إلا مُتَعا

بحديثٍ كاد أن يخلق من سحره في كلِّ شيء مسمعا

حدثينا عن تباريح الجوى وصفي جورَ الهوى ماصنعا

حدثي عما جنت أيدي النوى وجميلِ الصبر ماذا نفعا

وأمانٍ كم هفا الصبُّ لها خادعًا للنفس أو منخدعا

حدِّثينا عن غرام لم يدع في فؤادينا لواشٍ موضعا

حدثينا ، إن أشهى متعة منكِ إن حدثتِنا أن نسمعا

ويعود الشاعر في قصيدته : « سحر الحديث[3] » ، وهي من طرائف الشعر الوجداني المتصل بالوصف ، فيُطلعنا على هذا الشغف القوي الواسع الدائم منه بالحديث وبالاستماع وبنبرات الصوت ، وبتأثير هذا الصوت في الحس والنفس ، فالصوت الجميل الذي يستمع إليه من ذلك الفم الحبيب هو عنده

---

(١) أي أذني كعيني لو كانت عيني بصيرة .

(٢) الديوان ، ص ٢٤ .

(٣) الديوان ، ص ٥٣ .

وفى زعمه أقوى تأثيراً من الخمر ، وأشهى وقعا من الكأس ؛ ونبراتُ ذلك الصوت تُخجل العودَ لأنها تؤثّر فوق تأثيره ، وتعبر بأعذب من تعبيره ، وها هي ذى الآمال والأمانى تصغى كلُّها إلى هذا الصوت حينما ينبعث فيثيرها من مكامنها ، ويُذكى فى النفس أشجانَها ، وكأنه يبعثها من موتها ، ويحيل يابسها ناضرا ، وقفرها روضا زاهرا ؛ وكأنه ليس صوتَ إنسان ، بل صوت مَلَكٍ من ملائكة الرحمن ، ومن شكَّ فى أنها ملك بصوتها ، فما عليه — كما يزعم الشاعر — إلا أن يستمع إلى صوتها الملائكى الرائع ، فهو يحيل الشك فى ذلك يقينا ؛ وهو من نفاسته وسموه تود النسمات التى تحمله إلى الآذان لو ضنت به على غيرها ، ولو طوته فى أحشائها إن كان للنسمات أحشاء . . . .

وهكذا يسرف خيال الشاعر ، ويُبعد فى التصورات ...

ويبلغ تأثر الشاعر المكفوف بالاستماع والاعتماد على الأذن مبلغَه حين يقول إن العين المبصرة تتمنى حين ينطلق هذا الصوتُ العذب الحنون لو انقلبت أذنًا كى تشارك الآذانَ نعمةَ الاستماع إلى تلك الألحان ، كما تتمنى الآذانُ من شدة تأثرها بما سمعت لو استحالت عيونا ، لتشهد الصورة الرائعة الفاتنة لمن بعث هذا الصوتَ الرقيق الساحر الخلاب ...

وهو كذلك يهب لصاحبة الصوت حباتِ القلوب ، ويتمنى أن يظل سحرُ حديثها مرسَلا منبعثا ، ليستحيل اليأس رجاء وأملا ، ويرجو أن تبقى صاحبةُ الصوت تتحدث ، وتحسب أن مستمعيها ينسون كلامَها كلما نطقت ، فهى تعيد هذا الكلامَ وهم ينسون ، وهكذا إلى أبد الآبدين ...

فلنستمع إلى الشاعر المكفوف صاحبِ الأذن التواقة الذواقة الخبيرة المرنة الماهرة ، التى لا يفوتها من دقائق الاستماع وسرائر الأصوات شىء ،

فلنستمع إليه غير متحملين تبعة إسرافه أو شططه إذ يقول :

ما غَناء الراح قد ظلت سنينا ؟ حدِّثينا تبعثى النشوةَ فينـــا
فُمك الكأسُ ، فهاتى نصطبح من سُلافٍ لذةٍ للشاربينا
أسمعينا نبراتٍ أخجلت وترَ العود : حنـــانا وحنينا
وانطق تُصغى الأمانىُّ ، عسى أن تشائى قولَ : كن ، فتكونا
وابعثى شجوَ الهوى من منطق يلمس النفس فيُذكيها شُجونا
وانفثى من سحره فى ميِّتٍ تبعثيه قبـــل بعثِ العالمينـا
واهمسى فى يابسِ النبت به تُلبسيه نضرةً للناظرينا
مَلَكٌ أنتِ ، فلو شكَّ امرؤ حدِّثيه يَعُـــدِ الشكُّ يقينا
ألهميه منكِ فرقانَ الهوى فى حديثٍ يجعل الصبوةَ دينا
لو على المحراب منـــه كَلِمٌ خَشَع المحرابُ قبل الخاشعينا[1]
توشـــك النسمةُ إذ تحمله عنكِ أن تحسد فيه السامعينا
ودَّت النسمةُ لو ضنَّت به وضنينٌ كلُّ مَنْ يحوى ثمينا
تتمنى العينُ فيه لو غدت أذنا تحظى بحظ المنصتينا
ومُنى الآذان إذ تسمع عن مُجْتَلَى حسنِك لو كانت عيونا
فتنـــة جلَّ الذى أودَعَها فيكِ ، لا ندركها إلا ظُنونا
لك حبْاتُ القلوب انتظمت طوِّقى جيدَك منها والجبينا
أرسلى سحرك فى صوت ، إذا ماسَرَى فى اليأس مَنَّى اليائسينا

(١) قاتل الله الشعراء،إنهم فى كل واد يهيمون كما قال القرآن الكريم ، وقديما قيل:أعذب الشعر أكذبه ... وليت الشاعر خفف من غلوائه وإسرافه غفر الله له .

صاغه الله من الرفق ، كما ... صاغ ظلَّ الخلد والفيضَ المَعينا
ذاب حتى كاد يخفَى رقةً ... لستُ أدرى : أرنينا أم أنينا
حدثينا ، وأعيدى ما مضى ... من حديث واحسبى أنَّا نسينا !

* * *

والاستماع إلى ألحان الأوتار قريب من الاستماع إلى لهاة الإنسان ، ولذلك نرى الشاعر يلح فى الحديث عن شغفه بسماع الموسيقى وتأثيرها فى نفسه ، فهذا هو « العود[1] » تتناوله بين أحضانها عازفةٌ ماهرة ، فتغزو به من غزاها ، وتكاد الغيرة تعصف بالأوتار حينما تتنقل أصابعها عليه ، فكل وتر منها يحسد أخاه إذا ما مسته يداها ، ولحنُها فى زعم الشاعر يبعث فى اليائس نضرةَ العمر وبهجة الصبا ، وهو ترجمان خبير يهتك حجبَ النفس ، ويستخرج طوايا القلب ، على الرغم من التخفى والكتمان . . .

استمع إليه إذ يقول :

لامستْ فى النفس أوتارَ هواها ... غادةٌ بالسحر تغزو مَنْ غزاها
كلما مسَّت يداها وتراً ... حسد الآخرُ ما مست يداها
تمنح الأوتارَ كفًّا رَخْصةً ... أشجت الأوتارَ من قبلِ شجاها
ويكاد العودُ يُدمى كفَّها ... قُبَلا ، لو أن للعود شِفاها
لحنها يبعث فى ميت المنى ... نضرةَ العمر ، ومعسولَ صِباها
خفقاتٌ يخفُق القلب لها ... هى أنَّات فؤادى ، أو صداها
وحنين كاد من رقته ... أن يذيب اللحنَ فى العود مياها

(١) الديوان ، ص ٧١ .

وشجونٌ طالمـــا أخفيتُها نفذ العود إليها فحكاها
واستشف النفس عن أسرارها لم يدع خافيةً إلا جلاها !

* * *

لقد رأينا الشاعرَ يطرب الطربَ البليغ إذا أصغت أذنُه إلى الصوت الجميل تردده اللهاةُ الموهوبة المقتدرة ، من غير استعانة بآلات موسيقية ، ورأيناه كذلك يطرب الطربَ البليغ إذا أصغت أذنه إلى اللحن الفاتن الساحر ، تُصدره يد قادرة على بارع العزف والتلحين ، بآلة من آلات الموسيقى ، دون مصاحبة لغناءٍ باللسان : فماذا يكون حاله لو اجتمع هذا مع ذاك ؟... ماذا يكون وجدانُه حين يتلاقى اللسان الساحر مع الوتر الآسر ؟ . . . ماذا يكون شعوره حين يجتمع الصوت العذب الجميل مع الآلة الموسيقية المعبرة ؟... لا شك أنه يبلغ الذروة من التأثر والمتعة والاستغراق ، ولذا يقول من قصيدته : « بنان على بيان[1] » :

وافتنَّ فى سحر النُّهى شدوُ الأنامل واللسانِ
وهفـــا بلبّك فى أفا نين الصـــبابة ساحران
رناتُ ساحرةِ الغنـــا ءِ تجيب رناتِ المثـانى
بثَّت إلى الأوتار من حَرِّ الصـــبابة ما تُعانى
كم أودعت ألحانَهـــا فى الشوق من سحر المعانى
فتحس أوتارَ (البيـــا ن) وقلبَها يتشاكيان
لم يعرف الحبَّ المبرِّ حَ مثلُ أفئـــدة الغوانى

---

(١) الديوان ، ص ٥٩ ، والبيان هو البيانو .

فلرُبَّ حابســـةِ الدمو ع ، ودمعها فى الصدر قانى
حَبَسَ الحيـــاءُ بكاءَها فبكت بترجيع الأغانى !!

ويعود بعد أبيات يصور مكانةَ هذا اللحن ، وأنه من سماء القريحة لا من دنيا الناس ، وأن الوقور حينئذ ينسى وقاره ، ويمضى فى صبوته ، وأن الجبان يصبح شجاعا عند هذا السماع ، وأن نفس المكان — وهو جماد — قد طرب لما سمع من لحن ومن غناء ، فيقول :

وحيٌّ تنزَّل من سما ءِ قريحةٍ ذاتِ افتنانِ
تُنسى الوقورَ وقارَه طربا ، وتمضى بالجبان
وتخـــال بالأوتار نا رَ الشوق تضرمها اليدان
لاقت أناملُها (البيـــا نَ) كما تلاقى عاشقان
يتضاحكان من السرو ر ، وفى الأسى يتباكيان
فى نغمة أحسست من طربٍ بها طربَ المكان !

٭ ٭ ٭

لقد أطلت فى الحديث عن هذه الناحية من نواحى الشاعر المكفوف أحمد الزين ، لأنها تذكرنا بمبلغ اعتماد المكفوف على سمعه فى الإدراك وتتبع الأشياء ، ولأنها تُرينا درجةَ الاقتدار فى التصوير الفنى عند هذا الشاعر .

وإذا كان الشاعر الحساس قد أعجب بالصوت الحسن كلَّ هذا الإعجاب ، سواء أكان غناءً أم لحنا ، فإنه من الطبيعى أن يستاء كلَّ الاستياء من الصوت القبيح ، وأن يحمل على أصحاب الأصوات المنكَرة حملةً شديدة

عنيفة ، فهم عنده أشبه بالحمير التى تنهق ، وإن أشدَّ ما يغيظه أن يسمع ثناء على مغنّ سيئ ، لذلك يقول :

إن سمعنا ناهقا قلنا له : إيه يا معبد[1] بالصب ارفقِ
نكذب العصرَ كما يكذبنا بثْر مَيْن ، فاسقِ منها واستق

ويعود ليقول فى مغن سقيم سيئ الصوت — وكان قد دعى إلى سماعه فى إحدى الليالى فضاق بغنائه وتبرم —:

حمار لا يَمَلُّ من النهيقِ يضيق به التجلدُ أىَّ ضيقِ
مُنِى الأوتارِ لو أمست سياطاً يُصَبُّ بها على الجلد الصفيق
بطانتُه — حماك الله — رهط كأن صياحَهم جَرَسُ الحريق!!

ويعود إلى وصف مغن يسيئ إلى فن الغناء ، فيرجوه أن يقطع الغناء ، لأن غناءه يُبعد السرورَ ويجلب الأحزان . وهو فى غنائه ذو رخاوة تُذهب عزم الرجال ، وتوجد الضعف والجبن فى الشجعان ، وهو يخلط بين أنغام الشرق والغرب ليقال إنه مجدد ، ولكنه يجيء بالخلط والفوضى لا بالتجديد ، وهو يعتمد على الندب والنواح والبكاء والآهات فى كل موطن ، بلا تفرقة أو تمييز ، وهذا يدل على الذوق السقيم والحس البليد ، فيقول :

نفّرتَ طيفَ السرور عنى بحُرمة الفن لا تغنِّ !
رخاوة فى الغناء كادت تُذهب عزمَ الرجال منِّى
أردتَ بين الغناء مَزْجا فجاء خَلْطاً بغير فن !

---

(١) معبد : مغن عباسى مشهور.

ما بين شرق وبين غرب حيرتَ فى حالتيك ظنى
فى كل معنى تنوح ، قل لى : أنادبٌ أنت أم مُغَنِّى ؟
تبكى إذا ما الحبيبُ وافَى ما أشبه الوصلَ بالتجنى
تبلد الحسُّ منك ، حتى يئستَ فى موضع التمنى
تُعْذَر فى النوح إذ تُعَزِّى قل لى فما العذر إذ تُهَنِّى ؟!
أُقسم لم أهْجُه ، ولكن يقول لى الحقُّ : لا تَخُنِّى !!

وها هو ذا الشاعر يضيق كلَّ الضيق بهذا التهريج فى الغناء ، مما يسمونه باسم التجديد والابتكار ، وهو صياح شبيهٌ عند الشاعر بخُوار الثيران ، فهم يعتمدون على الآهات بمناسبة وبغير مناسبة ، وهم يأتون بالأغانى لا معنى لها ولا صياغة ، فهى مجنونة فى معانيها وأدائها ، وهم يرددون كلمة : « ياليل » حتى ضجت منهم الليالى ، لأنهم أقلقوا مَنْ فيه بصياحهم المرعب الفظيع ، فهم لا يستحقون إلا السياط ، ولو من أوتار آلاتهم ، لتأديبهم على ما اقترفوا فى حق الفن والغناء . يقول :

فاستمع للغناء تسمع صياحا كخوار الثيران لو يصفونه
إن تَغَنَّوْا بالحب عاد سُلُوًّا يزعجون الهوى بما يُسمعونه
كلُّ آهٍ تمحو من القلب ذكرى وتُميت الهوى ، ومن يعشقونه
نغمات ما بين غَرْب وعُرْب ليس يُدْرَى أحرة أم هجينه[1]
وأغانٍ مجنونة فى المعانى لفقتها صياغةٌ مجنونه

(١) الهجنة بالضم من الكلام ما يعيبه ، وفى العلم إضاعته . والهجين : اللئيم ، وعربى ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه .

وليـالٍ تضج منها الليالى تدع الليلَ لا يذوق سكونَه
تتمنى الأوتارُ لو أنهـا أمست سياطا تشوى الوجوهَ الثخينه !

* * *

رحم الله الشاعر الموهوب أحمد الزين جزاء ما قدم لدولة الفن والشعر والأدب ، وألهم قومه أن يعنوا بدراسة شعره وتخليد ذكره ، وجمعِ المنثور من بحوثه وآثاره ، حتى يقضوا بذلك حق الأدب ، ويكونوا من أهل الوفاء . ولعلهم يستجيبون !!...

الفكاهة عند المكفوفين

الفكاهة لون من الترفيه والترويح عن النفس أو عن الغير فى هذه الحياة، فقد يتفكه المرء لأنه يريد بفكاهته أن يُسعد قلبَه أو يُبهج نفسَه، وقد يتفكه آخر ليدخل السرور على سواه ؛ وفى الناس قوم مفطورون — أو شبه مفطورين — على الفكاهة وروح الدعابة، فهم لا يخضعون لحزَن، ولا يستغرقون فى شجن، ولا يأخذون الحياة بزمام الجدِّ والتزمت والوقار فى سائر الأطوار، بل تَراهم يطلقون النكتةَ ولو فى الموقف الشديد الصارم، فإذا هذه النكتة كالبلسم أو كالدواء المخفِّف.

وليست الفكاهة دليلَ السعادة الداخلية أو الاطمئنان النفسى دائماً، فقد يتفكه الحزين تخلُّصًا من حزنه، وهرباً من ألمه، وربما أدى الألم البليغ إلى نوع من الفكاهة يكون كردٍّ فعل لهذا الألم البليغ، ومن هنا قال القائل: «وشر المصائب ما يُضحك».. وإذن يكون من الخطأ اعتبارُ كلِّ متفكه سعيداً أو مسروراً أو خالى البال ؛ والشاعر يقول :

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طرب   فالطير يرقص مذبوحا من الألم

ولأهل الفكاهة أحوال، فقد يتفكه المتفكه لأن روح الفكاهة فى طبعه، أو «فى دمه» كما يعبِّرون، فهو يتفكه مع خاصته، ومع معارفه، ومع من لم يعرِفه، وهو يتفكه فى أوقات الرضا، وفى أوقات الألم.

وقد يتخذ المتفكه الفكاهةَ وسيلةً للتنفيس عن ألم دفين، أو التخفيف من هم عميق ؛ وقد يتفكه المتفكه للسخرية والاستخفاف ؛ وقد تُستخدم الفكاهةُ للتعريض والنقد الملفوف، وذلك عند الخوف من المجاهرة بالرأى الجاد أو الفكرة الصريحة، ويكثر هذا اللون من الفكاهة فى عهود الاستبداد

وعصور الطغيان ، ومن هنا كانت الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها ذات باع طويل فى النكتة اللاذعة والدعابة الواخزة .

وبعض الفكاهات يكون غرضها الأساسى إصلاحياً ، وبعضها يكون مزيجا من التوجيه والدعابة ، وبعضها للتسلية فقط ؛ وبعضها يكون جميلا مقبولا ، وبعضها يكون فاحشاً مرذولا .

وحينما نراجع تاريخ الكبار من الرجال نجد أن الكثيرين منهم كانوا يُحسنون الجمع بين الجد والفكاهة ؛ وللمكفوفين كذلك فكاهاتهم الملفوفة والمكشوفة ، وبعضهم فى فكاهته أبرع أوأوجع من المبصرين .

ومن أشهرهم فى ذلك أبو العيناء ، وبشار بن برد .

وسيرة بشار معروفة مشهورة عن طريق شعره ، فلا داعى للتطويل فى التعريف به ، ولكن أبا العيناء مجهول للكثيرين منا ، فلا بأس فى التعريف به . فهو أبو العيناء محمد بن القاسم اليمامى البصرى الأخبارى الأديب الشاعر ، وُلد بالأهواز سنة إحدى وتسعين ومئة ، وتُوفى ببغداد سنة ثنتين وثمانين ومئتين ، أو ثلاث وثمانين ومئتين ؛ وقد ترجم له فى معجم الأدباء ، ونكت الهميان ، وبغية الوعاة ، والأغانى .

وكان فصيحاً بليغاً من ظرفاء العالم ، آية فى الذكاء واللسن ، وسرعة الجواب وخفة الظل ، ويقال إن جَدَّ أبى العيناء الأكبر لقى علىّ بن أبى طالب فأساء المخاطبة معه ، فغضب الإمام على ودعا عليه بكف البصر وعلى ولده من بعده ، فكل من كف بصره من ولد أبى العيناء فهو صحيح النسب فيهم ، وأنا أستبعد حدوثَ ذلك الدعاء من الإمام على رضى الله عنه ، إذ يبعد أن يدعو على الرجل بكف البصر من أجل خشونة فى الخطاب ...

ثم ما ذنب الأولاد والذى أساء إنما هو أبوهم ؟ ...

ويظهر أن أبا العيناء كان فى أول أمره أحولَ ثم كف بصره بعد ذلك ؛ فمن شعره الدال على هذا قوله :

حمدتُ إلهى إذ بلانى بحبِّها ... على حَوَل يغنى عن النظر الشزرِ
نظرت إليهـــا والرقيب يظننى ... نظرتُ إليه فاسترحت من العذر

وقال المبرد : إنما صار أبو العيناء أعمى بعد أن نيَّف على الأربعين ، وخرج من البصرة ، واعتلت عيناه ، فرُمى فيهما بما رمى . وقال فيه أبو على البصير :

قد كنتُ خفتُ يدَ الزما ... ن عليك إذ ذهب البصرْ
ولَمَ أدر أنك بالعمى ... تغنى ويفتقـــر البشر !

وعلى الرغم من أن كف البصر لم يمنع أبا العيناء أن يكون عظيما ، فقد كان يأسى ويحزن لفقد بصره .

قال له أحمد بن أبى دؤاد : ما أصابك فى ذهاب بصرك ؟. فقال : أُبدأ بالسلام ، وكنت أحب أن أكون أنا المبتدئ ، وأحدث من لا يقبل على حديثى ، ولو رأيته لم أقبل عليه .

فقال له ابن أبى دؤاد : أما من بدأك بالسلام فقد كافأته بجميل نيتك له ، وأما من أعرض عن حديثك فإنما أكسب نفسَه من سوء الأدب أكثر مما نالك من سوء الإعراض . فأنشد أبو العيناء كأنما يتراجع عن بعض حزنه :

إن يأخذ الله من عينىَّ نورَهما ... ففى فؤادى وسمعى منهما نور
قلبى ذكىٌّ ، وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مأثور

وهذا التفجع من أبى العيناء على ذهاب بصره يذكرنا بقول الخريمى الشاعر المكفوف :

أسعى إلى قائدى ليخبرنى   إذا التقينا عمن يحيينى
يريد أن أعدل السلام ، وأن   أفصل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى فأكره أن   أخطئ ، والسمع غير مأمون
لله عينى التى فجعت بهـا   لو أن دهرا بها يواتينى
لو كنت خُيِّرت ما أخذت بها   تعمير نوح فى ملك قارون[1]

وكان لأبى العيناء أخلاقُ الرجال ، ومنها الوفاء ، وتقدير الجميل ، وعرفان الصنيع ، مما يدل عليه الموقف التالى :

كان المأمون يعطى أبا العيناء ويكرمه ، فلما مات بكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت عيونُه وهو مكفوف ، فقال له أحد أولاده : ياأبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء ؟ . فقال أبو العيناء :

شيئان لو بكت الدماءَ عليهما   عينـاى حتى يؤذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حقيهما   فقد الشباب وفرقة الأحباب

ومما يدل على رجوليته وفتوته قوله :

ألم تعلمى ياعمرك الله أننى   كريم على حين الكرام قليلُ
وإنى لا أخزى إذا قيل : مقتر   جواد ، وأخزى أن يقال : بخيل

---

(١) يقول الله تعالى عن طول عمر نوح فى سورة العنكبوت : «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون» . وقال عن غنى قارون فى سورة القصص : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وإلا يكن عظمى طويلا فإننى ... له بالخصال الصالحات وَصول

إذا كنتُ فى القوم الطوال علوتهم ... بعارفة ، حتى يقال : طويل

ولا خير فى حسن الجسوم وطولها ... إذا لم يزن طولَ الجسوم عقولُ

وكائن رأينا من جسوم طويلة ... تموت إذا لم تحيهن أصول

ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه ... فحلو ، وأما طعمه فجميل

وكان أبو العيناء رجلا بصيرا بعيوب الأحياء ، شديد الحساسية بخطر هذه العيوب ، ولذلك كان يشتد فى نقد أصحابها . فهو مثلا يقول هاجيا أسد بن جوهر :

تعس الزمان ، لقد أتى بعجابِ ... ومحا رسومَ الظرف والآدابِ

وافى بكُتّاب لو انبسطت يدى ... فيهم رددتهم إلى الكُتّاب

جيل من الأنعام ، إلا أنهم ... من بينها خُلقوا بلا أذناب !

وكثيرا ما كان يضيق بالدنيا ، ويترجم عن هذا الضيق بشعر ثائر مائر ، كأن يقول :

تولت بهجةُ الدنيا ... فكل جديدها خَلَقُ

وخان الناسُ كلُّهم ... فما أدرى بمن أثقُ

رأيت معالم الخيرا ... ت سُدَّت دونها الطرق

فلا حسبٌ ، ولا أدب ... ولا دينٌ ، ولا خُلق !

وكان يهاب الردى ويخاف الموت ، فهو يصور الأرض كأنها تزرع الناس وتنشئهم ، حتى إذا استووا وبلغوا أشدَّهم ، عادت فصرعتهم . يقول :

ياويح هذى الأرض ، ماتصنع ... أكلَّ حى فوقها تصرعُ ؟

تزرعهم ، حتى إذا ما أتوا أَشُدَّهم تحصـــد ما تزرع !

وكان أبو العيناء يسخر من اختلال الأوضاع فى المجتمع ، فهو يرى العيي الأحمق يقود غيره ويسود سواه ، لأنه يملك الدراهم فحسب ، والناس يثنون عليه ويمدحون فيه ، ولولا ماله لاعتبروه شرَّ الخليقة ، وهم يحملون على الفقير حملات شعواء ، وليس له ذنب سوى أنه فقير : وهكذا ترى الناس عبيدا للذهب ، يميلون معه حيث مال . وما من مذمة للغنى إلا ويجعلونها له محمدة ، وما من محمدة للفقير إلا ويجعلونها مذمة . فيقول أبو العيناء :

من كان يملك درهمين تعلمت شفتاه أنواعَ الكلام فقالا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التى فى كيسه لرأيتــــه شرَّ البرية حالا
إن الغنىَّ إذا تكلم كاذبا قالوا : صدقتَ وما نطقتَ محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا : لم تصب وكذبتَ يا هذا ، وقلت ضلالا !
إن الدراهم فى المواطن كلِّها تكسو الرجالَ مهابةً وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحةً وهى السلاح لمن أراد قتالا

* * *

وأظن أن فى هذا القدر من الكلام عن أبى العيناء كفايةً للتعريف به ، وننتقل بعد هذا إلى حديث الفكاهة .

ونبدأ بالفكاهة التى يغلب عليها طابع التوجيه :

تخاصم أبو العيناء يوما مع رجل ينتسب إلى العلويين ، ويدعى أنه من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال العلوى لأبى العيناء : كيف تخاصمنى وقد أُمرتَ أن تقول فى دعائك : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ،

وأنا من آل محمد ؟ . فقال أبو العيناء : « إنى أقول : الطيبين الطاهرين ، فتخرج أنت » !! ...

وهذه الفكاهة تنطوى على توجيه وإرشاد ، وفيها تنفير من الافتخار بالنسب وحده ، وإعلام بأن المدار على التقوى ، يقول الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ! ...

وهذا يذكِّرنا بما حدث من بشار إذ كان جالساً فى دار المهدى والناس ينتظرون الإذن ، فقال بعض موالى المهدى : ماعندكم فى قول الله عز وجل : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » ما هى النحل ؟ . فقال بشار : النحل هى التى يعرفها الناس . فقال الرجل : هيهات ، النحل بنو هاشم ؛ وقوله بعد ذلك : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يعنى العلم .

فقال له بشار : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فقد أوسعتنا غثاثة[1] !! . . .

وبلغ الخبرُ المهدىَّ فضحك كثيرا ، وقال للرجل : جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم ، فإنك غث بارد ! ..

ولا شك أن فكاهة بشار تنطوى مع سخريتها على نهى عن سوء التأويل فى القرآن ، وفيها كذلك إحراج للمجادل المشتط !! ...

وأقبل على أبى العيناء رجل من العامة ، فلما أحس به أبو العيناء قال :

---

(١) الغثاثة : الهزال والفساد ، وغث الحديث فسد كأغث ، والغثيثة فساد فى العقل ، والأحمق لا خير فيه .

من هذا ؟ فأجاب المقبل : رجل من بنى آدم . فقال أبو العيناء : مرحبا بك ، أطال الله بقاءك ، كنتُ أظن أن هذا النسل قد انقطع !! ...

وفى هذا الرد إشارة إلى قلة الرجال المتصفين بالرجولية وأخلاقها ، وهذا يذكِّر بما كان من « ديوجين » حين كان يحمل فى النهار المشرق المبصر مصباحا مضيئا ، ويسير به فى الطرقات ، فإذا سئل : لماذا تحمل هذا المصباح المضىء ؟ . أجاب : إنى أفتش عن إنسان ! !...

وكذلك يذكِّر بقول دعبل الخزاعى :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلَّهُم ... الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها ... على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

ويقول أبو العلاء :

أبا العلاء ابنَ سليمانا ... إن العمى أولاكَ إحسانا
لو عاينت عيناك هذا الورى ... لم ير إنسانُك[1] إنسانا !

* * *

ودخل أبو العيناء على المتوكل الخليفة العباسى ، فى قصره المعروف بالجعفرى ، سنة ست وأربعين ومائتين ، وكان فخما رائعا ، فقال له المتوكل : ماتقول فى دارنا هذه ؟ . فأجابه أبو العيناء : إن الناس بنوا الدُّورَ فى الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا فى دارك !!...

وهذا تعريض لبق ذكى بالإسراف فى البناء والغلو فى التشييد ، وهو تعريض كذلك بأن هذا كلَّه متاع الدنيا ، وأن الآخرة خير وأبقى !...

---

(١) يريد بقوله : « إنسانك » إنسان العين .

وبلغ أبا العيناء أن المتوكل قال عنه : لولا أنه ضرير لنادمناه ! فعلق أبو العيناء على تلك الإجابة قائلا : إن أعفانى من رؤية الأهِلّة ، وقراءةِ نقش الفصوص ، صلحتُ للمنادمة !...

وهذا تعريض بالخطأ فى الحكم ، إذ أن المنادمة لا تستوجب بصر العينين ، بل تعتمد على الإسماع والسماع ؛ والمرء بأصغريه : قلبِه ولسانه !.

وقريب من هذا ما حدث لبشار بن برد ، إذ كان ينشد المهدىَّ شعراً ، وعنده يزيد بن منصور ، فقال له يزيد — وكانت فيه غفلة — : ما صناعتك أيها الشيخ ؟ .

فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ !!.. فضحك المهدى وقال لبشار : أتتنادر على خالى ؟ .

فأجاب بشار : وما أصنع له ؟ يرى شيخا أعمى يُنشد الخليفةَ شعرا ، ويسأله عن صناعته ؟ !...

وهذا تذكير بالتروى فى السؤال ، ونهى عن لغو القول وفُضوله !.

وكان أبو العيناء فى داره ، فدقَّ عليه البابَ زائر ، فقال أبو العيناء : مَنْ بالباب ؟ . فقال الطارق : أنا . فقال أبو العيناء : (أنا) والدق سواء !!...

أى أن كلمة « أنا » التى قالها الطارق لا تختلف عن دقِّه على الباب ، إذ أنه حينما دقَّ عرف أبو العيناء أن شخصاً يطرق الباب ، وهو يريد أن يعرف من هو ، وكل شخص يستطيع أن يقول عن نفسه : « أنا » ولا يكون هناك تعريف كافٍ ؛ وكان من الواجب على الطارق حين سئل عن نفسه أن يجيب : أنا فلان بن فلان ، حتى يعرفه أبو العيناء ويستأنس به ...

وفى هذه الفكاهة من أبى العيناء توجيه إلى أن يكون الجواب على قدر السؤال ، وأن يلاحظ الطارقُ أدب الاستئذان فيعرِّف بنفسه تعريفاً واضحاً حينما يُطلَب منه ذلك .

ورفع غلامُ بشار إليه فى حساب نفقته عشرة دراهم جُليت بها مرآة ، فقال بشار متعجبا : ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ، والله لو صدئت عينُ الشمس حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرةَ دراهم !! ..

وهذا تعريض بالسرقة ، وإفهام للغلام أن الكفيف لا يُخدع بسهولة . ويحسن أن نلاحظ وصف بشار المرآة بأنها مرآة مكفوف ، فهذا له قيمته فى تقوية عنصر السخرية فى الدعابة ، لأن المكفوف لا يحتاج إلى المرآة ، إذ لا يتطلع إليها ، فلو بقيت غير مجلوة ، أو جُليت جلاءً غير كامل لما كان هناك ضرر ! ...

٭ ٭ ٭

ومن ألوان الفكاهات عند المكفوفين الفكاهةُ التى يكون فيها مع التوجيه ذم وغمز أليم :

قال بعضهم لبشار بن برد يسخر منه : ما أذهب الله كريمَى مؤمن إلا عوَّضه الله خيراً منهما ، فبم عوَّضك ؟! . فأجابه بشار : عوَّضنى بعدم رؤية الثقلاء من أمثالك !! ..

وقد أراد السائل الساخر أن يطعن بكلمته بشارا ، فطعنه بشار بأقسى من طعنته وأوجع ، وهذا يذكِّر بموقف ابن الجوزى حين أنشد فى بعض مجالس وعظه :

أصبحتُ ألطفَ من مرِّ النسيم سرى   على رياض ، يكاد الوهم يؤلمنى
فى كل معنى لطيف أجتلى قدحا   وكل ناطقة فى الكون تطربنى !

فقال له شخص يقصد العبث : يا مولانا ، أنت تقول : « وكل ناطقة فى الكون تطربنى » فماذا تقول إذا كان الناطق حماراً ؟ . فقال ابن الجوزى : أقول له اسكت يا حمار !! ...

فخجل السائل ولم يحر جوابا .. وسكت الحمار !! . .

ولقد رأى بعضُ الناس كفيفاً يمشى بالليل ، وعلى كتفه جرة ، وفى يده مصباح مضىء ، فقال له : يا هذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواء ، فما معنى السراج ؟ .

فقال له المكفوف : يا فضولى ، حملته معى لأعمى البصيرة مثلك يستضىء به ، فلا يعثر بى ، فأقع أنا وتنكسر الجرة !! ...

وقال رجل من ولد سعيد بن مسلم لأبى العيناء : إن أبى يبغضك . فقال أبو العيناء : يابنى لى أسوة بآل محمد صلى الله عليه وسلم . (أى أن أباه يبغض آل الرسول عليه الصلاة والسلام) .

وقال المتوكل يوما لأبى العيناء : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فأجاب : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » !! ..

* * *

وهناك للمكفوفين فكاهات يغلب عليها التندر والسخرية :

مر بشار على قوم يحملون جنازة ويسرعون بصاحبها ، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرقوه ، فهم يخافون أن يُلحَقوا فيؤخذ منهم ؟ ! ...

وحق لبشار أن يقول ذلك ، فإن الجنازة مجال من مجالات الذكرى ، وموطن من مواقف الموت الذى يناسبه الخشوع والاطمئنان .

وسمع بشار قاصًّا يقول فى وعظه : « من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة ، صحنه ألف فرسخ فى مثلها ، وعلوُّه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ فى مثلها » !! ...

فقال بشار لمن معه : بئست ـ والله ـ هذه الدار فى كانون الثانى (يناير) !..
وهذا فيما يظهر ليس تهكما بالدين ، أو سخريةً بالثواب فى الآخرة ، ولكنه تهكم على الطريقة التى اتبعها ذلك الواعظ الشعبى فى تحبيب الناس فى الصيام طمعاً فى نعيم الجنان .

ومر بشار برجلٍ قد رفسته بغلتُه وهو يقول : الحمد لله شكراً ، فقال له بشار : استزده يزدك !! . . .

وهذا يذكِّر بما رُوى من أن الحجاج أخذ أعرابيا لصا بالمدينة ، فأمر بضربه ، فلما قرعه بالسوط قال : يارب شكراً . حتى ضربه سبعمائة سوط ـ هكذا الرواية !! ـ فلقيه أشعب فقال له : أتدرى لِمَ ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ . قال الأعرابى : لا . قال أشعب : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » . فقال الرجل : وهذا فى القرآن ؟ . قال أشعب : نعم . فقال الأعرابى :

يا ربِّ لا شكرَ ، فلا تزدنى   أسأتُ فى شكرىَ فاعف عنى
باعدْ ثوابَ الشاكرين عنى !

وكان بين أبى العيناء وبين معاصره محمد بن مكرم مداعبات مقذعة جدا ، وبعضها مذكور فى كتاب « معجم الأدباء » ، ومن أخفها أن ابن مكرم قال

لأبى العيناء : مذهبى الجمع بين الصلاتين . فأجابه أبو العيناء : صدقتَ ، فأنت تجمع بينهما بالتَّرْك !! ..

وقيل لأبى العيناء : ما تقول فى محمد بن مكرم والعباس بن رستم ؟ فقال : هما الخمر والميسر ، إثمهما أكبر من نفعهما !! .

وبات أبو العيناء ليلةً عند ابن مكرم ، فجعل ابن مكرم يفسو عليه ، فقام أبو العيناء وصعد على السرير ، فصعد الفساء إليه ، فصعد إلى السطح ، فبلغته الرائحة ؛ فقال له : يا ابن الفاعلة ، ما فساؤك إلا دعوة مظلوم !!...

وهو يشير إلى ما ورد فى الحديث الشريف : « اتقوا دعوةَ المظلوم ، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » . وفى رواية : « اتق دعوة المظلوم ، فإنما يسأل الله تعالى حقَّه ، وإن الله تعالى لن يمنع ذا حق حقَّه » .

وفى الحديث : « ثلاث دعوات يستجاب لهن لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد لولده » رواه ابن ماجه .

وقدَّم ابنُ مكرم إلى أبى العيناء قِدْرا يطعم منها ، فوجدها كثيرةَ العظام قليلة اللحم ، فقال أبو العيناء : أهذه قدر أم قبر ؟! .

وهو يشير بذلك إلى أن الجسم إذا وضع فى القبر زال اللحم بعد مدة ، وبقى العظْم !! ..

وأحياناً يتهكم المكفوف فيوجِع ، مثل قول رُسته الأصبهانى[1] :

---

(١) كان فى شعره شبيها ببشار ، وقدم إلى بغداد ، وأدخل على زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد ، وكان دميما فقالت : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . فقال : أيها السيدة ، إنما المرء بأصغريه . ثم أنشدها وأخذ جائزتها .

أيهـــا الإخوة الذين لسانى ... فى قديم الزمان عنهم كليلُ
جئتكم للسلام ، حتى إذا ما ... صحت شهرا كما يصيح الذليل
قيل : قد أُدخِل الخِوانُ عليهم ... قلتُ : مالى إذًا إليهم سبيل[1] !

وشكا أبو العيناء إلى عبيد الله بن سليمان تأخر عطائه ، فقال له : ألم نكن كتبنا لك فى ذلك إلى ابن المدبر ؟ فما فعل فى أمرك ؟ . قال أبو العيناء : جرنى على شوك المطل ، وحرمنى ثمرة الوعد .

فقال عبيد الله : أنت الذى اخترته . فقال أبو العيناء : وما علىَّ وقد اختار موسى قومه سبعين رجلا ، فما كان منهم رشيد ، فأخذتهم الرجفة ؛ واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتبا ، فلحق بالمشركين مرتدا ؛ واختار على ابن أبى طالب أبا موسى الأشعرى حَـكَماً فحكم عليه ؟!.

ووهب بعض الوزراء لأبى العيناء دابة دون أن يعطيه علفاً لها ، فقال له أبو العيناء بعد قليل : أيها الوزير . هذه الدابة حملتنى عليها ، أم حملتها علىَّ ؟...

ووعد ابن المدبر أبا العيناء أن يعطيه بغلا ، وأبطأ عليه فى تحقيق ذلك ، فلقيه فى الطريق ، فقال له ابن المدبر : كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟ . قال : أصبحت بلا بغل !!... فضحك منه وبعث به إليه .

* * *

وهناك للمكفوفين فكاهات يسودها الترويحُ عن النفس :

---

(١) الخوان بوزن الغراب والكتاب : ما يؤكل عليه الطعام .
ومن باب هذا الهجاء قول الآخر :
قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار

أُلقيت إلى أبى خليفة الفضل بن الحباب الجمحى المكفوف رقعةٌ فيها هذه الأبيات :

قل للحكيم أبى خليفه : يا زينَ شيعة ابى حنيفه
إنى قصـــدتك للذى كاتمتُ من حذر وخيفه
ماذا تقول لطَفْلَةٍ[1] فى الحسن منزلها شريفه
تصبو إلى زين الورى من غيرما بأس ، عفيفه؟!

فقرأ الفضل الورقة ، ثم كتب على ظهرها :

يا من تكاملَ ظَرفُها حالُ الهوى حال شريفه
إن كنتِ صادقَة الهوى كاتمتِ من حذر وخِيفه
فلك السعادةُ ، والشها دة ، والجلالة ، يا شريفه
هـذا النِّصاح[2] بعينه وبه يقول أبو حنيفه !

وقال أبو هفان الشاعر : مررت بسُوسنة قبل أن يكف بصره ، فقلت له : أجِزْ هذا البيتَ :

ما ترى فى فتى أحبَّ وما يمـــلك فى وقت حُبِّه نصفَ فلسِ ؟

فقال على الفور :

ما أرى غير عزله فى سكون وطمأنينة ، وفى حسن حسِّ

---

(١) الطفلة بفتح الطاء وسكون الفاء : المرأة الناعمة فى الأساس : « وامرأة طفلة ، وطفلة الأنامل : ناعمة » . والطفل بفتح الطاء : الرخص الناعم من كل شىء .

(٢) لعله أراد المناصحة ، لأن فاعل يكون مصدره الفعال والمفاعلة ، كقاتل قتالا ومقاتلة ، وفى القاموس أن النصاح هو الخيط والسلك ، فلعله أراد أن هـذا الحـكم هو الخيط الذى يمسك به .

فإن انقاد للملامة والعذ ل، وإلا لحقه ألف قَلْس[1] !

وقال له بعد أن كف بصره : أجز لى هذا البيت :

يا أحسنَ الناس وجها وأعذبَ الخلق لفظا

فما لبث أن قال :

حمى العمى حظَّ عينى فاجعل لقلبى حظا
فقد جعلت بنانى عينا، وقرصى لحظا
فأَدْنِ خدَّك منى ولا تكن بىَ فظًّا

وتزوج رجل كفيف من امرأة قبيحة الشكل ، فقالت له : لقد رُزقتَ أجملَ النساء وأنت لا تدرى !. فقال لها : يا بظراء[2] ، فأين كان البُصَراء عنكِ قبلى ؟!...

ويقرب من هذا أن جارية لأبى العيناء تشاجرت معه يوما ، فقالت له : يا أعمى[3] ؛ فقال لها : والله ما أستعين على وجهك بشىء أصلح من العمى ! ... إذ يستريح من رؤيتها لأنه كفيف !..

وجاء رجل إلى بشار يسأله عن منزل بعض الناس ، وجعل بشار يشرح له وهو لا يفهم ، فأخذه بشار من يده إلى المنزل ، وهو يقول :

---

(١) القلس : ما خرج من الجوف ملء الفم أو دونه وليس بقىء . والتقليس وضع اليدين على الصدر والانحناء خضوعا واستكانة .

(٢) البظر بفتح الباء : الهنة التى تقطعها الخافضة (وهى المرأة التى تقوم بعملية الختان للنساء) من فرج المرء عند الختان . وجاء فى الحديث : « ياابن مقطعة البظور » لأن أمه كانت تختن النساء ، والعرب تذكر هذا اللفظ فى معرض الذم للشخص ، وإن لم تكن أمة خاتنة ، والبظراء : المرأة الطويلة البظر ؛ يراد بذلك ذمها .

(٣) انظر صفحة ٥٤ من هذا الكتاب ..

أعمى يقود بصيرا ، لا أبالكمُ قد ضلَّ من كانت العميانُ تهديه !

فلما وصلا البيت قال له بشار : هذا هو البيت يا أعمى !!...

وكان لبشار أخوان هما : بشر وبشير ، وكانا جزَّارين ، وكانا يلبسان ثيابَ بشار فيوسِّخانها ، ويُنْتنان رائحتَها ، فإذا دعا بشار بثوب فلبسه وأنكر رائحتَه قال : « أينما أُوَجَّه ألق سعدا » ؟..

وكان يخرج إلى الناس أحيانا فى هذه الثياب ، فإذا قيل له : ما هذا يا أبا معاذ ؟. قال : هذه ثمرةُ صلةِ الرحم !!...

ويروى أن اللص دخل دار الفضل بن الحباب الكفيف ، فصاح ابنه باللص ، فخرج الفضل إلى صحن الدار وقال : أيها اللص ، مالكَ ولنا ؟... إن أردتَ المالَ فعليك بفلان وفلان ، إنما عندنا قمطران ، قمطر فيه أحاديث ، وقمطر فيه أخبار ؛ إن أردت الحديثَ حدثناك عن أبى الوليد الطيالسى ، وأبى عمر الجوصى ، وابن كثير وهو محمد ؛ وإن أردت الأخبار أخبرناك عن الرياشى ، وعن الأصمعى ، وعن محمد بن سلام ... فصاح ابنه : يا أبتِ ، ليس إلا الخير ، إنما هو سِنَّور !! ...

فقال الفضل : الحمد لله الذى مسخه هرا ، وكفانا شرا !! ...

ولأبى الفتح بن التعاويذى الشاعر المكفوف من شعره الضاحك ما يتصل بميدان الفكاهة ، كقوله فى جبة قديمة له :

جبة طال عمرها ، فغدت تصلح أن يُسمَع الحديثُ عليها

كلما قلتُ : فرَّج الله منها أحوجت خسةُ الزمان إليها

وهذا يذكِّر بما كان من حافظ إبراهيم حين رآه بعض أصدقائه يواظب

على لبس بذلة واحدة فسأله عن ذلك ، فأجاب حافظ : إننى أحب هذه البذلة كثيراً ، لأنها تشارك الله فى صفتين : الوحدانية والقِدَم !.

ولابن التعاويذى الكفيف أيضاً قوله :

إذا اجتمعت فى مجلس الشرب سبعةٌ فبادِرْ ، فما التأخيرُ عنه صوابُ
شِواء ، وشَمَّام ، وشهد ، وشادن وشمع ، وشادٍ مطرِب ، وشراب !

وأنت ترى أن ابن التعاويذى قد جمع فى بيته الثانى المرغِّبات المشهِّيات ، وجعل كلا منها يبدأ بحرف الشين ، وهذا يدل على براعة وتلطف ... وأنت ترى أنه قد جعل الشِّواء رمزًا للطعام ، والشمام للفاكهة ، والشهد للحلوى ، والشادن[1] للجمال ، والشمع للنور والضياء ، والشادى للغناء ، والشراب للشرب ، فماذا وراء ذلك ؟ !..

ومما هو شبيه بهذا فى البراعة والتلطف قول أبى العنبس الصيمرى[2] : « قِوامُ أمرِ الإنسان بتسع دالات : دار ، ودينار ، ودرهم ، ودقيق ، ودابَّة . ودِبْس ، ودَن ، ودَسَم . ودعوة » !...

والدبس عسل التمر أو النحل ، والدَّنُّ : الراقود العظيم ، والراقود إناء من خَزَف مستطيل مَطْلِىٌّ بالقار ، والدسم اللحم والشحم ، والدعوة الدعاء

* * *

ومرَّ أبو العيناء يوما على دار عدوٍّ له فسأل عنه : ما خبرُ أبى محمد ؟.

---

(١) الشادن هو الظبى ، ويكنى به عن الفتاة الجميلة .

(٢) هو محمد بن إسحق بن إبراهيم ، الشاعر الأديب الخبيث اللسان ، كان كثير الهجاء والهزل والفكاهة ، وله كتب كثيرة . منها الجاد ومنها الهازل ، وكان ينادم المتوكل ، وتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين . وانظر معجم الأدباء ج ١٨ ص ٨ .

فقالوا له : كما تُحب . فقال أبو العيناء مظهراً التعجب : فمالى لا أسمع الرنة (أى البكاء) والصياح ؟ ! . . .

أى إذا كان أمر عدوى كما أُحب ، فأنا أحب موتَه ، فلماذا لا أسمع نوح النائحين عليه إذا كان خبرُه ـ حقيقةً ـ كما أُحب !! ...

وأحيانا يحتمل المكفوفُ الدعابة ولو كانت قاسية ، فقد حدَّث أبو العيناء أنه قال لابن صغير لعبد الرحمن بن خاقان : وددتُ لو أن لى ابنا مثلك . فقال الولد : هذا بيدك . فقال أبو العيناء : وكيف ذلك ؟ . قال : تحمل أبى على امرأتك فتلد لك ابنا مثلى ! . . .

واحتملها أبو العيناء ، ولم يبال فقصَّها على الناس !! ...

ومما يروى عن الإمام الشافعى ـ وفيه رائحة الدعابة المتعجبة ـ أنه قال : رأيت باليمن أعميين يتقاتلان ، وأبكم (أخرس) يصلح بينهما ! ...

وإنه لموقف فى غاية الصعوبة ، فالمتشاحنان مكفوفان لا يبصران ، فاعتمادهما حينئذ سيكون على السماع ، والحكَمَ بينهما أبكم لا ينطق ، وهو سيعتمد على الإشارة ، فكيف السبيل ؟ ! ..

* * *

ماذا نستفيد من هذا الحديث عن فكاهة المكفوفين ؟ ...

نستفيد منه أن المكفوفين لهم نصيبهم القديم فى الفكاهة ، ولا شك أن للمتأخرين والمعاصرين منهم فكاهات وطرفاً ونوادر من حقها أن نفتش عنها ونقيدها .

فالفكاهات تعاون كثيرا على تفهم نفسيات أصحابها ...

ونستفيد أن الغالب على فكاهات المكفوفين ـ كما رأينا ـ التوجيه والتعريض ، وأنهم لا يعجزون ـ إذا أرادوا ـ عن الفكاهة الموجِعة العنيفة ، وللمكفوفين فكاهات مقذعة فاحشة تنزَّهْنا عن إيرادِها . . .

وكما قال المكفوفون الفكاهات المقذعةَ عن غيرهم ، سمعوا هم من غيرهم فكاهاتٍ مثلَها ، فاحتملوها وصبروا عليها .

ونستفيد أنهم كانوا يجمعون فى الفكاهة غالبا بين التنفيس والتسلية ، وأن الفكاهة الطيبة مما ينبغى أن يتوافر للمكفوفين حتى لا يُحرموا من متاع هذه الحياة .

أسباب كف البصر

نظرة فى أعمار المكفوفين خلال التاريخ

لا يختلف اثنان فى أن العين جوهرةٌ ثمينة غالية ، وأن فقدها مما يسىء إلى صاحبها فى حسّه ونفسه .

ولذلك حاطها الله بما يحميها ، وجعلها دقيقة رقيقة مصونة بما حولها ؛ ويصوِّر القزوينى فى كتابه (عجائب المخلوقات) تلك القدرةَ الإلهية فى صنع العين فيقول :

« ولما كانت الحاجة إلى العين ماسّة اقتضت الحكمةُ الإلهية أن تكون فى غاية الدقة واللين ، ووقاها بضروب كثيرة من الوقاية ، فوضعها فى حُفرة من العظم ، وجعل حولها عظاماً صلبة ، وغطّاها بالأجفان ، وصانها بالأهداب .

وجعلها عينين اثنتين ، حتى لو أصاب إحداهما آفة بقيت الأخرى سليمة ، وجعلهما فى الرأس ، لأن حاسة البصر بمنزلة الديدبان ، وإنه كلما كان أعلى مكاناً كانت مسافة مبصراته أكثر ، ولأن العصبة التى فيها الروح الباصرة رقيقةٌ جداً ، نازلة من الدماغ ، لا تحمل مسافة بعيدة ، وقد وُضعت أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء التى غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره ، ولأن عمل الأعضاء الخارجة كاليد والرجل من قدام ، لتكون مشاهدة لأعمالها[1] » .

وها هو ذا الشاعر فخرى أبو السعود فى قصيدته « الحسناء العمياء[2] » يصوِّر لنا جلالَ الرزء فى فقد العينين ، ويشير إلى ما كان يلقاه الكفيف فى مجتمعه من الإهمال والنسيان ، ويتمنى لو وجد هذا المكفوف من قومه

---

(١) عجائب المخلوقات ، ص ٢٧٥

(٢) نشرتها مجلة المقتطف ، عدد نوفمبر سنة ١٩٣٣ .

الرعايةَ اللازمة والعناية الواجبة ، حتى يعتاض عن هذا النقص الحسى بما يمكنه من دنياه ، وينسيه ما أصابه يقول :

يا ويح كفٍّ للعمى نكراءِ عبثت بهذى الطلعة السمحاءِ
مست ضياءَ جمالها ، وهل تزهى السماءُ بغير ضوء ذُكاءِ
ومحت بشاشتَها ، وغشّت بالأسى منها مكانَ البسمة الغراء
وكست معارفَها الهموم ، وجللت قسماتها بغمامة دكناء
قدر عسير قد دهى الحسناء فى كبرى مفاتنها بشر قضاء
فأقامها دون الحياة ، وذادها عنها بأوهن حائل وغشاء
جوراً ، وألزمها على شرخ الصبا صمتَ الشيوخ وسكنة الحكماء

* * *

نجمان لو منحا الضياء تألقَا عن فرط حسن ، أوغريب ذَكاء
طُفئا ، فلا مذكٍ لنورهما إلى يوم انطفاء الأنجم الزهراء
هاجا من الأحزان بى مالم يكن ليهيج لحظُ الأعين النجلاء
فاغرورقت لهما الدموع بمدمع قد بات فى الأحزان طوع ندائى
ليت السنَا من مقلتىَّ ـ وإن يكن لم يبق منه اليوم غير ذَماء
كان الفدى لهما ، فتسعد روحها من بعد طول الهم والبرحاء
لو رُدَّ حكم للطبيعة جائرٌ بجزيل بذل ، أو جليل فداء
فترى الحياة كما تشاء ، وما بها من منظر حسن ، ومن نعماء
وترفُّ حاليةً لها الدنيا ، كما رفت لكل مليحة حسناء

* * *

يا ربة الحسن الأسيف ، أمسعد لكِ من عزاء ثَم ، أو تأساء
هل ثَمَّ من أمل يشع شعاعه لكِ فى غياهب هذه الظلماء ؟
ماذا لقيت من القلوب وحالها وبلوت من حب ، ومن بغضاء ؟
هل ثَمَّ من خدن ودود مخلص لك لم يحد عن صحبة ووفاء
أو ثَمَّ صبٌّ فى هواكِ متيم يفديك ـ لو وافيت ـ بالحوباء ؟
أوسرب أفئــدة يزاحم بعضها بعضا عليك تزاحم النظراء
أمسيتُ أنظر ، لا أرى من يحتفى بك غير رهط الآل والأجراء
قد غبت عن بال الورى ، منسية فإذا ذُكرت دُعيت بالعمياء
فارضَىْ بذاك ، فما هنالك غيره هذا نصيبك من هوى وولاء
يكفيك من وُدِّ الورى أن تأمنى منهم بوادرَ نظرةِ استهزاء
ما فى قلوب العـالمين مودة لذوى الشقاء وشيعة البؤساء
لا تبتغى ودا لديهم ، واحذرى منهم ظواهر رحمة ورثاء
شر البلية ما أرتْ بك حاجةً لرثاء هــذى الأنفس الصماء
والموت أشهى للأبى النفس من عطف الرثاة عليه والرحماء !!

☆ ☆ ☆

يا ربة القلب الحزين ، همومنا لو تعلمين سُوًى ، وداؤك دائى
قلبى يكابد كل يوم ما أرى فى سيمائك من أسًى وعناء
وبمهجتى ـ قد عشت أصحبه ـ ضنىً لا يُستطب لمثــله بدواء !

☆ ☆ ☆

ولقد يتسائل الإنسان حيناً ما فيقول : ولمــاذا خلق الله كفَّ البصر ، وهو شيء سيء غير محبوب ؟...

بل قد يتساءل عن السبب فى خروج المرء إلى هذه الحياة مكفوفَ البصر .

والمنجِّمون يزعمون — كما يروى الصفدى — أن المولود إذا وُلد وأحد النيرين (يعنى الشمس والقمر) فى الكسوف أو الخسوف فإنه يولد مكفوفَ البصر ؛ أو إذا وُلد الطالع الجوزاء وعطارد فيه كان أعمى أبيض العينين .

ومن يولد بين الجوزاء والسرطان يكون أعمى ، أو لا يلبث أن يكف بصره بعد مولده بقليل ، وربما وُلد وفى وجهه خراج حتى تسترخى جلدة وجهه كله على عينيه وأنفه حتى تقع على صدره ، ويعيش عيشة سوء حتى يموت !...

وهذا مبنى على الزعم ، والزعم مطية الكذب ؛ كما يقولون : كذب المنجمون ولو صدقوا ...

وقد يريح المرءُ نفسَه عند هذا التساؤل ، فيفوض الأمر إلى إرادة الله الغالبة ، وقدرته الواسعة ، وقضائه المحتوم ، وحكمته البالغة التى قد تظهر وقد تستتر ، فيقول مع صاحب (نكت الهميان) : « فما بقى غير الاعتراف والرجوع إلى الحق ، والقول بأن الله تعالى اختار أن يكون هذا المولود أعمى دون غيره ، لا أنه وُلد فى الدرجة الثالثة من السرطان ، ولا أنه ولد فى العشرين من برج الأسد ، ولا فى غير ذلك مما ادعوه أنه من خواص الدرجات المذكورة ، فسبحان الفاعلِ المختار القادر على ما يشاء »

وقد يريد الإنسان أن يلتمس لذلك حكمةً قريبة ، فيقول إن كف البصر نوع من ابتلاء الله لعباده ، ليرى أيشكرون أم يكفرون ، أيصبرون أم يجزعون ؟ فإن شكروا وصبروا ورضوا فلهم الثوابُ العظيم والجزاء الأوفى

وإن كفروا وجزعوا وتمردوا فلهم العقابُ الأليم والعذاب الأنكى : ويردد ما رواه الحاكم والبيهقى من حديث الرسول الصحيح : « إن المؤمنين يشدَّد عليهم ، لأنه لا تصيبُ المؤمنَ نكبةٌ من شوكة فما فوقها ولا وجع إلا رفع الله له به درجة ، وحط عنه خطيئة » .

وما رواه البيهقى وأحمد من الحديث الصحيح : « إن الله يبتلى العبد فيما أعطاه ، فإن رضى بما قسم الله له بورك له فيه ووسَّعه ، وإن لم يرض لم يبارك له ، ولم يزد على ما كُتب له » .

والحديث الحسن الذى رواه الترمذى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يقول : إذا أخذتُ كريمتى عبدى فى الدنيا (أى عينيه) لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة[1] » .

وروى الشيخان البخارى ومسلم أن النبى قال : « ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » .

وروى مسلم أن شباباً من قريش دخلوا على عائشة وهى بمنى وهم يضحكون ، فقالت : ما يضحككم ؟ .

فقالوا : فلان خرَّ على طنب فسطاط (حبل خيمة) فكادت عنقه أو عينه أن تذهب . فقالت : لا تضحكوا ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كُتبت له بها درجة ، ومُحيت عنه بها خطيئة .

---

(١) وفى رواية : « إن الله تعالى قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة » .

وقال النبي : « من يرد الله به خيراً ينل منه » . (أى يبتليه) .

ولذلك يقول الإمام تاج الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ :

« وأنا قد اعتبرتُ ، فوجدت القاعدةَ المستمرة فى هذه الأمة أن كل من كان أكثر إيماناً ، كانت الدنيا عنه أكثرَ انزواء ، والأكدار عنده أكثر من دونه ؛ ولذلك كان أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل . وما أوذى نبى أكثر مما أوذى سيدُ الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأنت فانظر تر الكفارَ أكثر دنيا من المسلمين . ثم انظر المسلمين تر الجهال منهم والفسقة أكثر دنيا من أهل العلم وأهل التقوى ، ثم انظر أهل العلم والتقوى ترى كل من زاد فيهما نقص فى الدنيا بحسب ذلك .

وإن عددت من جُمع له العدل والملك ، أو العلم والمال ، أو التقوى والمال لم تر إلا آحاداً محصورين ، وأناساً كانت الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم ، وكان ذلك لمصلحة اقتضتها حكمةُ الرب تعالى ، خرجوا بها عن القاعدة .

قيل للحسن البصرى رحمه الله : أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزداد الأمر إلا شدة ، والدنيا إلا إدباراً » ؟ فما بال عمر بن عبد العزيز — وهو سيد أهل زمانه — وَلِى بعد الحجاج وهو خبيث هذه الأمة ؟ . فقال : لا بد للز[illegible] أن يتنفس ![1] » .

وقد يتوسع العقل البشرى فى التماس حكمة لكف البصر ابتداءً أو أثناء الحياة ، فقد يراه جزاءً من الله أعدلِ العادلين وأحكم الحاكمين على تفريط الشخص فى بصره ، بالإهمال فى صيانته ، أو بتعريضه للآفات والعلل ،

---

(١) كتاب معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٥٣ و ١٥٤ .

أو بالإثقال عليه بمحظور يؤدى إلى نقصانه أو زواله ؛ والذى لا يُحسن صيانةَ النعمة ولا يحسن استخدامَها يكون عرضةً لفقدها، وكأنه حينئذ يتحمل تبعةَ ضياعها ، أو على الأقل لا يحق له أن يشكو من ضياعها .

وها هو ذا أحد الحكماء يوصى بالتنبه لأشياء قد تظهر قليلةً غير جليلة ، ولكن عدمَ التنبه إليها يؤدى إلى أوخم العواقب ، ومنها ضياع البصر ، يقول :

« إياك أن تحك بثرة[1] وإن زعزعتك ، واحفظ أسنانك من القارِّ بعد الحار ، والحار بعد القار ، وأن تطيل النظر فى عين رمدة ، وبثر عاديّة ؛ واحذر السجود على خَصَفَة[2] جديدة حتى تمسحها بيدك . فرب شظية حقيرة فقأت عيناً خطيرة » .

وهناك نوع من كف البصر يسمَّى « كف البصر اللونى »، وقد قالوا إنه ينشأ عن إصابة فى عصب البصر تنشأ عن التدخين ، أو تناول المشروبات الروحية[3] .

وقد يكون كف البصر جزاء من الله على تفريط الإنسان فى شىء آخر غير ناظره ، أو ارتكابه لمحظور كالزنا ، أو كبيرة أخرى ، أو التعرض لخبيث العادات ، وقد روى ابن عدى فى الكامل عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جامع أحدُكم زوجتَه أو جاريته فلا ينظر إلى فرجها ، فإنك ذلك يورث العمى » . وهو حديث جيد الإسناد .

---

(١) البثرة : الخراج الصغير .

(٢) الخصفة محركة : الجلة تعمل من الخوص للتمر .

(٣) مجلة المقتطف ، عدد نوفبر سنة ١٩٣٦ .

وربما ارتكب الإنسان إثما فلم يعجِّل الله له عقوبتَه ، ثم تأتى العقوبةُ بعد ذلك ممثَّلة فى محنة أو نكبة ككف البصر ، وإذا ما تأمل الإنسانُ أمرَه أدرك أن « نظرية التعويض » فى العقوبة والجزاءِ نظريةٌ جارية سارية ، ولكن أكثر الناس عنها يغفلون ، لأنها ربما جرت مستترة غير منظورة ، وإن كانت لا تكف عن المسير .

وقد يكون كفُّ البصر جزاءً على تفريط الوالدين أو أحدهما ، فيرتكب الوالدان مآثم وخطايا وجرائم ، ويرث الأولادُ عقابيلَ هذه المآثم : « والآباء يزرعون الحِصْرِم والأبناء يضرسون[1] » ؛ وكم من أب صالح فاضل صانه الله فى أولاده وذريته ، وكم من أب خبيث أثيم جاءه العقاب ممثلا فى نسله ، وكأن هذا تعليمٌ من الله ، وتحذير للآباء الذين يحبون أبناءهم أكثر من أى مخلوق ؛ يحذرهم به من غشيان المآثم والمناكر ، وإلا ورث الأبناء العقاب ، فإذا ما ذكر الآباء ذلك ارتدعوا ورجعوا ، لأن الأب إذا تذكر أن العاقبة السيئة ستلحق بولده من جرَّاء عمل يعمله لم يُقدم عليه ولم يباشره ؛ وإلى مثل هذا يشير قولُ الحق تبارك وتعالى :

« وليخشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ، إن الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلَوْن سعيرا » .

وقد يكون كف البصر نتيجةً لإهمال البيئة الخاصة ، كأن تلجئ هذه

---

(١) الحصرم ــ كزبرج ــ : الثمر قبل النضج ، وأول العنب مادام أخضر ، وحشف كل شيء . وضرست أسنانه ــ كفرح ــ : كلت من تناول حامض ، وأضرسه الحامض ، وأضرسه أقلقه ، والمضرس كمحدث : الأسد يمضغ لحم فريسته ولا يبتلعه .

البيئة إنسانا إلى أن يعيش فى مكان أو جو موبوء بما يؤدى إلى هذا النقص الحسى ...

وقد يتأتى كف البصر نتيجة لإهمال المجتمع العام فى التزام الأسباب التى تصون على أفراده أبصارهم ، كالإهمال فى التوجيه والإرشاد ، والإهمال فى تدارك الشرر المتطاير قبل أن يستفحل فيصير ناراً مهلكة ، والإهمال فى العلاج والوقاية ، إلى غير ذلك من ألوان الإهمال .

وقد يكون من المناسب هنا أن نتساءل عن أسباب كف البصر ، وخاصة فى بلادنا ، لأن بلادنا هى أكثر بقاع الأرض مكفوفين ، حتى يسميها البعض : « بلاد العميان » .

ويرجع بعض الأطباء الباحثين [1] أسباب كف البصر إلى أمرين :

أولهما الأمراض التى تنشأ عن أسباب يكون الجسم نفسه مصدرها ، لعلة أو لعلل فيه .

وأهمها الزهرى ، وهو مرض سرى خبيث ، ينشأ عن الانحراف وغشيان الرذيلة ، وهو يعترى غالباً القسم الخافى من العين ، فيضر بأغشيتها الباطنية .

ويزداد أمر هذا المرض خطورة حينما يتركه صاحبه ينمو ويترعرع بلا وقف أو علاج ، ومن المؤسف أن الغربيين إذا أصيبوا به سارعوا إلى العلاج والدواء ، بينما يتستر الشرقيون على دائهم ويخجلون ، أو يعمدون

(١) انظر مجلة المقتطف ، عددى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٠٧ ، وقد اعتمدنا على ما فيهما من معلومات طبية .

إلى الطرق البلدية والوصفات الشعبية والخرافات الفاشية

ومن هذه الأمراض الجدرى ، وهو فى نظرى عدو أكبر المكفوفين ، فلقد كان له منهم ضحايا كثيرون ، فى الماضى البعيد والماضى القريب ، بل وفى الحاضر الراهن ، بل من يدرى ، لعله سيكون له منهم ضحايا فى قابل الأيام ، ولا يُحمد على المكروه سوى الله .

وحسبنا لنتصور فظاعة هذا المرض أن نعرف أنه داء وبائى منتشر ، يفتك ببلادنا منذ ألف سنة قبل الميلاد[1] .

واللغة العربية تتحدث عن تعريف الجدرى فتقول — كما فى القاموس —:

وخروج الجدرى — بضم الجيم وفتحها — لقروح فى البدن تنفّط وتقيّح ؛ والجدَر سلَعٌ تكون فى البدن خلقة ، أو من ضرب ، أو من جراحة كالُجدَر ... وورم يأخذ فى الحلق ، وانتبار أو أثر كدم فى عنق الحمار .

وفى كتاب (مفردات القرآن) للأصفهانى : «وقيل الجِدَرى والجدرة سلعة تظهر فى الجسد»

وفى كتاب (النهاية) لابن الأثير :

« الكمأة جُدَرى الأرض . شبهها بالجدرى ، وهو الحب الذى يظهر فى جسد الصبى ، لظهورها من بطن الأرض ، كما يظهر الجدرى من باطن الجلد ، وأراد به ذمَّها .

ومنه حديث مسروق : أتينا عبد الله فى مجدّرين ومحصبين ؛ أى

(١) فى دائرة المعارف للبستانى أن الجدرى علة لم يعرفها القدماء ، وأصلها مجهول ، ويقال إنها ظهرت أولا سنة ٥٤٤ للميلاد بمصر .

جماعة أصابهم الجدرى والحصبة ، والحصبة شبه الجدرى تظهر فى جلد الصغير[١] » .

والجدرى عند الأطباء حمى معدية[٢] ، يصحبها غالبا نقاط منخفض الوسط ، وهى علة ناشئة عن سم مرضى خصوصى محسوس ، يعترى الجسم ، ويمكث فيه مدة ، ويكتنز ، وتسمى مدة كمونه بمدة الحاضنة . ومتى انتهت تلك المدة ، وكثر السم المرضى فى الجسم ، نشأ عنه حمى من النوع المتفتر ، يعقبها نفاط على الجلد ، وقد يظهر هذا النفاط أيضا على سطح الأغشية المخاطية .

وله أربع درجات : ذبابة ، فخويصلة ، فبثرة ، فجلبة : ويبقى فى موضعه أثر دائم .

وقد ظهرت هذه العلة أولا فى مدينة (بيلوسيوم) من بلاد مصر ، وهى بلدة قديمة كانت بجوار مدينة دمياط المعروفة .

وفى سنة ٥٦٩ م انتقلت هذه العلة إلى القسطنطينية ، ويقال إن إبرهة الأشرم الحبشى صاحب الفيل لما جاء إلى مكة لهدم الكعبة أصيب مع قومه بمرض الجدرى من الطير الأبابيل ، ومن هنا كثر الجدرى فى المشرق .

ووصفه الرازى فى أوائل القرن العاشر للميلاد فى كتاب الحاوى ، والكتاب المنصورى ، وفى كتاب تقسيم العلل ، والرسالة فى الجدرى والحصبة

وللجدرى درجات ، درجة الحاضنة ، ودرجة الهجوم ، وهى درجة الحمى

---

(١) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) انظر دائرة المعارف للبستانى ، ج ٦ ص ٤٠٥ ، فمنها استمددنا مايتعلق بالجدرى .

الأولى ، ودرجة النفاط والدرجة الصديدية وهى درجة الحمى الثانية .

وقد تشتد الحمى الأولى حتى تميت العليل قبل ظهور الجدرى، وأول ظهور النفاط يكون على الوجه والجبهة والرسغين ، ومن هنا تأتى خطورته البالغة على العينين ، لأن بثوره تحيط بهما وتتربص للانقضاض عليهما والذهاب بإبصارهما أو نيلهما ببليغ الداء .

والجدرى أنواع ، ولكل نوع خصائص ومظاهر ، وهو من الأمراض المعدية ، ويتسبب عن الجدرى فى بعض أحواله ورم فى الرأس والوجه والعنق حتى تنطبق الجفون .

ومتى وصل الجدرى أعلى درجاته ينبعث من جسم العليل رائحة خاصة كريهة يكاد المريض يمتاز بها ، ويتسبب عن الجدرى كف البصر أو الصمم أو الشلل .

وهناك نوع خبيث يسمى بالجدرى العنقودى ، لأن نقاطه على هيئة بقع تشبه العناقيد ، وهو فى الغالب قتال .

وهناك وسائل كثيرة شفائية لعلاج الجدرى ، وهناك كذلك علاج منعى ، ولكنه غير مضمون النتيجة دائماً . ومن يُطعّم بالمادة الجدرية البقرية يتجدر جدريا خفيفاً تزول به قابلية التأثر بالجدرى ثانية إلا فيما ندر .

والأمر الثانى الذى ترجع إليه أسباب كف البصر هو العلل التى تسببها للعين العوامل الخارجية ، ومنها :

أولا : الجهل المؤدى إلى ترك الوقاية والعلاج اتكالا على نظرية القضاء والقدر ، مع أن الرسول صلوات الله عليه يقول : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء » ، وفى رواية : « لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواءُ الداء برأ بإذن الله عز وجل » .

وقال الرسول : « تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم» .

ويقول فى الحجر الصحى بشأن الطاعون : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » .

ثانياً : عدم العناية بالنظافة الواقية من الأمراض ، فنرى الواحد منهم لا ينظف بدنه ، ولا يغسل أطرافه ، ولا يصون ثيابه ، ولا يذود القذر عنه ؛ والأمهات لهن فى هذا المجال دور كبير . فإن الأم تجرم غاية الإجرام حينما تترك ابنها وفلذة كبدها يلعب فى التراب والأقذار ، ومن حوله كتائب الذباب ، أو فرق الناموس ، أو جيوش البق والقمل .

ولا تزال بيننا فى بلادنا بعض العادات القذرة الخطيرة كالتبول والتبرز فى غير المراحيض ، وكالاستحمام فى ماء البرك والمستنقعات ، واستعمال الماء فى الشراب والطعام بلا ترشيح ، بل بعض الفلاحين يعتقد أن ماء النيل المرشح لاخير فيه ولادسم ، وأن الماء المخلوط بالغرين سبب الصحة والقوة .

ثالثاً : طب الركة ، وهو من باب الجهل والخرافات ، ولكنه فنون ، فمثلا يصاب المريض برمد ، فيلجأ إلى العطارين والدجالين والعجائز ، فيعطونه مايصلح ومالا يصلح بلا بحث أو خبرة ، فتصاب العين وتفقد إبصارها ، أو تتولد السحابات على القرنية والملتحمة .

وتراهم مثلا يستعملون مسحوق اللؤلؤ والزمرد والياقوت ، وعصارة الطماطم والزرنيخ ، وعصارة البصل وجلد الفسيخ ، وروث البقر والحمير وبول البغال ، والبصل المسلوق ، إلى آخر هذه المضحكات المبكيات ، وشر المصائب ما يضحك .

رابعاً : الاعتقادات الباطلة المهلكة ، مثل الإشارة على المريض بعينيه بالاغتسال من ميضأة الجامع الفلانى ، وقد تكون كلها أوساخا ، أو من بئر الدير الفلانى ، أو الاكتحال بتراب الضريح الفلانى ، أو الكنيسة الفلانية .

وقد يعتقد أهل المريض بعينه أنه مصاب بالأرواح الخبيثة ، ويكلفونه أو يشيرون عليه بالشرب من المستنقعات الموجودة بجوار بعض الأضرحة لتذهب العفاريت عنه ، أو يجعلون (المجاذيب) يتفلون له فى عينيه ، إلى آخر هذه المهازل .

نعم إن التعليم المتضمن للإرشاد الصحى قد قضى على كثير من هذه الأوهام والخرافات ، واستضاء الكثيرون بنور المعرفة ، وأخذوا يؤمنون بالطب البشرى العلمى ويقبلون عليه . ولكن هذا لم يقض تماماً على تلك الاعتقادات الباطلة ؛ فلا زلنا نرى فى جوانب من بلادنا أعشاشاً للجهالة والضلالة ، وأوكارا للخرافات والأباطيل

خامساً : نوع التربة فى بلادنا ، فهذه البلاد أقرب إلى منطقة الحرارة ، وتربتها ناعمة . فإذا هبت الريح ثار الغبار والتراب المحمل بالجراثيم ، فسد الأفق وأعمى الأبصار ، لأن الغبار يدخل العين ببلاياه ، فيهيجها ويحدث فى الملتحمة خدوشاً دقيقة ، فتصبح فى استعداد تام لقبول الأمراض المعدية ، كالرمد الحبيبى والصديدى وغيرهما وكثيرا ما يكون الغبار الداخل فى العين جارحا لها وملقحا للمرض ، وقد يتعاون اللمس والذباب على نشر العدوى .

وضحايا التراب الملوث فى بلادنا كثيرون ، وأرقام تعدادهم يوقظ الفزع والهلع فى قلوب المشفقين على البلاد والعباد .

ولا بد من الطب لذلك الداء بالإكثار من غرس الأشجار ، وبنقل التلال

بعيداً عن المدن ، ورش الشوارع حتى لا يثور منها العثير ، والتوسع فى تشجير الطرق والميادين ، وأن نأخذ بالمثل الحكيم : « ازرع ولا تقلع » ، وأن نجدّ فى رصف الطرق ، وبخاصة فى البيئات الكثيفة السكان .

سادساً : الرمد الحبيبى ، وهو كثير فى مصر ، لانخفاض أرضها ، وشدة حرارتها الرطبة ، لا سيما فى زمن الفيضان ؛ ولذلك يقل هذا الرمد فى الأماكن الجافة العالية ، ففى السودان مثلا يقل الرمد الحبيبى ، فانخفاض الأرض ورطوبة الهواء الحار هما سبب الرمد المؤدى إلى كف البصر ، ولذلك أطلق بعض الغربيين على الرمد الحبيبى اسم « الرمد المصرى » . وهذا خطأ نوعا ما ، لأن أوربا عرفت هذا الرمد من قديم ، وكتب عنه بعض أطباء الرومان قبل التاريخ الميلادى ، ووصف أعراضه ، كخشونة ملتحمة الأجفان ، والإفراز الصديدى الذى يحدث فى الدور الحاد للرمد .

وهذا الرمد — ولا شك — من أقوى الأسباب فى كثرة المكفوفين فى وادى النيل ، لأنه يُهمَل غالباً فى أول ظهوره ، ولا يعالج العلاج الكافى الشافى ، فيتطور ويتضاعف ، وتكثر السحابات على القرنية ، وينتهى الأمر إلى طمس بصر العين .

والذى يزيد الطين بلة ، والأمر خطورة ، أن تضخم الأجفان وتصلبها وضمورها أثناء المرض مما يسبب انقلاب الأشفار إلى الداخل ، فتلامس الأهداب القرنية وتهيجها لتوالى الاحتكاك ، وهذا ما يسمى بداء « الشعرة » .

وإذا لم تعالج بعملية طبية ظلت الأهداب تحك فى القرينة حتى تذهب بصفائها وشفافتها ، فينطمس البصر وتعمى العين .

ويكون الرمد الحبيبى وبائياً أثناء الصيف، ويكثر بنوع خاص فى الأماكن المزدحمة، كمنازل الفقراء والمجتمعات العمومية، حيث الاختلاط والزحام واللمس، كالمدارس والمساجد والكنائس والمعسكرات والتكايا، وما شاكل ذلك .

جاء فى كتاب (دروس سنن الكائنات) :

« أما ميكروب الرمد الصديدى فهو ميكروب (السيلان) أيضا، ويصل إلى العين بالأصابع أو المناديل أو الملابس أو غير ذلك ، وهو مرض فتاك بالعين، لأنه كثيرا ما يسبب قرحا فى القرنية تؤدى إلى ظلمتها، حتى لا ينفذ النور منها فتصبح عمياء، وتسمى هذه الظلمة بالنقطة أو السحابة أو البياضة، بحسب اتساعها ودرجة ظلمتها .

وأما الرمد الحبيبى فميكروبه ينتقل من شخص إلى آخر، كما ينتقل ميكروب الرمد الصديدى، فلذا يجب الاحتراس منه بالنظافة ، والبعد عن الأرمد » .

وجاء فى مجلة طبيب العائلة الإنجليزية :

« وليست العين عرضة للأدواء التى تعترى أجزاءها الباطنية المختلفة فحسب، بل قد تتأثر من أمراض غيرها من أعضاء الجسم، فتظهر أعراض تلك الأسقام جلية فى العيون، ونعنى بها الأمراض التسممية ، والتسمم ببعض العقاقير؛ وكذلك الإصابة ببعض أمراض الدم وغيرها من الأمراض العامة، كالبول الزلالى والبول السكرى وتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم، إذ قد تتبين أعراض تلك الأمراض جميعها لنقريس العين (طبيبها الماهر) وذلك حينما يلجأ المريض إليه مستشفياً عينيه .

ويشفى كل سنة فى انجلترا وغيرها من البلدان المتحضرة ألوف من العميان، إذ يستعيدون حاسة البصر عقب العمليات الجراحية البديعة التى يعملها لهم الجراحون الرمديون؛ وغدت إزالة السحابة (الكترا كتا) أو إظلام عدسة العين على أيدى مهرة الجراحين من أعظم ضروب الظفر التى أحرزتها الجراحة الحديثة[1] » .

* * *

لكن قد يعود الإنسان فيتساءل قائلا : إن بعض المكفوفين يقبلون على هذه الحياة فاقدين لأبصارهم ، ولا يظهر أمامنا من الأسباب السابقة ما يكون داعياً لهذا ، فما الحكمة فى ذلك ؟...

ومع أن الخافى عنا أكثر من البادى فقد نستطيع أن نقول : إنه قد تكون الحكمة فى ذلك أن الله سبحانه أراد أن يرينا قدرتَه البالغة بخلق النقص كما خلق الكمال ، فالذى خلق أغلبَ الناس بأبصارهم يستطيع سبحانه أن يخلق بعضَهم بغير هذه الأبصار . فهو قادر على إيجاد الضدين ، وعلى تحقيق الزوجية الماثلة فى طرفيها السالبِ والموجب ، وكأنه سبحانه يريد أن يرمز لنا فى ذلك إلى أنه يستطيع أن يوجد ذلك النقص فى الأغلبية ، وإنما أوجده فى هذه القلة ليكون عبرةً وتذكرة ، وليتصور الناس مبلغَ النقمة التى رحمهم ربهم منها ، وكان يستطيع ابتلاءهم بها ، ومن هنا يشكرون ويستقيمون ، ويتجنبون الأعمالَ والمواطن المعرِّضة لمثل هذا الابتلاء الذى أصيبت به تلك القلة لإصلاح شأن الكثرة ، ويد الله الراحمة العادلة تأتى مع ذلك بما يعوِّض على هذه القلة المبتلاة ما فقدته فى جهات أخرى وبأساليب عدة .

---

(١) انظر مجلة المقتطف ، عدد فبراير سنة ١٩٣٩ .

يقول الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى :

« إن قال قائل : أىُّ فائدةٍ فى خلق ما يؤذى ؟ . فالجواب أنه قد ثبتت حكمةُ الخالق ، فإذا خفيت وجب التسليم . ثم إن المستحسنات فى الجملة أنموذج ما أُعد من الثواب ، والمؤذيات أنموذج ما أُعد من العقاب ؛ وما خُلق شىء يضر إلا وفيه منفعة .

قيل لبعض الأطباء : إن فلانا يقول : أنا كالعقرب أَضُرُّ ولا أنفع . فقال : ما أقل علمه ، إنها لتنفع إذا شق بطنها ثم شدت على موضع اللسعة ، وقد تجعل فى جوف فخار مسدود الرأس مطبق الجوانب ، ثم يوضع الفخار فى تنور ، فإذا صارت رمادا سُقِى من ذلك الرماد مقدار نصف دانق أو أكثر مَنْ به الحصاة ، فيفتها من غير أن يضر بشىء من سائر الأعضاء . وقد تلسع العقربُ من به حُمى عتيقة فتزول ؛ ولسعت رجلا مفلوجا فزال عنه الفالج ، وقد تلقَى فى الدهن حتى يجتذب قواها ، فيزيل ذلك الدُّهنُ الأورامَ الغليظة ؛ ومثل هذا كثير ، فالجاهل عدو لما جهله ، وأكبر الحماقة ردُّ الجاهل على العالم »[1] .

على أن بعض الناس يعتبر كف البصر نعمةً لأنه يريحه من رؤية المؤذيات ، ولأنه بجزائه الحسن عند الله ؛ وللمكفوفين فى ذلك أقوال كثيرة جاءت خلال حديثنا عن المكفوفين ، ويحضرنا الآن قول بشار :

وعيّرنى الأعداء والعيب فيهم ... وليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتقى ... فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجرا وذخرا وعصمة ... وإنى إلى تلك الثلاث فقير !

---

(١) صيد الخاطر ، ص ٣٤٦ و ٣٤٧ .

ويقول أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فى بعض مقالاته : « واعمرى لقد ساءت الأخبار حتى أحمد الصمم ، وبشعت المناظر حتى لا يحب الإنسان أن يرى (١) » .

ونستشهد هنا بقطعة أدبية تزكى هذه الوجهة من الرأى ، وهى بعنوان : « كان أعمى فأبصر » ؛ جاء فيها ما يلى :

« ولدته أمه أعمى ، ولكن كأنه استشعر بالعمى ، فكان بكاؤه بكاءين : بكاء لويل العمى ، وبكاء لمباشرة الدنيا .

إنه لم يشعر بالعمى ، فقد خرج من الظلمة الضيقة إلى الظلمة الواسعة . لم يبك والداه لعماه الأول ، لأن الطفل يولد أعمى إلى حين ، ولكن لما انقضت المدة ، وتبين عماه ، أوشكت عيونهما أن تغدو كعينيه من فرط البكاء .

وتطاول عليهما وعليه الأمد ، فسكن جزعهما عليه ، وأما هو فما أعوزه سكون من جزع ، لأنه لم يفارق شيئاً ليأسى له ، بل قد اكتنفته الظلمة منذ كون ، حتى لو فارقته لجزع .

نما بين أترابه ، فكانوا يصفون له حسن النور وجمال المنظورات ، فما أثروا به شيئاً ، لأن بصيرته كانت قاصرة ، لا تبين له كنه النظر .

كبر شيئاً فأرسلوه إلى المدرسة ، فتعلم وتهذب ، وكان يبصر المنظورات بقلبه حين يلمسها ؛ تطلع عليه الشمس فيعلم أنها نار ، ويدرى من أين جاء الحر ، وأما منظر الشمس ، وكيف يكون شعاعها وشروقها ، وتواريها فى

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٤ نوفبر سنة ١٩٢٦

الأفق فلم يكن يدرى منه شيئاً ، فكان يأسى ويحزن ، ولكن ائتلافه بالعمى كان يخفف عليه وقعَ المصيبة .

ذهب إلى الروض وقد علم ما هو الزهر والثمر والشجر ، إذ لمسها كثيراً ، وقرأ عنها باللمس كثيراً ، ولكنه حين جلس إلى الغدير لم يسمع إلا خرير مياهه ، وأما لونُ رشاشه ، وكيفية تحدره ، فما رأى منهما شيئاً .

ضاع[١] حوله أريجُ الزهر فلمسه وأمسكه ، ثم شَمَّه ولذَّ به ، وأما حمرة الورد واصفرار البهار فما رأى منهما شيئاً ، ولا رأى لتضاعف أوراقهما أثراً . شَدَت فوقه الأطيارُ ، فطرب لأصواتها وترجيعها ، وأما ألوانها الجميلة فما رآها ، ولا أبصر شيئاً من طوق الحمامة البديع ، وقد فاته أن يرى تاج الهدهد وذيلَ الطاووس .

إنه سمع بالرياحين يكلِّلها الندى بالتيجان ، وترصِّعها الشمسُ بالشعاع ، ولكنه ما رأى من ذلك شيئاً ، ولا استطاع أن يتمثل منه شيئاً . وَرَد الربيعُ الضاحك ، فبسمت لوروده الناس ، وابتهجت لقُدومه الأطيار ، وأما هو فما رأى الرُّبى كيف تتدبج ولا أبصر القمح وهو مثل كتيبة خضراء ، وشقائق النعمان[٢] فيها جراح .

كان القمر يمر عليه فى ذلك الفضاء الواسع ، فكان يدرى بسيره وحجمه وبُعده عن الأرض ، وساعاتِ محاقه وإبداره ، وأما منظره الرائع وهو يجتاز عرضَ السماء فما أبصره ، ولا استطاع تصويرَه .

---

(١) ضاع : بمعنى فاح وانتشر .

(٢) شقائق النعمان : زهر معروف ، أضيف إلى النعمان بن المنذر ، لأنه أول من حمى روضة فيها شقائق .

تألقت فوقه الكواكبُ فى الدجى القاتم، وهى كالدنانير منثورة على الديباج الأزرق، فتغزل بها الناسُ لديه، وأما هو فما شاركهم بشىء...

انكسفت الشمس، ثم انخسف القمر، ثم سقطت النيازك، فأضاء لها الأفق المظلم، ورفع إليها الناسُ أبصارهم بين الوجل والابتهاج، وأما هو فأطرق رأسَه، لا يعنيه من ذلك شىء؛ ولكنه كان لكل ما فاته من هذا على أسف وحزن وتلهف.

لعلعت فوقه الرعود، فسمعها جيداً، وأما لمعان البرق فما استطاع على فرط تألقه أن يخطف من بصره شيئاً، بل قد جعل البرقُ له من الرائين شركاءَ فى العمى بضعَ ثوان... عقد الجوُّ ظلماتٍ بعضَها فوق بعض من الغيوم فما رآها كيف تنعقد وتنتشر، وقد قالوا له إنها سوداء، فما استطاع أن يتصور السوادَ إذ لم يرَ البياض...

تحدر حوله الغمامُ، وتحولت خيوطُه الفضية إلى دُرَرٍ من البَرَد، فشعر، ولكن ما رأى ذاك الجمال... التفعت حوله الجبالُ بمطارفَ الثلج كأنها ريش النعام على خوذة جبَّار، ولكنه ما أبصر جمال ذلك، ولا أدرك للجبال علوا وشمما... اضطرب لديه البحرُ أيما اضطراب، وعلت أمواجُه كالجبال، ولقد أرغى وأزبد، ولكنه ما رأى كيف تتعمم الزرقةُ بالبياض، ولا أبصر ذلك الهول...

جالسته الحسناءُ، وحادثته بكلام الشفيق الرحيم من أجل عماه، فما افتتن بجمالها، بل لقد ردَّت سيوفُ عينيه المغمدةُ سيوفَ عيونها المسلولة للفتك، ولم يكن لها من سيف سوى ذاك الرقيق من اللفظ، فهام بها وأحبَّها، وكان يرجو لقاء فى كل حين... كانت تكلمه بلطف مطبوع ومصنوع إشفاقاً عليه،

فيظن ذلك غراما ، ثم يعرض عليها حبَّه فتقابله برضى المتوجع :

وكان يراها بعين الغرام   وكانت تراه بعين الإخاء !

ثم كانت تفارقه وهى تقول : الأذن تعشق قبل العين أحيانا !...

* * *

فى ساعة عفو ورحمة من عند الله انفتحت عينا ذلك الأعمى لجاءة ، فلما أبصرتا النورَ ارتدتا إلى الغمض فى الحال ، لأن البياض أوشك أن يردهما إلى العمى ... فتحهما ثانية فارتدتا ، كأن الوفاء قد غلبهما ، فعزَّ عليهما فراق ذلك الظلام الطويل الصحبة ...

نظر إلى مَنْ حَوْله وهو كأنه فى حلم وهم فى أحلام : رأى النورَ مختلِفَ الألوان فشده بين الابتهاج والخوف ... كان يغمض عينيه ويفتحهما ليرى هل ذلك إلى حين ، أم هو كما فى الناس إلى الأبد ... تحقق له البرءُ من داء الظلمة فجعل يتبصر فى الأشياء ليرى هل كانت على وفق تمثله أم لا ...

مشى بين الناس وحادثهم ، فوجد أنه زاد فيه طبعُ الخجل ، فصار يستحيي ويستكين ، ويتضايق شيئاً من ذلك ... عبر الشوارع فما اهتم بأمره أحد ، ولا فتح له عابر مجالا حين الضيق ، مع أن الصفوف كان تنفرج لمروره ، إذ كانت تفعل عصاه التى يدب عليها برفق مالا تفعله عصا الشرطى بخشونة ...

تضايق من معاملة الناس بالجد ، فلما شتمهم شتموه ، ولما ضربهم ضربوه ، فساءه هذا التغير الشديد ، لأن خطاياه من قبلُ كانت مغفورة ، ولم يكن عليه قط من حرج ...

سرَّ جدا من محاسنِ ما صار يرى ، ولـكن ذلك يتنغص عليه ، لأنه صار

يحاسَب على نظراته ، ويؤخَذ بكلماته ... نظر المرأةَ التى أحبَّها ، فخجل جداً حين رآها ، لأنه كان وقحاً سليطاً حين كان يكلمها وهو أعمى .. حسُنَ لديه جمالها ، ولكن كلامها لم يَحْسن ، لأن هزلها أصبح جداً ، وقد صار ما كان من رفقها ثقلا وتشديدا ...

ضايقته تكاليف الحياة ، بعد أن كان خارجاً عن أكثرها ، فتضايق .. كان يُحسَن إليه ، فصار يُطلَب منه الإحسان ... كانت الرحمةُ عليه ، فأصبحت منه ... كان فقيراً فى حدِّ الغنى بشفاعة عماه ، فلما أغناه البصر رأى نفسَه غنياً فى حكم الفقير ...

عجِبَ الناس جداً لبصره بعد العمى ، ولكن عجبه مما رأى منهم كان أشد .. كانوا يذكرون له أبا العلاء المعرى فيتعزى به ، فلما أبصر صار يحسده على عماه ، ويتمنى لو رُدَّ ثانية إلى أول .. ثم برح به تضييقُ الدنيا وتكاليفها وأحزانها ، فبكى حتى كاد يعمى ، وأصبح بعد ذلك لا يتمثل إلا بقول زميله السابق المعرى :

قالوا : العمى منظر قبيح   قلت : بفقدانكم يهونُ
والله مافى الوجود شىء   تأسى على فقده العيون »[1]

٭ ٭ ٭

على أننا حينما نراجع تراجم المكفوفين فى التاريخ نجد أن الكثير منهم لم يولد أكمه ، ولم يأت إلى هذه الدنيا فاقد البصر ، وإنما طرأ كفُّ البصر على

---

(١) مجلة أنيس الجليس — السنة الثامنة (١٩٠٥م) الجزء السابع ، ص ٢٠٥ ، وفى المقدمة هذه العبارة : « وجدنا فى مجلة سركيس اقتراحا منها على الأدباء لكتابة فصل عن رجل كان أعمى فأبصر ، وقد نبه مجلتنا بعض الأدباء إلى وضع شىء من ذلك فيها ، فنشرت هذا الفصل مرسلا على قدر ما يتمثله الذهن من هذه الحال الدقيقة ».

هؤلاء فى حياتهم[1] ، صغاراً أو كباراً ، وكان هذا الكف بسبب التفريط والإهمال ، أو بسبب القذارة وعدم مراعاة القواعد الصحية ، أو بسبب الإرهاق والإفراط والعمل النظرى المضنى للبصر بلا حساب أو رعاية .

وسنجد فى التراجم الوجيزة التى ستأتى بعدُ شواهِدَ كثيرة على هذا ، إذ نجد التاريخ يعبِّر عن هؤلاء الكثيرين من المكفوفين بأنهم قد كف بصرهم فى حياتهم ، أو كف بصرهم بأَخَرَة[2] ، أو كف فى آخر حياتهم ، أو طرأ عليه العمى ؛ أو غير ذلك من التعابير .

* * *

وكذلك نلاحظ أن كثيرين من المكفوفين قد فقدوا أبصارهم بسبب من الغير لا دخل لهم فيه ، فهناك حوادث « السَّمل » المؤلمة التى ارتكبها المجرمون خلال عصور التاريخ ؛ « والسمل » هو فقء العين لإذهاب بصرها ؛ جاء فى (النهاية) لابن الأثير :

« سمل أعينَهم أى فقأها بحديدة مُحْماة أو غيرها ؛ وقيل هو فقؤها بالشوك ، وهو بمعنى السَّمر ، وسَمَر أعينَهم أى أحمى لهم مساميرَ الحديد ثم كحلهم بها » .

وفى القاموس المحيط : سمل عينَه فقأها ، كاستملها ، والسُّملة بضم العين دمع يهراق عند الجوع الشديد ، كأنه يفقأ العين .

---

(١) ثبت من الإحصاءات التى قامت بها الهيئات الطبية فى بريطانيا ، أن ٤ ٪ فقط من المكفوفين يولدون فاقدى البصر ، وأن الباقين يصابون بفقد بصرهم بعد ولادتهم .

وجاء فى عدد مايو سنة ١٩٢٨ من مجلة الهلال هذه العبارة : « ولو أردنا إحصاء العميان من حيث السن التى أصيبوا فيها بهذه الآفة لأمكننا أن نقول على وجه الإجمال إن عشر العميان يصابون بالعمى وهم دون العشرين من العمر ، وخمسة أعشارهم يصابون به فى الشيخوخة ، بعد سن الستين ، والأربعة الأعشار الباقية يصابون به بين العشرين والستين » .

(٢) « وجاء أخرة وبأخرة محركتين ، وقد يضم أولهما ، وأخيراً وأخرا بضمتين ، وأخريا بالكسر والضم ، وإخريا بكسرتين ، وآخريا ، أى آخر كل شىء » (القاموس) .

وفى كتابى «محاضرات الثلاثاء» تحدثتُ عن جريمة سمل العيون فى التاريخ الشرق، وذكرت أسماء الكثيرين ممن كانوا ضحايا لهذه الجريمة، وأشرت إلى علو مكانتهم بين الناس[1] .

ولم تقتصر حوادث السمل الإجرامية على الشرق، بل وقع أمثالها فى الغرب ، فقد روى التاريخ أن لذريق آخر ملوك القوط بأسبانية كان أبوه دوق قرطبة، فغضب عليه غيطشة ملك البلاد وسمل عينيه، فثار لذريق على غيطشة، وقاتله وهزمه، واستولى على عرش أسبانية مكانه[2] .

وهناك حوادث « القدح » وهو ما يقوم به القدَّاح فى العين لإخراج مائها الفاسد ، وكثيراً ما تغور العين بسبب ذلك لعدم الخبرة والاحتياط ، أو لسوء النية فى القدح .

جاء فى « أساس البلاغة » للزمخشرى :

« وقدح القدّاحُ العينَ : أخرج ماءَها الفاسد ، وقدحت عينُه وقدَّحت : غارت فصارت كالقدَح ، قال زهير :

وعزَّتها كواهلها ، وكلَّتْ سنابكها ، وقدَّحت العيون

وقال آخر :

فالعين قادحة ، واليدُ سابحة والرجل ضارحة ، والبطن مقبوب »

وهناك حوادث « التكحيل » أيضاً ، وهو أن يضع الكحَّال فى العين

---

(١) كتاب محاضرات الثلاثاء ، ص ٧٦ .
(٢) كتب تاريخ غزوات العرب ، للأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٩ .

ما يذهب ببصرها عامدا أو خاطئاً[1] ، والتاريخ يحدثنا عن جرائم من هذا القبيل ، وسيمر علينا بعضها .

* * *

وكذلك نلاحظ أن أغلب الذين ضاع بصرُهم فى حياتهم كانوا من المشتغلين بالمسائل العلمية والأمور الأدبية ، فهم إما فقهاء ، أو حكماء ، أو شعراء ، أو أدباء ، أو أطباء .

ولا شك أن أعمال هؤلاء تعتمد فى الغالب على العين ، وتأخذ الوقودَ منها .

ومن هنا نرى أن كفّ البصر فى الحياة لا يعيب صاحبَه فى أغلب الأحيان ، لأنه إما عن إهمال الغير ، حيث يصاب الناشىءُ بفقد البصر وهو صغير لا حيلة له فيه ، ولا يد له فى الإتيان به ؛ وإما عن إرهاق وعمل موصول يقذى البصرَ ويذهب به ، وهذا شأن الذين يريدون أن يكون لهم فى الدنيا تاريخٌ وذكر ؛ وإما عن طريق السمل والقدح والتكحيل . وتلك جرائم تعيب فاعلها ، ولا تعيب من وقعت عليه من المظلومين .

وهناك ظاهرة لاحظتُها وأنا أتتبع تراجمَ المكفوفين فى التاريخ ، وهى أن أكثر المكفوفين مُعَمَّرون ، أى طوال الأعمار ؛ ومتوسط أعمار المبصرين نحو الستين ، وقد جاء فى الحديث الحسن الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) قال بعض الشعراء يذم طبيباً يسىء فى التكحيل :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه … وبكحله الأحياء والبصراء

فإذا نظرت رأيت من عميانه … أمما على أمواته قراء !

« أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك » .

بينما رأيت أن متوسط أعمار كثير من المكفوفين يزيد على السبعين ، وكثير منهم يزيد فى عمره على المئة ؛ ويخيَّل إلىَّ أن السبب فى ذلك هو أن عدم الرؤية يريح الأعصاب ، ويدخل بالهدوء على النفس والحس ، لأن المشاهدَات المختلفة المثيرة للفكر والشعور تشغل الذهن والقلب بأمور كثيرة متواصلة ، وهى فى ذلك تحتاج إلى وقود ، وهذا الوقود يكون من الجسم والعمر ، ولذلك قالوا إن إغلاق العينين إحدى الراحات الثلاث وهى : ألا يرى الإنسانُ شيئاً[1] ، وألا يسمعَ شيئاً ، وألَّا يقول شيئاً ، وقد صنع بعضُ الناحتين للتعبير عن ذلك القول تمثالا فيه ثلاثة رجال :

الأول منهم قد وضع يديه على عينيه ، والثانى قد وضع إصبعيه فى أذنيه ، والثالث قد وضع يديه على فمه ؛ وقد تستطيع أن تفضِّل إحدى الحالات الثلاث على الأخريين ، ولكن الثلاث تشترك فى أنها سبب من أسباب الراحة والهدوء .

وطول العمر عند الإنسان محمدة إذا صحبه العملُ الصالح ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » . ويقول فيما يرويه الطبرانى عن أبى أمامة : « ثلاثة لا يستخف الله بحقهم : ذو الشيبة فى الإسلام ، وذو العلم ، وإمام مقسط » . ويقول فيما يرويه أبو نعيم فى الحلية

---

(١) كان بشار بن برد الشاعر المكفوف يقول : « الحمد لله الذى أذهب بصرى لئلا أرى من أبغض » وكان متبرما بالناس شديد الكراهية لوجوده بينهم ، وكان يقول : « اللهم إنى تبرمت بالناس وبنفسى ، فأرحنى منهم » ! . ومن المنسوب إلى أبى العلاء المعرى قوله :

قالوا : العمى منظر قبيح قلت : بفقدانكم يهون
والله ما فى الوجود شىء تأسى على فقده العيون

عن على : « إن الله تعالى يحب أبناء السبعين ، ويستحى من أبناء الثمانين » .
ويقول فيما يرويه ابن عساكر عن ابن عمر : « إن الله تعالى يحب أبناء الثمانين[١] » .

وجاء فى (المستطرف) أن النبى قال : « ألا أُنبئكم بخياركم ؟ . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أطولكم أعماراً فى الإسلام إذا سددوا »[٢] .

قد يقال : لكنَّ كثيرا من مُعَمَّرى المكفوفين لم يصابوا بكف البصر إلا أخيرا ، أو خلال حياتهم ، ومعنى ذلك أنهم كانوا مبصرين مشغولين بمشاهدة المرئيات والصور ، وكانوا يستنفدون فى تلك المشاهدة مايستنفدون .

فنقول : ولكن يوجد أيضا كثيرون من معمَّرى المكفوفين الذين أصيبوا بكف البصر منذ الصغر ، وبعضهم وُلد مكفوفَ البصر .

ومع التسليم بما يقوله ذلك القائل نستطيع أن نقول : لعلَّ الفترة التى يقضيها المكفوف وهو غير مبصر فى الشطر الأخير من حياته تكون سببا فى هدوء الكفيف واستراحته من شواغل البصر والمشاهدة ، فيكون ذلك معوانا على طوله عمره وابتعاد المنغصات عنه . ونحن لانعمم الحكم ، بل نلاحظه فى طائفة من المكفوفين . .

ونستطيع الآن أن ننتقل إلى استعراض طائفة من الشخصيات التاريخية المكفوفة ، لنرى أن بعضها قد أصيب فى بصره بسبب جريمة « السَّمْل » ، وأن بعضها قد أصيب فيه بسبب تفريط سواه .

وكذلك سنرى أن كثيرا من هؤلاء قد طرأ عليهم كفُّ البصر فى حياتهم ،

(١) أشار السيوطى فى الجامع الصغير إلى هذا الحديث بعلامة الضعيف .
(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف ، ج ٢ ص ٣٣ .

وأن الذين يولدون مكفوفين عددهم قليل بالنسبة إلى الذين يطرأ عليهم كف البصر لمختلف الأسباب .

وسنرى أن طائفة من هؤلاء قد طرأ عليهم كف البصر بسبب مجهودات جليلة بذلوها ، أو بسبب أعمال يُشكَرون من أجلها ولا يعابون عليها .

وسنتبين هذه الظاهرةَ التى لاحظتُها ، وهى ميل أعمار المكفوفين إلى الطول غالبا ، وكأن هذا الطول فى العمر عند المكفوف لون من التعويض الإلهى له ، وبخاصة إذا صحب هذا العمرَ الطويل عملٌ جميل .

وقد لا يسوء أحداً أن أشير إلى المشقة البالغة التى عانيتُها فى استخلاص الشواهد على هذين الأمرين وهما : ميل أعمار المكفوفين إلى الطول ، وطروءُ كف البصر فى حياة المكفوفين غالبا ؛ ولقد راجعت من أجل ذلك ما يقرب من أربعمائة ترجمة من تراجم المكفوفين الذين كتب عنهم التاريخ ، وكثيرا ما كنت أقرأ الصفحات الطوال لأخرج بجملة أو ببعض جملة ، كقولهم : « وأضر بأخرة » أو : « ثم كف بصره » أو : « وعمى فى حياته » ... إلخ .

وكثيرا ما كنت أقرأ الصفحات فى تاريخ المكفوف ، لأعثر على سنة مولده وسنة وفاته ، فأعرف من ذلك مدةَ عمره .

وهذه السطور القليلة التى سأذكرها عن كل مكفوف تعطى على الرغم من وجازتها فكرةً سريعة عن مكانة صاحبها وعن حياته ، وهذه فائدة أخرى نستفيدها من مسايرة هذه القائمة ، إذ نتعرف عن طريقها إلى هؤلاء المكفوفين الذين تحدث عنهم التاريخ ...

وأبدأ بذكر بعض الذين ذهبت أبصارُهم ضحيةً لجريمة السمل ، أو التكحيل ، أو ما أشبههما :

(١) الوزير أبو الطاهر محمد بن محمد بن بقية ، قبض عليه عزُّ الدولة بمدينة واسط ، وسمل عينيه ؛ وقُتل أبو الطاهر سنة سبع وستين وثلاثمائة .

(٢) الملك صمصام الدولة المرزبان بن فناخسرو ، تولى المُلْكَ بعد أبيه بالعراق ، وحُمل إلى فارس ، واعتُقل بقلعة وكُحِّل ، ومات له ولد ، فقالوا : إنه من حزنه عليه كان يبكى من أذنيه !!...

وهذا من الغرائب كما يقول الصفدى .

قُتل صمصام الدولة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

(٣) أمير المؤمنين محمد بن أحمد الظاهر بالله ، جرى بينه وبين أبيه الناصر نزاعٌ ، فحبسه أبوه فى دار مبيضة الأرجاء ، ليس فيها لون غير البياض ، وكان حراسه يفتشون اللحم خوفاً من أن يكون فيه شيء أخضر ينعش به نور بصره ، فضعف بصرُه ، وكاد يذهب جملة ، إلى أن احتال ابن الناقد الذى صار وزيراً بعد ذلك ، فدخل عليه ومعه سروال أخضر ، وتظاهر أنه يريد المرحاض ، فدخله وترك السروال فيه ، وفطن الظاهر لذلك ، فدخل على أثره فوجده فلبسه ، ولم يزل يتعلل به إلى أن تراجع ضوءُ بصره .

تُوفى الظاهر بالله سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

(٤) أمير المؤمنين محمد بن أحمد العباسى القاهر بالله ، خلعوه فى القاهرة فى جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وسملوا عينيه فسالتا ، وحبسوه مدة ، وتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .

(٥) حاجب العرب أيام سيف الدين تنكز ، على بن مقلد ، أخذ عليه

الأمير شيئاً ، فأحضره وضربه بالمقارع ضرباً شديداً مبرِّحاً ، وكحَّله ، وقطع لسانه فى الاعتقال ، لأنه كان يتكلم بما لا يليق .

توفى ابن مقلد سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة .

(٦) الوزير أبو الفتح على بن محمد المشهور بابن العميد ، الذكى الأديب الناظم . قَبض عليه مؤيدُ الدولة فى شهر ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة ، وجز لحيته ، وسمل عينيه ، وجدع أنفه ، وحبسه وعذّبه حتى مات .

ومن شعر أبى الفتح[1] :

يا مولَعــا بعذابى	أما رحمتَ شبابى ؟
تركتَ قلبىَ تيهــا	نهبَ الأسى والتصابى
إن كنتَ تنكر ما بى	من ذلتى واكتئابى
فارفع قليلا قليلا	عن العظام ثيابى !

(٧) أمير المؤمنين عبد الكريم بن الفضل ، الطائع لله الخليفة العباسى . خلعه بهاء الدولة بن عضد الدولة بإشارة الأمراء ومعونتهم ، وسملوا عينيه ، وجعلوا القادر مكانه . توفى الطائع لله سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة (٣٩٣) ﻫ .

(٨) أمير المؤمنين المستكفى بالله عبد الله بن على . قُبض عليه فى جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، وسُملت عيناه . وسُجن فى هذه السنة ، إلى أن مات سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٨) ﻫ .

(٩) الأمير صارم الدين صاروجا المظفرى الذى كان أميراً بمصر ، اعتقله الأمير سيف الدين بشتاك ، ثم إن المرسوم ورد بتكحيله ، فدافع عنه

---

(١) سقت بعض الأشعار خلال هذه التراجم الوجيزة لتخفف حدة الأسلوب التاريخى ، ولتدل على جوانب من حياة المكفوفين الأدبية .

الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغا النائب ، ثم إنه خاف وصمم وكحله فعمى بأمره ، وفى صبيحة ذلك اليوم ورد المرسوم بالعفو عنه بعد أن سبق السيفُ العذل.

توفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (٧٤٣) ﻫ .

(١٠) الأمير سيف الدين أَلْطُنْطاش نائب قلعة بصرى . قهره معين الدولة أنر ، وكان ألطنطاش له أخ يدعى خطلخ ، فآذاه وكحله وأبعده ، فحضر إلى دمشق ، فلما قدم أخوه ألطنطاش إلى دمشق حاكمه أخوه إلى الشرع ، وكحله قصاصا ، فبقيا مكفوفين .

توفى ألطنطاش فى حدود الخمسين والخمسمائة (٥٥٠) ﻫ .

(١١) إسحق سلطان شاه بن فاروت بك بن داود بن سلجوق ، قهره وأسره ملكشاه ، وقدم سلطان شاه إسحاق هذا — وهو أكبر إخوته وأنجبهم — وهو كما بقل عذاره ، فأخذ إخوته الصغار واحدا بعد واحدا ، وجعل يضمهم إليه ويقبلهم ويقول : هذا قضاء الله فلا تجزعوا ، فإن الموت يأتى على جميع الناس . وكُحل وكُحلوا ، ومات منهم اثنان .

توفى إسحاق سنة ست وسبعين وأربعمائة (٤٧٦) ﻫ .

(١٢) أمير المؤمنين المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر . وُلد سنة سبع وتسعين ومائتين ، واستُخلف سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعد أخيه الراضى بالله ، فوليها إلى سنة ثلاث وثلاثين ، ثم إنهم خلعوه وسملوا عينيه . والذى سمله هو توزون ، وبايع المستكفى من ساعته ؛ وقال المتقى فى ذلك :

كحلونا وما شكو ... نا إليهم من الرمْد

ثم عاثوا بنا ونحـ ... ـن أُسُود وهم نَقَد[١]

---

(١) النقد بفتح النون والقاف : صغار الغنم .

كيف يغتر من أقر ... نا وفى دستنا قعد ؟

(١٣) الحافظ الفقيه المحدِّث قاضى الموصل أبو الحسن على بن مسهر القرشى ، ولى قضاء أرمينيه ، فلما قدمها اشتكى عينه ، فقال قاض كان قبله للكحال : اكحله بما يُذهب عينَه ، حتى أعطيك مالا ، فكحَّله فذهبت عينه ، فرجع إلى الكوفة مكفوفَ البصر .

توفى سنة تسع وثمانين ومائة (١٨٩) هـ .

(١٤) الشاعر البليغ النور الأسعردى ، كف بصره فى حياته بسبب التكحيل ، وفى كف بصره يقول :

قد كنت من قبل فى أمن وفى دعة ... طرفى يروض لقلبى روضةَ الأدب
حتى تلقبت (نور الدين) فانعمشت ... عينى ، وحُوِّل ذاك النور لِلّهب !

ويقول ، وفيه إشارة إلى سبب كفه :

عجبت لذا الكحال كيف أضلنى ... ولكم أضل بميله وبمَيْنه
ذهب اللئيم بناظرىَّ ، ومارثى ... لأخى الأسى إذ راح منه بعينه
أأصاب منه فى ثلاثة أعين ... هذا لعمركم الصغار بعينه

ويقول :

يا سائلى لما رأى حالتى ... والطرف منى ليس بالمبصرِ
لست أحاشيك ، ولكننى ... سمحت بالعينين للأعور !

* * *

ونواصل فيما يلى ذكرَ الشخصيات التاريخية المكفوفة ، وسنرى كيف

جاء كف البصر أثناء الحياة ، بسبب مرض أو طارىء آخر ، كما سنرى كيف تطول أعمار هؤلاء المكفوفين :

(١٥) عبد الصمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى. كان كبير القَدْر معظَّما ، وهو أعرقُ الناس فى العمى ، لأنه أعمى ابن أعمى ابن أعمى ابن أعمى ابن أعمى . وقعت فى عينه ريشة فعمى منها .

ولد سنة أربع ومائة (١٠٤) وتوفى سنة خمس وثمانين ومائة (١٨٥)هـ، فيكون عمره فوق الثمانين ، وهو عمر طويل .

(١٦) الشاعر العظيم أبو العلاء المعرى، وهو أشهر من أن نطيل الحديثَ فيه . أصيب بالجدرى وهو فى الرابعة من عمره فذهب بصره : على أن عماه لم يكن كلياً فى أول الأمر ، بل ذهب الجدرى أولا بعينِه اليسرى ، وغشى اليمنى بياضٌ ، وذهب بصره كلية بعد ذلك .

وُلد أبو العلاء سنة ثلاث وستين وثلاثمائة (٣٦٣) ، وتوفى سنة تسع وأربعين وأربعمائة (٤٤٩) ، فيكون عمره ستاً وثمانين سنة ! . . .

(١٧) الإمام العلامة أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى صاحب التصانيف . كُف بصره فى صباه بسبب الجُدَرى -- والجدرى من أخبث أعداء المكفوفين -- وكان إذا أراد أن يصنِّف شيئاً أُحضرت إليه مصنفاتُ ذلك الفن وقرئت عليه .

ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة (٥٣٨) وتوفى سنة ست عشرة وستمائة، فيكون عمره ثمانية وسبعين عاماً .

(١٨) الشاعر أبو الحسن على بن جبلة بن مسلم المعروف بالعكوك (أى

السمين القصير) الخراسانى ، أحد فحول الشعراء ، كان أسودَ أبرص ، وكان أحسنَ خلق الله إنشاداً كما يروى الجاحظ ، وله مدائح مشهورة فى الأمير أبى دلف ، وولد سنة ستين ومائة (١٦٠) ، ومات سنة ثلاث عشرة ومائتين (٢١٣) .

قيل إنه وُلد أعمى ، ولكن الأصفهانى فى (الأغانى) يروى أن ابن أخى على بن جبلة قال :

كان لجدى أولاد ، وكان على (بن جبلة) أصغرهم ، وكان الشيخ يرقُّ عليه فجدّر ، فذهبت إحدى عينيه فى الجدرى ، ثم نشأ وأُسلم فى الكتّاب ، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان ، فحُمل على دابة ونثر عليه اللوز ، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة ، فذهبت ، فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرزاق من السلطان ، فإن أعنتمونى على هذا الصبى ، وإلا صرفتُ بعضَ أرزاقكم إليه .

فقلنا : وما تريد ؟ قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب . قال : فكنا نأتى به مجالسَ العلم ، ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان ، فما أتى عليه الحولُ حتى برع ، وكان العالم إذا رآه قال لمن حوله : أوسعوا للبغوى .

وكان ذكياً مطبوعا فقال الشعر[1] .

(١٩) أمير المؤمنين الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الحسن . بقى عاطلا من الحركة بالكلية ثلاث سنين ، قد ذهبت إحدى عينيه ، وفى الأخرى أصابه دوسنطاريا عشرين يوماً .

وقال أبو المظفر بن الجوزى : قل بصر الخليفة فى الأواخر ، وقيل ذهب جملة .

---

(١) الأغاني ، ج ١٨ ص ١٠١ .

ولد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة (٥٥٣)، وتوفى سنة اثنتين وعشرين وستمائة، فيكون عمره تسعة وستين عاما.

(٢٠) الصحابى فُوَيْك. قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً، فسأله النبى ما أصابه، فقال: وقعتُ على بيض حية فأصيب بصرى؛ فنفث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر، فرؤى وهو ابن ثمانين سنة، يُدخل الخيط فى الإبرة وإن عينيه لمبيضتان.

ومعنى هذا أنه زاد فى عمره على الثمانين، وهى مدة طويلة، ولذلك استثقلها الشاعر حينما صحبها ثقلُ السمع، فقال:

إن الثمانين — وبُلغْتَها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وفى بعض الروايات أن اسم هذا الصحابى هو حبيب بن فورك. فعن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه عمن حدثه أن حبيب بن فورك خرج به أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئاً. فسأله رسولُ الله عمَّا أصابه، فقال: إنى كنت أمون جملا لى[١]، فوضعت رجلى على بيضةِ حية فابيضت عيناى؛ فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر، فلقد رأيتُه يُدخل الخيطَ فى الإبرة وهو ابن ثمانين[٢].

* * *

ونواصل استعراضَ هذه الشخصيات التاريخية المكفوفة، وسنرى فيما يمر علينا كثيرين وصفَهم التاريخُ بأنهم «أضروا» فى حياتهم، أى أصابهم

---

(١) أى أطعمه وأقوم بكفايته.

(٢) فى ذكر فويك هنا شىء من التجوز، وهو يذكر فى تراجم المكفوفين عادة.

كف البصر بعد أن كانوا مبصرين ، وسنرى أن طول العمر غالب عليهم أيضاً :

(٢١) الكاتب المنشىء أبو الحجاج يوسف بن محمد بن الحسين ، صاحب ديوان الإنشاء بمصر فى دولة الحافظ أبى الميمون : « عاش كثيرا ، وعطل فى آخر عمره ، وأضر ، ولزم بيته » .

توفى سنة ست وستين وخمسمائة (٥٦٦) هـ .

(٢٢) الثقة أبو يعقوب يوسف بن عدى الكوفى ، روى عنه البخارى ، وروى النسائى عن رجل عنه : « وأضر قبل موته بيسير » .

توفى سنة ثنتين وثلاثين ومائتين (٢٣٢) هـ .

(٢٣) الطبيب الفاضل أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن على ، صاحب الفطرة الفائقة . كان له اهتمام بالغ فى العلوم ، وله تصانيف وتلامذة : « وأضر أبو البركات فى آخر عمره » ، وعاش ثمانين سنة .

توفى فى حدود سنة ستين وخمسمائة (٥٦٠) هـ.

(٢٤) الفاضل الصدوق صاحب السنة أبو على هارون بن معروف المروزى . كان خزازا ، وروى عنه مسلم وأبو داود ، « وأضر بأخرة » . قال : رأيتُ فى المنام قيل لى : من آثر الحديث على القرآن عُذب . قال : فظننتُ أن ذهاب بصرى من ذلك .

توفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين (٢٣١) هـ .

(٢٥) الفقيه القاضى نوح بن دراج الكوفى ، كان قاضيا بالجانب الشرقى

من بغداد ، وهو أحد المجتهدين : « وأضر بأخرة » .

توفى سنة ثنتين وثمانين ومائة (١٨٢) .

(٢٦) النحوى أبو الحرم مكى بن ريان بن شبة الماكسينى ، قرأ عليه أهلُ الموصل ، وتخرَّج به أعيانُ زمانه من أهلها ، وكان حرا كريما صالحا صبورا على المشتغلين ، وكان من أحفظ الناس للقرآن ، ناقلا للسَّبْع ، وأخذ من كل علم طرفا ، وسمع الحديثَ فأكثر ، ومن شعره :

إذا احتاج النوالُ إلى شفيع فلا تقبله ، نصح قرير عين
إذا عيف النوالُ لفرد مَنٍّ فأولى أن يعاف لمنتين !

وكان يتعصب لأبى العلاء المعرى ، ويطرب إذا قرئ عليه شعرُه للجامع بينهما من الأدب وكف البصر ، لأنه — أى الماكسينى — « أضر بأخرة » .

قال ياقوت رحمه الله : رأيته ، وكان شيخا طُوَالاً[1] على وجهه أثر الجدرى.

ويظهر أن الجدرى هذا كان السببَ فى كف بصره .

توفى سنة ثلاث وستمائة (٦٠٣) ﻫ .

(٢٧) الشاعر أبو الحمائل مقلد بن أحمد ، كان يقول الجيِّدَ من الشعر ، « وأضر آخر عمره » .

وُلد سنة تسع وأربعين وخمسمائة (٥٤٩) ؛ وتوفى سنة ست وثلاثين وستمائة (٦٣٦) ، فيكون عمره سبعة وثمانين عاما !...

(٢٨) القاضى الفقيه المظفر بن القاسم الشهرزورى ، ولى قضاء سنجار

---

(١) طوال بوزن غراب : طويل .

بعد علو سنه ، وسكنها ، « وأضر فى آخر عمره » .

ولد سنة سبع وخمسين وأربعمائة (٤٥٧) ، وقدم بغداد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٤) ، أى وهو فى السابعة والسبعين من عمره ، وهذا يدل على طول عمره ، لأنه عاش بعد ذلك .

(٢٩) الشيخ العالم الورع تاج الدين محمد بن يوسف بن تُرشَك الصوفى الحنبلى المقرئ المحدِّث ، حفظ القرآن فى صباه بالروايات ، وأقرأه ، وكان ذا سمت حسن ، وخُلق طاهر ، ونفس عفيفة رضيّة ، وصوت مطرب للغاية ، « وقد أضر بأخرة » .

ولد سنة ثمان وستين وستمائة (٦٦٨) ، وتوفى سنة خمسين وسبعمائة (٧٥٠) فيكون عمره اثنين وثمانين عاما .

(٣٠) الإمام الشيخ العالم العابد السيد محيي الدين محمد بن عدنان بن حسن العلوى الدمشقى ، شيخ الإمامية الصبور ، كان ذا تعبد زائد ، وتلاوة ، وتأله ، وانقطاع بالمرة ، « وأضر مدة قبل موته » .

ولد سنة تسع وعشرين وستمائة (٦٢٩) ، ومات سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة ، فيكون عمره ثلاثة وتسعين عاما .

(٣١) الشاعر نور الدين أبو بكر محمد بن عبد العزيز الأسعردى ، كان من كبار شعراء الملك الناصر ، وكان فيه دعابة ، وأضر الشاعر الأسعردى المذكور قبل موته .

مات سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦) هـ .

(٣٢) المحدث الفقيه محمد بن شرشيق ، صاحب الوجاهة عند الملوك ،

وصاحب الأصالة والتدين ، وبيته بيت رئاسة وحشمة وسؤدد ومروءة : والخيرُ والإحسان معروفان بهم . « وأضر قبل موته بنحو من ست سنين » .

ولد سنة إحدى وخمسين وستمائة (٦٥١) ، ومات سنة تسع وثلاثين وسبعمائة (٧٣٩) هـ ، فيكون عمره ثمانية وثمانين عاما .

(٣٣) الشيخ الصالح المُسْنِد أمين الدين محمد بن أبى بكر الأسدى الحلبى الصفّار ، نزيل دمشق ، وكان ساكنا خيِّرا وفيه بر : « وتفرد وأضر وانحطم » « ثم إنه قُدِح بعد ما أضر فأبصر » ، وهو يوصَف بالمعمَّر .

ولد سنة خمس وعشرين وستمائة (٦٢٥) ، ومات سنة عشرين وسبعمائة ، فيكون عمره خمسة وتسعين عاما .

(٣٤) الإمام العالم العلامة المحدث شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبى ، الحافظ الذى لايجارَى ، واللافظ الذى لايبارَى ، الذكى المصنِّف المؤرخ ، له دربة بأقوال الناس والمذاهب .

« وكان قد أضر رحمه الله تعالى قبل موته بأربع سنين أو أكثر ، بماء نزل فى عينيه ، فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له : لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك ، ويقول : ليس هذا بماء ، وأنا أعرف بنفسى ، لأننى ما زال بصرى ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمُه » .

ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة (٦٧٣) ، وتوفى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (٧٤٨) ، فيكون عمرُه خمسةً وسبعين عاما .

(٣٥) الإمام العالم قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الكنانى الحموى ، كان قوىَّ المشاركة فى علوم الحديث والفقه والأصول والتفسير ، خطيبا ، تام الشكل ، ذا تعبد وأوراد ، وله تصانيف وإفتاء ،

« وامتدت حياتُه إلى أن شاخ ، وكبر ، وأضر ، وثقل سمعه » .

ولد سنة تسع وثلاثين وستمائة (٦٣٩) ، وتوفى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة (٧٣٣) هـ ، فيكون عمره أربعة وتسعين عاما .

(٣٦) أحد الأعلام القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، كان فقيها مجتهدا ، ورعا عابدا ، ثقة حجة . قال مالك : كان القاسم من فقهاء هذه الأمة وكان خيرا من أبيه ، وروى له الخمسةُ وابن ماجة . « وأضر بأخرة » .

ولد فى خلافة عثمان ، (استشهد عثمان سنة خمس وثلاثين) ومات القاسم سنة سبع ومائة (١٠٧) فيكون عمره على أقل تقدير اثنين وسبعين عاما .

(٣٧) أبو العباس الخضر بن ثروان ، العالم النحوى الأديب الشاعر . يظهر أنه عمى فى حياته بدليل قوله :

كتبتُ وقد أودى بمقلتى البكا ... وقد ذاب من شوق إليك سوادُها

فما وردت لى نحوكم من رسالة ... وحقِّكمُ إلا وذاك مدادها

ومن شعره :

أنت فى غمرة النعيم تعومُ ... لست تدرى بأن ذا لا يدومُ

كم رأينا من الملوك قديما ... همدوا ، فالعظام منهم رميم

ما رأينا الزمان أبقى على شخـ ... ـص شقاءً ، فهل يدوم النعيم؟

والغِنى عند أهله مستعار ... فحميد به ، ومنهم ذميم !

(٣٨) أحد الأعلام القاسم بن فيرُّه (أى الحديد) الرُّعَينى الشاطبى ، كان إماما علامة ، نبيلا محققا ، واسعَ المحفوظ ، كثير الفنون ، متقنا بارعا فى القراءات ، أستاذا فى العربية ، زاهدا مهيبا ، مخلصا متخشِّعا . « ودُفن فى

مقبرة الفاضل بسارية مصر . قال ياقوت : بعد أن أضر » .

توفى سنة تسعين وخمسمائة (٥٩٠) هـ .

(٣٩) الفقيه الثقة عمر بن ميمون ، قاضى بلخ ، « أضر فى آخر عمره » .

توفى سنة إحدى وسبعين ومائة (١٧١) هـ .

(٤٠) الشيخ الصالح نور الدين على بن عمر بن أبى بكر المصرى الصوفى الوافىُّ الأصل ، وكان شخصا صالحا سهل القياد ، « وأضر بأخرة ، ثم عولج فأبصر » .

ولد سنة خمس وثلاثين وستمائة (٦٣٥) ، ومات سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، فيكون عمره اثنين وتسعين عاما .

(٤١) الإمام العلامة الشيخ موفق الدين على بن الحسن البغدادى الحنبلى ، كان من أعيان العُدُول ببغداد ، وكان بهيا عفيفا مباركا ، عالما عاملا ، وإجازته عالية ، « وأضر قبل وفاته بمدة » .

توفى سنة خمس وثمانين وستمائة (٦٨٥) بناحية الراذان .

(٤٢) الإمام العلامة زين الدين أبو الحسن على بن أحمد بن يوسف الآمدى الحنبلى ، كان شيخاً مهيباً صالحاً ، ثقةً صدوقا ، كبير القدر والسن ، وآية عظيمة فى تعبير الرؤيا ، مع مزايا أخرى عجيبة ، وله تصانيف ؛ و « أضر فى أوائل عمره » .

وتوفى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (٧١٢) هـ .

(٤٣) اللغوى المشهور أبو الحسن على بن أحمد بن سِيدَه الأندلسى ، كان متوفراً على علوم العربية والحكمة ، أعجوبة فى الحفظ ، وله تآليف منها

« المخصَّص » و « المحكَم » ، « وأضر فى آخر عمره ، وزمِنَ » .

ومن شعره يستعطف إقبالَ الدولة الموفق :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيلٌ ، فإن الأمن فى ذاك واليمنا

ضحيت فهل فى برد ظلك نومة لذى كبدحرى ، وذى مقلة وسنى

ونضو هموم طلّحته ظُبـــاته فلا غاربا أبقين منه ولا متنا ! ؟

(٤٤) الطبيب البارع الأديب مهذب الدين على بن أحمد بن هَبَل البغدادى . « أضر فى آخر عمره وزمِنَ » ، وكان الناس يأتون إلى منزله ، ويقرأون عليه ، وله مصنفات . ومن شعره :

لقد سبتنى غداةَ الخيف غانيةٌ قد حازت الحسن فى دل لها وصِبا

قامت تميس كخوط البان غازله مع الأصائل ريحا شمأل وصَبا

يكاد من دقةٍ خصرٌ تدل به يشكو إلى ردفها من ثقله وَصَبا

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما هام قلبي بحبيها هوًى وصَبا[١]

توفى سنة عشر وستمائة (٦١٠) بالموصل .

(٤٥) الإمام الورع التقى تاج الدين على بن أبى القاسم القزوينى القاضى ، ولى القضاءَ خمسين سنة ، وهذا يدل على طول عمره . وكان ديِّنا متواضعا ، متوددا ، حسنَ الخَلْق والُخلق ، جمّ الفضائل ، باشًّا وقورا . « ودرَّس بالمدرسة النظامية زمانا إلى أن توفى ُبعيد ضرره » .

توفى بعد الأربعين والسبعمائة (٧٤٠) .

(٤٦) المحدِّث على بن أبى بكر بن روزَبه البغدادى الصوفى . « أضر بآخر عمره » ، وجاوز السبعين ، وتوفى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (٦٣٣) .

---

(١) أنظر صفحة ١٤٧ من هذا الكتاب ففيها تحليل الأبيات .

(٤٧) الكاتب العلاء بن الحسن البغدادى ، تولى ديوانَ الرسائل ، وناب فى الوزارة . وهو أحد الكتّاب الذين يُضرب بهم المثلُ ؛ ولقَّبه الخليفة (أمين الدولة) ، ومن قرأ السير علم أن الخلفاء والملوك لم يثقوا بأحد ثقتَهم بأمين الدولة ، ولا نصحهم أحد نصحه . « وأضر آخر عمره » .

ومن شعره :

أقول للائمى فى حبِّ ليلى   وقد ساوى نهار منه ليلا
أقلَّ فما أقلت قط أرض   محبا جر فى الهجران ذيلا

ومن شعره :

بنفسى ـ وإن عزت ـ وأهلى أهلةٌ   لها غُرَر فى الحسن تبدو وأوضاح
نجوم أعاروا النورَ للبدر عندما   أغاروا على سرب الملاحة واجتاحوا
فتتضح الأعذار فيهم إذا بدوا   ويفتضح اللاحون فيهم إذا لاحوا
وكرخيةٍ عذراءَ يُعذِر حبُّها   ومن دنّها فى الدهر تقدح أفراحُ
إذاجُليت فى الكأس والليل ما انجلى   تقابلَ إصباحٌ لَديك ومصباح
يطوف بها ساقٍ لسُوق جماله   نَفَاق لإفساد الهوى فيه إصلاح
به عجمة فى اللفظ تُغرى بوصله   وإن كان منه فى القطيعة إفصاح
وغُرتُه صبح ، وطُرتُه دجى   ومبسمه دُر ، وريقته راح
أباح دمى مذ بُحت فى الحب باسمه   وبالشجو من قبلى المحبون قد باحوا
وأوعدنى بالسوء ظلما ، ولم يكن   لإشكال مايفضى إلى الضيم إفصاح

ولد سنة ثنتى عشرة وأربعمائة (٤١٢) ومات سنة سبع وتسعين وأربعمائة (٤٩٧) ، فيكون عمره خمسة وثمانين عاما .

(٤٨) الصحابي الجليل عقيل بن أبي طالب أخو الإمام علي . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : «يا أبا يزيد ، إني أحبك حبين ، حبا لقرابتك مني ، وحبا لما كنت أعلم من حب عمّي لك[1]» .

كان عليما بأيام العرب وأنسابهم ، سريعَ الجواب ، حاضر المراجعة في القول ، « وتوفي رضي الله عنه في حدود الخمسين ، وقد أضر بصره » .

(٤٩) أبو قحافة عثمان بن عامر ، والد أبي بكر الصديق ، أسلم يوم الفتح ، وهو أول مخضوب في الإسلام ، « وأضر بأخرة » .

مات سنة أربع عشرة للهجرة ، بعد أن عاش سبعة وتسعين عاما .

(٥٠) أحد الفقهاء السبعة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلي ، من أعلام التابعين ، ومؤدِّب عمرَ بن عبد العزيز ، ويقول فيه عمر : لأن يكون لي مجلس من عبيد الله أحب إليَّ من الدنيا . « وأضر رحمه الله بأخرة[2] »

توفي سنة ثنتين ومائتين (٢٠٢) هـ .

(٥١) الإمام العلاَّمة علم الدين عبد الكريم بن علي الأنصاري ، كان من المعدودين في علماء مصر ، وله مشاركة في الفقه وأصولِه ، وله اختصاص بتفسير الزمخشري ، وكان فكها صاحبَ نوادر ، وصنّف ، « وأضر في آخر عمره » .

ومن شعره :

يا سالكاً سبلَ السعادة منهجًا	يا موضح الخطب البهيم إذا دجا
يا ابن الذين رست قواعدُ مجدهم	وسرى ثناهم عاطرا فتأرجـــا
لا تيأسنْ من عود ما فارقتَه	بعد السِّرار ترى الهلالَ تبلجا

(١) روى ذلك الصفدي .   (٢) أنظر صفة ١٤١ من هذا الكتاب .

وابشر وسرِّح ناظرا ، فلقد ترى عما قليل فى العــدى متفرجا
وترى وليّك ضاحكا مستبشرا قد نال من تدميرهم ما يرتجَى !

ولد سنة ثلاث وعشرين وستمائة (٦٢٣) ، ومات سنة أربع وسبعمائة (٧٠٤) ، فيكون عمره واحدا وثمانين عاما .

(٥٢) الإمام المفتى ضياء الدين صدقة بن يحيى ، أفتى وأفاد ، ودرَّس مدة بحلب ، « وكان موصوفا بالعلم والديانة ، وأضر بأخرة » . ويوصف بالمعمَّر .

ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة (٥٥٩) ، ومات سنة ثلاث وخمسين وستمائة (٦٥٣) ، فيكون عمره أربعة وتسعين عاماً .

(٥٣) قاضى القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد التميمى الفقيه ، أحد الأئمة الأعلام . صنَّف فى قضاء المكفوف وجوازه[1] ، وله تصانيف كثيرة ، « وأضر آخر عمره وهو قاضٍ » .

ومن شعره :

أؤمل أن أحيي وفى كل ساعة تمرُّ بى الموتى تُهز نعوشُها
وهل أنا إلا مثلهم غير أن لى بقايا ليالٍ فى الزمان أعيشها

ومن شعره أيضا :

أُؤمل وصلا من حبيب ، وإننى على ثقة عما قليل أفارقه
تجارَى بنا خيلُ الحِمام ، كأنما يسابقنى نحو الردى وأسابقه
فياليتنا متنا معاً ، ثم لم يذق مرارةَ فقدى ، لا ولا أنا ذائقه

ومنه قوله :

يا سائلى كيف حالى بعــد فرقته حاشاك مما بقلبى من تنائيكا

(١) انظر صفحة ٣٧ من هذا الكتاب .

قد أقسم الدمعُ لا يجفو الجفونَ أسى والنومُ لا زارها حتى ألاقيكا

(٥٤) الصحابى الورع المتعبد ، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، كان شديدَ الاحتياط فى فتواه ، حريصاً على السنة ، متجنباً للفتن .

وقال جابر بن عبد الله : « ما منا أحد إلا مالت به الدنيا ومال بها ، ماخلا عمر وابنه عبد الله » . وأفتى فى الإسلام ستين سنة ، « وأضر بأخرة » ، وعاش أربعة وثمانين عاماً ، وتوفى سنة ثلاث وسبعين : (٧٣) .

(٥٥) الصحابى الجليل أبو الفضل العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان أنصر الناس للنبى ، جوادا كريما ، وصولا للرَّحِم ، ذا رأى حسن ودعوة مرجوّة . وفيه قال النبى : هذا عمى صنو أبى . « وأضر رضى الله عنه بأخرة » . روى أنه لما استسقى كان كفيفا ،[1] وعاش ثمانية وثمانين عاما .

مات سنة اثنتين وثلاثين للهجرة (٣٢) .

(٥٦) المحدث طلحة بن الحسين الصالجانى ، من المكثرين فى الحديث . « أضر فى آخر عمره » .

مات سنة خمس عشرة وخمسمائة (٥١٥) .

(٥٧) الأمير سيف الدين طقتمر الشريفى من أمراء الطبلخانات بدمشق . « وكان فى نظره ضعف ، وكان يركب قدامه واحدٌ من مماليكه يعرِّفه بالناس ليسلم عليهم ، ثم إنه أضر جملة كافة ، قبل موته بأربع سنين » .

توفى سنة خمسين وسبعمائة (٧٥٠) هـ .

(٥٨) الحكيم الواعظ صالح بن عبد القدوس البصرى ، له كلام حسن فى الحكمة .

(١) انظر صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

ومن شعره :

يا صاح لو كرهت كفي مصاحبتي لقلت إذ كرهت كفي لها : بِيني
لا أبتغي وصلَ من لا يبتغي صلتي ولا أُبالي حبيبــا لا يباليني

ومن قوله :

لا يعجبنك من يصون ثيابَه حذرَ الغبار وعرضه مبلول
ولربما افتقر الفتى فرأيتــه دنسَ الثياب، وعرضه مغسول !

« وكان قد أضر آخر عمره » . قتله المهدي .

(٥٩) الإمام العالم ضياء الدين أبو الحسن شيث بن إبراهيم القناوي ، صاحب التصانيف في العربية . جاءه بعض معاصريه وقال له : رأيت في النوم الفقيه شيثا يقول شعراً وهو :

أبثكم يا أهلَ ودي بأنَّ لي ثمانين عاما أُردفت بثمان
ولم يبق إلا هنوة أو صــبابة فجد يا إلهي منك لي بأمان

فقال له شيث : لي اليوم ثمانون سنة ، وقد نعيتَ لي نفسي .

ومن شعره :

اجهد لنفسك ، إن الحرص متعبة للقلب والجسم ، والإيمانُ يرفعه
فإن رزقك مقسوم ستُرزقه وكل خلق تراه ليس يدفعه
فإن شككت بأن الله يقسمه فإن ذلك بابُ الكفر تقرعه

« وتوفي ضياء الدين المذكور سنة تسع وتسعين وخمسمائة (٥٩٩) بعدما أضر » .
وعبارة (أنباء الرواة) : « توفي رحمه الله قريبا من سنة ستمائة ، بعد أن طعن في السن ، وكف بصره » .

(٦٠) سُوتاى الحاكم على ديار بكر عُمِّر حتى تجاوز المئة ، ورأى أربع بطون من ولده وولد ولده ، وولد ولد ولده ، وأولادهم ، حتى أنافوا على الأربعين ذكورا وإناثا . « وأضر قبل موته بسنوات » .

توفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (٧٣٢) ﻫ .

(٦١) الصحابى أبو عبد الرحمن سعيد بن يربوع القرشى المخزومى ، كان من مُسلمة الفتح ، وكان من أقران حكيم بن حزام ، « وأضر بأخرة » . وعاش مائة وعشرين سنة ، وقيل أربعا وعشرين ومئة سنة .

توفى سنة أربع وخمسين للهجرة (٥٤) ﻫ .

(٦٢) الحكَم بن أبى العاص القرشى الأموى عم عثمان رضى الله عنه ، كان من مسلمة الفتح . « وتوفى سنة إحدى وثلاثين للهجرة ، بعدما أضر بأخرة » .

(٦٣) القاضى شهاب الدين الحسين بن سليمان بن فزارة الدمشقى الحنفى ، تلا بالسبع ، وتصدر للإقراء ، وطال عمره ، وقرأ عليه خَلْقٌ من الفضلاء ، وكان ديِّنا خيِّرا صالحا عالماً ، « وأضر بأخرة » وبلغ عمره اثنتين وثمانين سنة .

توفى سنة تسع عشرة وسبعمائة (٧١٩) ﻫ .

(٦٤) الأمير سيف الدين بَيْبُغاء نائب الكرك . « كان قد أضر بأخرة » .

(٦٥) أحد الفقهاء السبعة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ، يسمى راهبَ قريش ، وهو من سادات التابعين ، « وأضر بأُخَرَة » .

ولد فى خلافة عمر بن الخطاب (استشهد عمر سنة ثلاث وعشرين) وتوفى سنة أربع وتسعين ، فعمره على أقل تقدير فوق السبعين .

(٦٦) الشيخ الخطيب أبو بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدس . كان ذا همة وجلادة وفهم وعبادة ، ووصفوه بأنه « المعمَّر اليقظ » ، « وأضر قبل موته بأعوام ، وثقل سمعه ، ولكن كان ذا همة وجلادة وفهم » .

ولد سنة خمس وعشرين وستمائة (٦٢٥) ومات سنة ثمان عشرة وسبعمائة (٧١٨) ، فيكون قد عاش ـ كأبيه ـ ثلاثة وتسعين عاما .

(٦٧) الصحابى أبى عمارة البراء بن عازب . نزل الكوفة ومات بها أيام مصعب بن عمير ، سنة إحدى وسبعين للهجرة « بعد ما أضر » .

واستُصْغر يوم غزوة بدر فى السنة الأولى للهجرة ، فيكون إذن طاعنا فى السن .

(٦٨) الشاعر المخضرم أمية بن حرثان الأشكر الصحابى الكنانى . كان ولده كلاب قد خرج للغزو على عهد عمر مع جيش أبى موسى الأشعرى ، فأنشد والده أبياتاً سمعها الخليفة عمر ، رجاه فيها أن يعيد ابنَه إليه فأعاده ، فى موقف مؤثر ذكرناه فى مكان آخر [1] .

(٦٩) الإمام العلامة الزاهد الكبير موفق الدين أحمد بن يوسف الموصلى الكَوَاشى . برع فى القراءات والتفسير والعربية والفضائل ؛ وكان عديم المثل زهداً وصلاحا وصدقا ، وكان السلطان ومَنْ دونَه يزوره ولا يعبأ بهم ، ولا يقوم لهم ، ولا يقبل منهم شيئاً ، وله كشف وكرامات ؛ وكان كثير الإنكار على بدر الدين صاحب الموصل ، وإذا شفع عنده لا يرده ، وله مصنفات ، « وأضر قبل موته نحو عشرين سنة » .

ولد سنة تسعين وخمسمائة (٥٩٠) . وتوفى سنة ثمانين وستمائة (٦٨٠) ، فيكون عمره تسعين سنة .

---

(١) انظر صفحة ١٦٦ من هذا الكتاب .

(٧٠) الإمام الشيخ نصير الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن تميم البغدادى الحنبلى ، الناسك الورع المعمّر ، كان فاضلا فى العربية والفقه ، وسمع الكثير ، وله نظم ونثر ، وبيته معروف بالفضل .

« أقعد قبل وفاته بسنين وأضر ، والناس يترددون إليه ، ويشتغلون عليه ، وينتفعون به ، ويسمعون منه ، ويستجيزونه ، ولم يزل حريصاً على العلم والعبادة والأشغال والاشتغال إلى حين وفاته » .

ولد سنة أربعين وستمائة (٦٤٠) ، ومات سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، (٧٣٥) ، فيكون عمره خمسة وتسعين عاما .

(٧١) أبو إسحاق برهان الدين إبراهيم بن محمد الوانى ، رئيس المؤذنين بجامع بنى أمية ، وكان صيّتا طيب النغمة جهورى الصوت ، « وكان قد أضر قبل موته بسنين » .

توفى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (٧٣٥) ه .

(٧٢) الشاعر المشهور أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن التعاويذى الزاهد ، شاعر العراق فى وقته ، وصاحب النسيب الرقيق . ومن شعره من قصيدة طويلة كتبها إلى القاضى الفاضل :

مرت بنا فى ليلة النفرِ   تجمع بين الإثم والأجرِ
أدماءُ غراء هضيم الحشا   واضحة اللبات والنحر[1]
مرت تهادَى بين أترابها   كالبدر بينِ الأنجم الزُّهر

(١) الأدمة بالضم فى الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً ، أو هو البياض الواضح ، أو فى الظباء لون مشرب بياضا ، وفينا السمرة ، والغراء مؤنث الأغر وهو الأبيض من كل شىء ، والهضم : الخميص البطن اللطيف الكشح . والحشى : ما دون الحجاب مما فى البطن أو ظاهر البطن .

مال بها سكرُ الهوى والصِّبا ميل الصَّبا بالغُصُن النضر

تفر من ساكنِ وجدى بها دنوها فى ساعة النفر

لم أحظ منها بسوى نظرة خلستُها من جانب الخدر

أومت بتسليم وجاراتُها يرميننا بالنظر الشزر

يا رَدها تسليمةً قلَّبت قلبَ أخى الشوق على الجمر

ومنها :

ذنبي إلى الأيام حريتى ولم تزل إلباً على الحرِ

مالى أرى الناس وحالى على خلاف أحوالهم تجرى

كأننى لستُ من الناس فى شىء ، ولا دهرهم دهرى

وما لإنسانيتى شاهد شىء سوى أننى فى خسر[1]

« وعمى أبو الفتح فى آخر عمره ، سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يندب بها بصرَه وزمانَ شبابه » .

وله ديوان مطبوع فيه أشعار جميلة .

ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة (٥١٩) ، وتوفى سنة اربع وثمانين وخمسمائة (٥٨٤) ، فيكون عمره خمسة وستين عاما .

(٧٣) الإمام شرف الدين يحي بن أحمد بن عبد العزيز الجذامى المقرىء المعمَّر . « ثم إنه كبر ، وثقل سمعه ، وذهب بصره » .

ولد سنة تسع وستمائة (٦٠٩) ، وتوفى سنة خمس وسبعمائة (٧٠٥) ، فيكون عمره ستة وتسعين عاما .

---

(١) يشير إلى قول الله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر .. » .

(٧٤) الحافظ الضابط أبو الحجاج يوسف بن سليمان الشنتمرى النحوى الأعلم ، كان واسعَ الحفظ ، جيِّدَ الضبط ، كثير العناية بهذا الشأن ، وله مصنفات ، « وكف بصره فى آخر عمره » .

ولد سنة عشر وأربعمائة (٤١٠) ، وتوفى بأشبيلية سنة ست وسبعين وأربعمائة . فيكون عمره ستة وستين عاما .

(٧٥) شيخ الإسلام ومفتى الشام القاضى هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم ، قاضى حماه ، وصاحب التصانيف .

برع فى الفقه ، وشاركَ فى الفضائل ، وانتهت إليه الإمامةُ فى زمانه ، وكان قوىَّ الذكاء ، لا يفتر ولا يمل ، مع صون ودين وتواضع . « وحكم بحماة دهرا ، ثم إنه ترك الحكم ، وذهب بصره » .

ولد سنة خمس وأربعين وستمائة (٦٤٥) ، وتوفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (٧٨٣) ، فيكون عمرُه مائة وثمانية وثلاثين عاماً .

(٧٦) الشاعر المجيد : المؤمل بن أُمَيْل المحاربى الكوفى ، وهو القائل فى امرأة كان يهواها من أهل الحيرة :

شف المؤملَ يوم الحيرة النظرُ ليت المؤَملَ لم يُخلق له بصر [١]

فيقال إنه بات تلك الليلة ، فرأى رجلا فى المنام أدخل أصبعيه فى عينيه ، وقال : هذا ما تمنيت . فأصبح أعمى ، ومن هذه القصيدة قوله :

---

(١) شف الهم فلانا : هزله .

يكفى المحبين فى الدنيا عذابُهم   والله لاعذبتهم بعدها سقر !

توفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة (٥٩٩) .

وله شعر فى مدح المهدى الخليفة العباسى .

(٧٧) الفقيه منصور بن إسماعيل الشافعى التميمى ، وهو من أصحاب الشافعى ، وله مصنَّفات فى المذهب مليحة . ومن شعره :

عاب التفقهَ قوم لا عقول لهم   وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعة   أن لا يرى ضوءَها من كان ذا بصر[1]

« وكان جنديا قبل عماه » . مات سنة ست وثلاثمائة (٣٠٦) ﻫ بمصر .

(٧٨) طالب بن عثمان بن محمد الأزدى النحوى ، البارع فى العربية ، العارف باللغة ، « كف بصره فى آخر عمره » .

ولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة (٣١٩) ، وتوفى فى خلافة القادر بالله ، سنة ست أو سبع وتسعين وثلاثمائة (٢٩٧)، فيكون عمره ثمانية وسبعين عاما .

(٧٩) الإمام المحدث الكاتب أبو الفضائل يوسف بن محمد بن عبد الله المعروف بابن المهتار ، القارئ ، توحَّد فى الكتابة الفائقة ، وعلَّم بها دهرا ، وولى فى الآخر مشيخةَ دار الحديث النُّورية ، وكان ذا دين وورع ، « وكُفَّ بصره قبل موته بقليل » .

ولد سنة عشر وستمائة (٦١٠) ، وتوفى سنة سبع وثمانين وستمائة (٦٨٧) ﻫ . فيكون عمره سبعة وسبعين عاما .

(٨٠) الشيخ العابد ذو الكرامات أبو الغيث مفرج بن موفق الدمامينى ،

---

(١) كذلك فى (نكت الهميان)، والرواية التى يصح بها المعنى — كما فى الهامش — هى : « من ليس ذا بصر » .

من مشهورى الصالحين ، وممن كانت تُرجى بركةُ دعائهم . ومن كلامه :

« من تكلم فى شىء لا يصل إلى علمه ، كان كلامه فتنة لسامعه » .

« وكف بصره آخر عمره » ، وعُمِّر نحواً من تسعين سنة ، توفى سنة ثمان وأربعين وستمائة (٦٤٨) هـ .

(٨١) الشاعر المجيد المخضرم[1] معن بن أوس المزنى . كان له بنات يكرمهن ، وولد لبعض عترته بنت فكرهها ، فقال :

رأيت رجالا يكرهون بناتِهم وفيهن لا تكذَب نساءٌ صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى نوادب لا يمللنه ونوائح

« ومر عبيد الله بن العباس بمعن ، وقد كف بصره ، فقال : يا معن ، كيف حالك ؟ . فقال : ضعف بصرى ، وكثر عيالى ، وغلبنى الدين ... » إلخ .

(٨٢) الصحابى أبو صفوان مخرمة بن نوفل كان له سن وعلم بأيام قريش ، وكان يؤخذ عنه علمُ النسب ، وهو أحد علماء قريش ، « وكف بصره فى زمن عثمان » .

وبلغ عمرُه مائة وعشرين سنة ، وتوفى سنة أربع وخمسين (٥٤) .

(٨٣) محدث عصره محمد بن يعقوب النيسابورى الأصم . لم يُختلَف فى صدقه وصحة سماعه ، وحدَّث فى الإسلام ستا وسبعين سنة ، وأذّن سبعين سنة فى المسجد ، « وكف بصره بأخرة ، وانقطعت الرحلة إليه » .

توفى سنة ست وأربعين وثلاثمائة (٣٤٦) هـ .

---

(١) المخضرم: من أدرك الجاهلية والإسلام

(٨٤) أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف البصرى المعتزلى ، «كف بصره ، وخرف آخر عمره ، إلا أنه كان لا يذهب عليه شىءٌ من الأصول ، لكنه ضعف عن المناظرة ومحاجة المخالفين له» .

ولد سنة خمس وثلاثين ومائة (١٣٥) ، وتوفى سنة سبع وعشرين ومائتين (٢٢٧) ، وقيل سنة تسع وثلاثين ومائتين (٢٣٩) ، فيكون عمره على القول الأول اثنين وتسعين عاما ، وعلى الثانى مائة وأربعة أعوام .

(٨٥) القاضى الكاتب جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقى ، ثم المصرى ، كان فاضلا ، وعنده تشيع . ومن شعره :

بالله إن جزت بوادى الأراكْ ... وقبلت عيدانُه الخضرُ فاكْ
ابعث إلى المملوك من بعضه ... فإننى والله مالى سواكْ !

«ولم يزل يكتب إلى أن أضر وعمى فى آخر عمره» .

ولد سنة ثلاثين وستمائة (٦٣٠) ، ومات سنة إحدى عشرة وسبعمائة (٧١١) ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة .

(٨٦) الشيخ الفاضل الفقيه محمد بن مصطفى بن زكرياء الحنفى . ومن شعره :

قالوا : اتخِذ مدحَ النبى محمد ... فينا شعارَك ، إن شعرَك ريِّقُ
وعلى بنانك لليراعة بهجة ... وعلى بيانك للبراعة رونق
يا قطبَ دائرة الوجود بأسره ... لولاه لم يكن الوجود المطلق[1]
مذ كنتَ أوله ، وكنت أخيره ... فى الخافقين لواء مجدك يخفق

(١) هكذا . . .

كل الوجود إلى جمالك شاخص فإذا اجتلاك فمن جلال يُطرق

كنت النبيَّ وآدمٌ فى طينه ما كان يعلم أى خلق يخلق

فأتيت واسطةً لعقد نبوة منها أنار عقيقها والأبرق

« وعمى فى آخر عمره » . ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٦٣١) .

(٨٧) الحافظ إمام عصره المنصف محمد بن محمد بن أحمد النيسابورى الكرابيسى ، صاحب التصانيف ، كان من الصالحين الثابتين ، وتقلد القضاءَ فى مدن كثيرة ، « كف بصره سنة سبعين ، وكان حافظ عصره ، وتغير حفظُه لما كفَّ ، ولم يختلط قط » .

ومات ـ وله ثلاث وتسعون سنة ـ سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (٣٧٨) هـ .

(٨٨) الفقيه الشاعر محمد بن محمد الفرحوطى . كانت له مشاركة فى الفقه والفرائض ، وكان خفيفَ الروح ، ذكيا ، حسنَ الأخلاق ومن شعره :

وشاعرٍ يزعم من غرة وفرط جهل أنه يشعر

يصنف الشعر ، ولكنه يُحْدث من فيه ، ولا يشعر !

(٨٩) الشاعر الفكه المشهور أبو العيناء محمد بن القاسم الأخبارى ، « وكان قبل العمى أحول » وقد تحدثنا عنه بتوسع فى غير هذا المكان [١] .

ولد سنة إحدى وتسعين ومائة (١٩١) ، ومات سنة ثنتين وثمانين ومائتين (٢٨٢) هـ . فيكون عمره إحدى وتسعين سنة .

(٩٠) الشاعر المشهور محمد بن عبد الله الملقب بأبى الشيص ، وهو ابن عم دعبل الخزاعى . ومن شعر أبى الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ ، فليس لى متأخَّرٌ عنــه ، ولا متقدَّم

(١) انظر صفحة ٢٣٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

أجـــد الملامةَ فى هواك لذيذة حبـــا لذكرك ، فليلمنى اللوَّمُ
أشبهتِ أعدائى فصرتُ أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهمُ
وأهنتنى فأهنت نفسى عامـــدا ما من يهون عليك ممن يُـكرم

وله أيضاً :

لا تُنكرى صدرى ولا إعراضى ليس المقلُّ عن الزمان براضِ
شيئان لا تصبو النســـاء إليهما حَلْيُ المشيب ، وحُلَّة الإنفاض[1]
حسر المشيبُ عذارَه عن رأسه فرمينه بالصـــدِّ والإعراض

« توفى سنة مائتين أو قبلها . وقال ابن الجوزى : فى سنة ست وتسعين ومائة ، وقد كف بصره » .

(٩١) الثقة النبيل محمد بن عبد الرحمن الطائى الدارانى المعروف بابن الخلال الدمشق . كان ثقةً نبيلا . مضى على سدادٍ وأمرٍ جميل ، « وقد كف بصره سنة خمس عشرة ـ وقيل ست عشرة ـ وأربعمائة » .

(٩٢) الطبيب الفيلسوف المشهور محمد بن زكريا الرازى . ومن كلامه : «إذا كان الطبيب عالما ،والمريض مطيعا . فما أقلَّ لبثَ العلة » . وقال : « عالج فى أول العلة بما لا تسقط به القوة » .

وكان رئيسَ هذا الفن ، واشتغل به على كبر ، قيل إنه اشتغل فيه بعد الأربعين ، وطال عمره ، وصنف فى الطب كتبا كثيرة ، صنف أحدَها لأبى صالح منصور بن نوح أحد ملوك السامانية.

---

(١) الإنفاض : الافتقار . يقال : أنفضوا ، أى أرملوا ، أو هلكت أموالهم وفنى زادهم .

«وقيل إن سبب عماه أنه صنف للملك منصور المذكور كتاباً فى الكيمياء فأعجبه، ووصله بألف دينار، وقال: أريد أن تُخرج ما ذكرتَ من القوة إلى الفعل.

فقال: إن ذلك يحتاج إلى مؤن وآلات وعقاقير صحيحة وإحكام صنعة.

فقال الملك: كل ما تريده أحضره إليك، وأمدُّك به.

فلما كعّ[1] عن مباشرة ذلك وعملِه، قال له الملك: ما اعتقدتُ أن حكيما يرضى بتخليد الكذب فى كتب ينسبها إلى الحكمة، يشغل بها قلوبَ الناس، ويتعبهم فيما لا فائدة فيه، والألفُ دينار لك صلة، ولا بد من عقوبتك على تخليد الكذب فى الكتب.

ثم أمر أن يُضرب بالكتاب الذى وضعه على رأسه، فكان ذلك الضرب سببَ نزول الماء فى عينيه»!!...

وقال ابن أبى صبيعة فى تاريخ الأطباء: قال عبد الله بن جبريل إن الرازى عُمِّر إلى أن عاصر الوزير ابن العميد، وهو الذى كان سببَ إظهار كتاب الحاوى بعد وفاته. بأن بذل لأخته مالاً حتى أظهرت المسوَّدات له، فجمع تلاميذَه الأطباء بالرى حتى رتبوا الكتاب، فخرج الكتابُ على ما هو عليه من الاضطراب.

ويُروى أنه قال:

لعمرىَ ما أدرى، وقد آذن البلى — بعاجل تَرحالى إلى أين ترحالى؟

وأين محل الروح بعد خروجه — من الهيكل المنحَلِّ والجسد البالى؟

---

(١) كع كعوعا: جبن وضعف، وأكمعته: جبنته وخونته وحبسته عن وجهه.

فرد عليه الصلاح الصفدى قائلا :

إلى جنة المأوى إذا كنتَ خيِّراً تُخلَّد فيها ناعمَ الجسد والبالِ
وإن كنت شرِّيراً ، ولم تلق رحمةً من الله فالنيران أنت لها صالِ[1]

« وطال عمره ، وعمى فى آخر عمره » .

توفى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة (٣١١) ه .

(٩٣) الثبت الثقة الورع الذكى أبو معاوية محمد بن حازم التميمى ، « عمى وله أربع سنين » ، وطال عمره .

ولد سنة ثلاث عشرة ومائة (١١٣) ، وتوفى سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤) ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة .

(٩٤) الإمام المدقق شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الرحيم المزى ، برع فى وضع الاسطرلاب ودهن القسىّ ؛ « ومن ملازمته للشمس نزل فى عينيه ماء ، ثم إنه قدح عينيه ، ورأى بالواحدة يسيراً » .

وتوفى سنة خمسين وسبعمائة (٧٥٠) ، وهو من أبناء الستين .

(٩٥) الإمام الحافظ المحدث القدوة أبو الحسن على بن ابراهيم بن سلمة القطان القزوينى . أدام الصيامَ ثلاثين سنة ، وكان يفطر على الخبز والملح ، وقال : « أُصبت ببصرى ، وأظن أنى عوقبت بكثرة بكاء أمى أيام فراقى لها فى طلب الحديث والعلم[2] » . « ثم عمِّر حتى أدركه الأحداث » .

---

(١) أصل الصلى لإيقاد النار ويقال : صلى بالنار وبكذا أى بلى بها ، واصطلى بها ، وصليت الشاة شويتها ، وفى التنزيل : « يصلى ناراً حامية » ، وفيه : « وسيصلون سعيرا » .
(٢) أى إن إصابة بصره كانت عقابا له على مفارقته أمه .

ولد سنة أربع وخمسين ومائتين (٢٥٤) ، وتوفى سنة خمس وأربع وثلاثمائة (٣٤٥) . فيكون عمره إحدى وتسعين سنة .

(٩٦) الإمام النحوى شيخ القراء بدر الدين محمد بن أحمد بن بصخان . أحكم العربيةَ ، وظهرت فضائلُه ، وبهرت معارفه ، وبعد صيته ، «وكان يدخل الحمام وعلى رأسه قبع لبَّاد غليظ ، فإذا تغسَّل رفعه ، وإذا بطل قلب الماء أعاده ، فأورثه ذلك ضعف البصر ، وانقطع لعدم قوة البصر مدة » . ومن شعره :

كلما اخترتَ أن ترى يوسفَ الحسـ ـن خذ فى يمينك المرآةَ

وانظرن فى صفاتهـــا تبصرنه وارحمن مَنْ لأجل ذا الحسنِ باتا

لا يذوق الرقادَ شـوقاً إليه قلقَ القلب ، لا يذوق سباتًا !!

ولد سنة ثمان وستين وستمائة (٦٦٨) ، وتوفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة (٧٤٣) هـ ، فيكون عمره خمسة وسبعين عاماً .

(٩٧) الصحابى أبو أسيد مالك بن ربيعة . بدرى ، ومات رضى الله عنه وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقيل ابن ثمان وسبعين ، وقد ذهب بصره ، وهو آخر من مات من البدريين ، وهذا على قول من قال : إنه مات سنة ستين .

(٩٨) الصحابى الشاعر أبو عبد الله كعب بن مالك أحد شعراء الرسول ، الذين ردُّوا عنه الأذى . رُوى أنه قال للنبى : يا رسول الله ، ماذا ترى فى الشعر ؟ . فقال صلوات الله وسلامه عليه : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، « وكان قد عمى آخر عمره » .

توفى سنة خمس وخمسين (٥٥) وهو ابن سبع وسبعين سنة .

(٩٩) عيسى طبيب القاهرة ، « ولد سنة إحدى وثمانين ومائتين (٢٨١) ، وتوفى ببغداد وقد كف بصره سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة » (٣٥٨). فيكون عمره سبعة وسبعين عاما.

(١٠٠) الطبيب الخبير عمر بن على بن البذوخ القلعى المغربى ، كان له حسنُ نظر فى معرفة الأمراض ومداواتها ، وعمّر عمرا طويلا ، « وعمى فى آخر عمره بماء نزل فى عينيه ، لأنه كان يغتذى باللبن كثيرا ، يقصد بذلك ترطيبَ بدنه » .

توفى سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦) .

(١٠١) القاضى الرئيس شرف الدين على بن إسماعيل الكندى التجيبى السخاوى . « كف بصره آخر عمره ولزم داره » .

ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة (٥٥٤) ، وتوفى سنة ثنتين وثلاثين وستمائة (٦٣٢) ، فيكون عمره ثمانية وسبعين عاما .

(١٠٢) أحد الأئمة الأعلام عطاء بن أبى رباح ، كان إماما سيدا ، فصيحا علاَّمة ، انتهت إليه الفتوى ، « كان أسودَ مفلفل الشعر ، أعور ، أشل ، وعمى آخرا » .

ولد فى خلافة عثمان (استشهد عثمان سنة خمس وثلاثين) ، ومات سنة أربع عشرة ومائة (١١٤) ، فيكون عمره على أقل تقدير تسعة وسبعين سنة .

وإياه عنى الشاعرُ حيث قال ـ والعهدة على الراوى ـ :

سألت الفتى المكىَّ : هل فى تزاور — وضمةِ مشتاقِ الفؤاد جُناح ؟
فقال : معاذ الله أن يُذهب التقى — تلاصقُ أكباد بهن جراح !

(١٠٣) الصحابى عتبة بن مسعود ، هاجر مع أخيه إلى أرض الحبشة الهجرةَ الثانية ، وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وكان فقيها ، « وكف بصره بأخرة » .

ومات فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(١٠٤) عتبان بن مالك الصحابى الأنصارى . ممن شهد بدرا و« ذهب بصره على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومات فى خلافة معاوية .

(١٠٥) الفقيه أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز القرشى التيمى ، الذى قال فيه يحي بن أكثم : كان بحراً لا تكدِّره الدِّلاء !... وقال فيه أحمد ابن المعذل : كلما تذكرت أن الترابَ يأكل لسانَ عبد الملك صغرت الدنيا فى عينى !... « وقيل إنه عمى آخر عمره » .

توفى سنة اثنتى عشرة ومائتين (٢١٢) هـ .

(١٠٦) فقيه العراق المصنف أبو نصر عبد السيد بن محمد البغدادى ، كان مقدَّما على الشيرازى ، وله مصنفات فى الفقه والأصول ، وتولى التدريس بالنظامية ببغداد أول ما فتحت ، « وكف بصره فى آخر عمره » .

توفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة (٤٧٧) هـ .

(١٠٧) الإمام أحد الأعلام أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميرى ، صنف فى التفسير والسنن ، وقال لطالبى علمه عن بيت له أغلقه عليه : هذا البيت ما دخلته يد غيرى منذ ثمانين سنة ، أسلِّمه إليكم بأمانة الله ، على أنكم لا تقولون ما لم أقل ؛ ولا تُدخلوا علىَّ حديثا من حديث غيرى . وقد عمر

عبد الرزاق دهرا طويلا ، وقد ولد سنة ست وعشرين ومائة (١٢٦) ، « وعمى عبد الرزاق بأَخَرَة ، وكان يلقن ، وقد أسندوا عنه أحاديث ليست فى كتبه ، كان يلقنها بعد ما عمى » .

(١٠٨) الإمام العلامة الشيخ أبو طالب عبد الرحمن بن عمر البصرى الحنبلى ، كان من العلماء المجتهدين العاملين ، وانتفع به خلق كثير ، وحفظ القرآنَ وهو ابن سبع سنين ونصف ، وفضائلُه كثيرة ، وله مصنفات ، « وكف بصره سنة أربع وثلاثين (وستمائة) » .

مات سنة أربع وثمانين وستمائة .

(١٠٩) الشيخ المسند عبد الرحمن بن عبد المولى ، تفرد بأشياء ، « وكان فقيرا ، ثم إنه عمى » .

ولد سنة أربعين وستمائة (٦٤٠) ، وتوفى سنة خمس وعشرين وسبعمائة (٧٢٥) . فيكون عمره خمسة وثمانين عاما .

(١١٠) الإمام الحبر[1] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى الأندلسى ، صاحب المصنفات ، وصاحب « الروض الأُنُف » فى شرح السيرة النبوية ، « كف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة » .

وتوفى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (٥٨١) هـ .

ومن شعره القطعةُ المشهورة التى مطلعها :

يامَن يرى ما فى الضمير ويسمع   أنت المَعَدُّ لكل ما يُتوقعُ
يا من يرجَّى فى الشدائد كلها   يا من إليه المشتكَى والمفزع

---

(١) الحبر : العالم أو الصالح .

ومن شعره أيضا :

يا دار ؛ أين البيض والآرامُ ؟ أم أين جيرانٌ علىَّ كرامُ ؟
دار المحبِّ من المنازل آية حيًّا فلم يُرجَع إليه سلام
أخَرِسْنَ ، أم بعُدَ المدى فنسينه أم غالَ من كان المجيبَ حِمامُ ؟
دمعى شهيدى أنى لم أنسهم إن السلوَّ على المحب حرام
لما أجابنىَ الصدى عنهم ، ولم يلج المسامعَ للحبيب كلام
طارحت وُرقَ حمامها مترنما بمقال صبٍّ ، والدموع سِجام :
يا دار ما صنعت بك الأيام ضامتك ، والأيام ليس تُضام !

(١١١) أبو محمد عبدالله بن علقمة الصحابى ، أحد من بايع بيعة الرضوان ، وآخر مَنْ مات من الصحابة بالكوفة ، وزاد عمره على التسعين سنة ، وفى رواية أن عمره تجاوز المئة ، توفى سنة ست وثمانين ، أو ثمان وثمانين (٨٨) ﻫ.

(١١٢) المحدث أبو محمد سويدبن سعيد بن سهل بن شهريا الحدثانى ، « كان قد عمى ، فتلقن ماليس من حديثه » ، وعاش مئة سنة ، وتوفى سنة أربعين ومائتين (٢٤٠) ﻫ .

(١١٣) الشاعر سُوسَنَه (من عقلاء المجانين) . « قال أبو هفان الشاعر : مررت بسوسنة الموسوس بسر من رأى ، قبل أن يكف بصره ... » ، وهذا يفيد أن كف البصر طرأ عليه كما هو ظاهر .

(١١٤) سماك بن حرب بن أوس الذهلى الكوفى أحد أئمة الحديث . قال : كان قد ذهب بصرى ، فدعوت الله فردَّه علىَّ ؛ وقال حماد بن سلمة : سمعته يقول : رأيت الخليل إبراهيم عليه السلام فى النوم ، فقلت : ذهب

بصرى . فقال : انزل فى الفرات فاغمس رأسك ، وافتح عينيك فيه ، فإن الله يرد بصرك . قال : ففعلت ذلك فأبصرت .

توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة (١٢٣) هـ .

(١١٥) الأديب الورع سعيد بن أحمد بن مكى النِّيلى . أناف على التسعين . ومن شعره :

قمر أقامَ قيامتى بقَوامـــه ... لم لا يجود لمهجتى بزمامِه ؟

ملَّكتُه كبدى فأتلف مهجتى ... بجمال بهجته ، وحسن كلامه

وبمبسمٍ عذب كأن رُضابه ... شهد مُذاب فى عبير مدامه

وبناظر غنج ، وطرف أحور ... يصمى القلوبَ إذا رنا بسهامه

وكأن خطَّ عذارِه فى حسنه ... شمس تجلت وهى تحت لثامه

فالصبح يُسفر من ضياء جبينه ... والليل يُقبل من أثيث ظلامه

« ثم أسن حتى جاوز حدَّ الهرم ، وذهب بصره » .

(١١٦) خالد بن صفوان . كان بينه وبين بلال بن أبى بردة مباغضة ، « وكان قد كف بصره أخيراً » .

(١١٧) الإمام الثقة حفص بن عمر الأزدى المقرئ النحوى ، وشيخ المقرئين بالعراق . يقال إنه أول من جمع القراءات وألَّفها ، وطال عمره ، وقَصد من الآفاق ، وازدحم عليه الحذّاق ، لعلو سنده ، وسعة علمه ، «وذهب بصره آخر عمره » .

توفى سنة ست وأربعين ومائتين (٢٤٦) هـ .

(١١٨) الصحابى الشاعر حسان بن ثابت ، شاعر الرسول عليه الصلاة

والسلام . عاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الإسلام مثلها ، فبلغ مائة وعشرين سنة ، وكذلك كان أبوه ، وجده ، وجد أبيه ، كل منهم عاش مائة وعشرين سنة .

« دخل على عائشة رضى الله عنهما بعد ما عمى ... » ، وهذا يفيد طروء كف البصر عليه .

وله شعر كثير ، ومنه قوله فى الردِّ على من هجا الرسول :

هجوتَ محمــدا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاءُ
فإن أبِى ووالدَه وعرضى لعرض محمد منــكم وِقاء
أتهجوه واستَ له بكفء ؟ فشركما لخــيركما الفداء !

قالوا : وهذا البيت الأخير أنصف بيت قالته العرب .

توفى حسان عام أربعة وخمسين للهجرة (٥٤) .

(١١٩) الصحابى المشهور جابر بن عبد الله ، أحد المكثرين من الرواية ، ومن أهل بدر ـ فى قول ـ « وكف بصر جابر بأخرة » ، وعاش أربعا وتسعين سنة ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ـ فى قول ـ وتوفى سنة أربع وسبعين ، أو سبع وسبعين ، أو ثمان وسبعين .

(١٢٠) الأمير حسام الدين بيجار اللاوى الرومى . « قال الشيخ قطب الدين اليونينى : جاوز المئةَ بسنين . كذا قال . وكف بصره ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وستمائة (٦٨١) رحمه الله تعالى » .

(١٢١) مسند الوقت زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى الحنبلى ، يوصف بالمعمَّر ، ولازم النسخَ خمسين سنة ، كان يكتب فى اليوم الواحد تسعَ كراريس أو أكثر ، وربما أتم نسخ كتاب (القدورى) فى ليلة واحدة ، « وكف بصره فى آخر عمره » .

توفى سنة ثمان وستين وستمائة (٦٦٨) ﻫ .

(١٢٢) الشيخ أحمد بن إبراهيم العماد المقدسى الصالحى . كان سليمَ الصدر ، عديم التكلف والتصنع ، وفيه تعبد وزهد ، وله أتباع ومريدون ، وللناس فيه عقيدة ، « وأقام مدة بزاوية له بسفح قاسيون ، وكف بصره » .

ولد سنة ثمان وستمائة (٦٠٨) ، وتوفى سنة ثمان وثمانين وستمائة (٦٨٨) ، فيكون عمره ثمانين سنة .

(١٢٣) يعقوب بن داود بن عمر السُّلَمى بالولاء . كان سمحا جواداً ، كثير البر والصدقة واصطناع المعروف ، وكان مقرَّبا من الخليفة المهدى موجِّها له ، ولكن المهدى اختبره فوجده يميل إلى العلوية ، فغضب عليه ، وحبسه فى السجن (المطبق) ، وأمر أن يُطوى خبرُه عنه وعن كل أحد ، فحُبس فى بئر ، وبنى عليه قبة ، فكان فيها خمس عشرة سنة ، يدلىَّ له فى كل يوم رغيف وكوز ماء ، ويؤذَن بأوقات الصلوات ، فلما كان فى رأس ثلاث عشرة سنة أتاه آت فى منامه فقال له :

حنا على يوسف ربٌّ فأخرجه ... من قعر جب وبيتٍ حوله غُمم

فحمد الله وقال : أتانى الفرج . ثم مكث حولا لا يرى شيئاً ، ثم أتاه ذلك الآتى فأنشده :

عسى الكرب الذى أمسيتَ فيه ... يكون وراءه فرجٌ قريب

ثم أقام حولا آخر لا يرى شيئاً ؛ ثم أتاه ذلك الآتى بعد حول ، فأنشده :

عسى فرج يأتى به الله ، إنه ... له كلَّ يوم فى خليقته أمرُ

فلما أصبح نودىَ فظن أنه يؤذن للصلاة ، ودُلى له حبل أسود ، وقيل :

اشدده فى وسطك ففعل ، فلما خرج إلى الضوء وقابله غشى بصره ولم ير شيئاً .

وكان ذلك الإطلاق فى عهد الرشيد ، فاختار يعقوبُ مكةَ فأقام بها حتى مات سنة سبع وثمانين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وثمانين ومائة .

* * *

ونواصل أيضاً استعراضَ هذه الشخصيات التاريخية المكفوفة ، فنرى فيما يلى طائفةً منهم فقدوا أبصارَهم فى حياتهم بسبب أعمال تشرِّفهم ولا تشينهم :

(١٢٤) الحافظ يعقوب بن سفيان بن جوان . قال : كنتُ أُكثر النسخَ فى الليل ، وقلَّت نفقتى ، فجعلت أستعجل ، فنسخت ليلةً حتى تصرم الليل ، فنزل الماء فى عينى ، فلم أبصر السراج ، فبكيت على انقطاعى ، وعلى ما يفوتنى من طلب العلم ، فاشتد بكائى ، فنمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فنادانى : يا يعقوب بن سفيان ، لم بكيتَ ؟ . فقلت : يا رسول الله ، ذهب بصرى ، فتحسرت على ما فاتنى من كتب سنتك ، وعلى الانقطاع عن بلدى . فقال : ادن منى . فدنوت منه ، فأمرَّ يدَه على عينىَّ ، كأنه يقرأ عليهما ، ثم استيقظت فأبصرت ، فأخذت نسخى ، وقعدت أكتب فى السراج .

توفى فى حدود المائتين والثمانين .

(١٢٥) الحافظ الجوال الزاهد محمد بن المسيب النيسابورى . روى عنه ابن خزيمة مع جلال قدره وتقدمه . « قيل إنه بكى حتى عمى ، وكان من العبّاد المجتهدين » .

توفى سنة خمس عشرة وثلاثمائة (٣١٥) هـ .

(١٢٦) الحبر البحر عبد الله بن العباس ، الصحابى الجليل ، ترجمان القرآن ، والفقيه فى الدين ، وابن عم الرسول صلوات الله عليه . « وكان عبد الله

رضى الله عنه قد عمى آخر عمره ، قيل لأنه كان فى وضوئه يدخل الماءَ فى عينيه مبالغة فى استقصاء ، وروى عنه أنه رأى رجلا مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ، فسأل النبيَّ عنه فقال له : رأيته ؟. قال عبد الله : نعم . قال النبي : ذاك جبريل ، أما إنك ستفتقد بصَرك » ! .

مات ابن عباس سنة ثمان وستين ، وعمره واحد وسبعون عاما » .

(١٢٧) الصحابي المشهور أبو سفيان صخر بن حرب . شهد الطائفَ مع رسول الله صلوات الله عليه ، فأصابه سهمٌ يومئذاك ، فسقطت عينُه ، فقال له النبي : أيما أحبُّ إليك ، عين فى الجنة ، أو أدعو الله لك أن يردها عليك ؟ . فقال : بل عين فى الجنة ورمى بها ؛ وأصيبت عينُه الأخرى يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، فبقى كفيف البصر .

توفى سنة ثنتين وثلاثين للهجرة ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وقيل ابن بضع وتسعين سنة .

(١٢٨) الإمام الكاتب شافع بن على العسقلانى المصرى ، الذى باشر الإنشاء بمصر ، وله النظم الكثير والنثر الكثير . وكان جمّاعةً للكتب ، وله تصانيف كثيرة .

« باشر الإنشاء بمصر زمانا إلى أن أضر ، لأنه أصابه سهم فى نوبة حمص الكبرى سنة ثمان وستمائة فى صدغه ، فعمى بعد ذلك » .

ومن شعره فى سجادة خضراء :

عجبوا إذ رأوا بديعَ اخضرار ضمن سجادة بظل مديد
ثم قالوا : من أى ماء تروّى ؟ قلت : ماء الوجوه عند السجود

ولد سنة تسع وأربعين وستمائة (٦٤٩) ، وتوفى سنة ثلاثين وسبعمائة (٧٣٠) ، فيكون عمره إحدى وثمانين سنة .

(١٢٩) أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان ، من أعيان النحاة ورجال العربية ، وله تصانيف كثيرة غزيرة ، وكان مشهوراً بالفضل .

ويقال إنه سمع فى النوم من ينشد :

أيها الماطل دَيْنِى أملِىٌّ وتماطلْ ؟
علِّل القلبَ ، فإنى قانع منك بباطلْ !

« وغرقت كتبه فى بغداد وهو غائب ، فحُملت إليه، فبخرها باللادن ليقطع الرائحة الرديئة عنها ، إلى أن بخرها بنحو ثلاثين رطلا من اللادن ، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى » .

ولد سنة أربع وتسعين وثلاثمائة (٣٩٤) ، وتوفى بالموصل سنة تسع وستين وخمسمائة (٥٦٩) ، فيكون عمره ـ إذا لم يكن هناك تحريف ـ مائة وخمسة وسبعين عاما ! ...

(١٣٠) أبو العباس أحمد بن المختار ، أحد أمراء البطيحة . « كان قد مات له ابن ، فبكى عليه إلى أن ذهبت عينه ، ثم تلتها العينُ الأخرى [1] » .

ومن شعره :

أللحمامة أم للبرق تكتئب ؟ لا، بل لكلٍّ دعاك الشوق والطرب
إن أومض البرقُ ، أو غنت مطوقةٌ قضيتَ من حق ضيف الحب ما يجب
والحب كالنار ؛ تمسى وهى ساكنة حتى تحركها ريح فتلتهب !

توفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (٥٤٨) هـ .

---

(١) مات للشاعرة عائشة التيمورية ابنة ، فبكت عليها ، حتى ضعف بصرها جداً ، وكادت تفقده نهائياً .

(١٣١) الكاتب شهاب الدين غازى الحلبي المعروف بابن الواسطى، توجه إلى مصر، وخدم بها فى جهات، واشتغل بديوان الإنشاء، وكان حسنَ الخط، وله تصانيف وأشعار.

«ثم ولى نظر الدواوين بدمشق، ثم صُرف، وأعيد إلى حلب، وقد ضعف بصره جداً». ومن الواضح أن بصره ضعف بسبب الاشتغال المستمر بالكتابة.

توفى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (٧١٢).

٭ ٭ ٭

ونواصل استعراض هذه الشخصيات فى إيجاز، فنرى فيما يلى طائفةً أخرى مكفوفة البصر، ولم يُذكر فى تراجمها التى اطلعتُ عليها أن كف البصر قد طرأ عليها، ولكننا فى الوقت نفسه نرى أن أعمارها طويلة:

(١٣٢) وجيه الدين بن المبارك بن الدهان الواسطى، وهو شيخ ياقوت الحموى صاحب (معجم الأدباء)، وتولى التدريسَ بالمدرسة النظامية ببغداد، وتخرج عليه جماعة، وكان يعرف جملةَ لغات، وكان طويلَ الروح حسن التعليم.

ولد سنة ثنتين وخمسمائة (٥٠٢)، وتوفى سنة اثنتى عشرة وستمائة (٦١٢)، فيكون عمره مائة وعشرة أعوام[1].

(١٣٣) أبو بشر اليمان بن أبى اليمان البندينجى، كان قوىَّ الحفظ، وولد

(١) جاء فى تفسير الآلوسى عند الكلام على كف بصر يعقوب عليه السلام، وتفسير قوله تعالى: «وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم» أن ثمانين سنة مرت على فراق يوسف لأبيه، وأن أباه حينما فارقه جعل يبكى حتى ذهب بصره، وهذا الخبر يدل على طول عمر يعقوب الذى كف بصره انظر الآلوسى ج ٤ ص ١٠٠، طبعة بولاق.

أكمه لا يرى الدنيا ، وباع ضياعاً كثيرة وبساتين ، وأنفق ثمنها فى طلب العلم ، وله تصانيف ، ومن شعره :

أنا اليمان بن أبى اليمان   أسعدُ من أبصرت فى العميان
إن تلقنى تلق عظيم الشان   تلاقنى أبلغَ من سحبان
فى العلم والحكمة والبيان

ولد سنة مائتين (٢٠٠) ، وتوفى سنة أربع وثمانين ومائتين (٢٨٤) ، فيكون عمره أربعة وثمانين عاما .

(١٣٤) أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير الكوفى النحوى المقرىء الثقة . له كتب فى النحو والقراءات ، وكان أحد القراء .

ولد سنة إحدى وستين ومائة (١٦١) ، ومات سنة إحدى وثلاثين ومائتين (٢٣١) ، فيكون عمره سبعين سنة .

(١٣٥) أبو الحسن على بن عساكر البطائحى النحوى الضرير ، كان إماماً كبيراً ، وحدث وأقرأ الناسَ ، وله مصنفات فى القرآن ، وكان حسن الإتقان والأداء والصدق . قدم بغداد واستوطنها إلى أن توفى .

ذكر ياقوت أنه ولد سنة تسع وأربعمائة (٤٠٩) ، ومات سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة (٥٧٢) ، فيكون عمره ثلاثا وستين سنة .

(١٣٦) أبو الخير سلامة بن عبد الباقى الأنبارى المقرئ النحوى الضرير ، العلامة صاحب المصنفات . رحل إلى مصر ، وتصدر بجامع عمرو ابن العاص يقرئ القرآن والنحو ، وشرح مقامات الحريرى .

ولد سنة ثلاث وخمسمائة (٥٠٣) ، ومات سنة تسعين وخمسمائة (٥٩٠) ، فيكون عمره سبعا وثمانين سنة .

(١٣٧) الشاعر أبو العز مظفر بن الغيلانى المصرى ، كان أديبا شاعرا مجيدا ، صنف فى العروض . ومن شعره :

قبلتُه فتلظى جمرُ وجنته وفاح من عارضيه العنبر العبقُ

وجال بينهما ماء ، ومن عجب لا ينطفى ذا ، ولا ذا منه يحترق

وقوله :

مولاى زرتَ وما عليك رقيبُ ومضيت والسلوان عنك عجيب

كالطيف ، أو كهلال أول ليلة فى الشهر ، تطلع ساعة وتغيب

وقوله :

يا حاديا بغنائه وبهائه يزداد فيه تشوقى وتلهفى

شيئان فيك صبا الفؤاد إليهما نغمات داود ، وصورة يوسف

ولد بمصر سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤) ، ومات بمصر سنة ثلاث وعشرين وستمائة (٦٢٣) ، فيكون عمره تسعة وسبعين عاما .

(١٣٨) الإمام الحافظ العلامة فريد العصر وشيخ الزمان وإمام النحاة : أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى . له اليد الطولى فى التفسير والحديث والتراجم ، وقرأ الناس عليه ، وصاروا أئمةً وأشياخا فى حياته ، وكان منوَّر الشيبة كبير اللحية ، ويظهر أنه كُفَّ بصره فى حياته .

ومن قوله فى أسود :

علقته بشجى اللحظ حالكِه ما ابيض منه سوى ثغر حكى الدررا

قد صاغه من سواد الليل خالقه وكل عين إليه تقصد النظرا

ولد سنة أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤) ، وتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة (٧٤٥) . فيكون عمره إحدى وتسعين سنة .

(١٣٩) الصحابى الكاتب عبد الله بن الأرقم ، أسلم يومَ الفتح ، وأجازه عثمان بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها .

مات فى حدود الستين للهجرة ، فهو إذن من المعمَّرين .

(١٤٠) الحافظ صاحب الكتاب الجامع ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان ممن جمع ، وصنف وحفظ ، وذاكر .

ولد سنة بضع ومائتين ، وتوفى سنة تسع وسبعين ومائتين (٢٧٩) ، والبضع أقل من العشر وفوق الثلاث ، فيكون عمره على أقل تقدير سبعين سنة .

(١٤١) الأديب الفاضل أبو القاسم محمد بن عثمان الإسكافى الخوارزمى. فقيه أديب ، شاعر مترسل ، كان آخر عمره يعظ الناسَ ويذكرهم .

توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤) ، وله من العمر خمس وثمانون سنة .

(١٤٢) أحد الأئمة الأعلام القاضى الذكى جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله الشافعى الحموى قاضى حماه ، برع فى العلوم الشرعية والعقلية ، وولى القضاء مدة طويلة ، وعُمِّر دهرا طويلا .

يقول الصفدى : « وله تاريخ ، واختصر الأغانى ، وملكتُ باختصاره نسخةً عظيمة إلى الغاية فى ثلاث مجلدات ، وخطُّه عليها بعد ما أضر ، وهى كتابة من قد عمى ، رحمه الله » .

ولد سنة أربع وستمائة (٦٠٤) ، وتوفى سنة سبع وتسعين وستمائة (٦٩٧) ، فيكون عمره ثلاثة وتسعين عاما ، وقيل فوق ذلك .

(١٤٣) الشيخ الصالح الثقة محمد بن البقاء بن الحسن الضرير البرسفى .
ولد عام ثمانية وعشرين وخمسمائة (٥٢٨)، وتوفى سنة خمس وستمائة (٦٠٥)، فيكون عمره سبعاً وسبعين سنة .

(١٤٤) المقرىء أبو الفتح الفرج بن عمر الواسطى، قرأ القرآن وأقرأ الناس ببغداد، ولد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (٣٥٥)، وتوفى سنة ثلاثين وأربعمائة (٤٣٠)، فيكون عمره خمسة وسبعين عاما .

(١٤٥) شيخ الديار المصرية النحوى العروضى أبو الجود غياث بن فارس بن مكى اللخمى، المقرىء الأستاذ، تصدر للإقراء مدة، وسمع كثيراً وروَى .

ولد سنة ثمان عشرة وخمسمائة (٥١٨)، وتوفى سنة خمس وستمائة (٦٠٥)، فيكون عمره سبعة وثمانين عاما .

(١٤٦) الإمام عالم أفريقية الحافظ المحدث أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى القابسى، صاحب التآليف البديعة، كان حافظاً للحديث وعللِه ورجاله، فقيهاً، أصولياً، متكلما، صالحا، متقناً .

ولد عام أربعة وعشرين وثلاثمائة (٣٢٤)، وتوفى سنة ثلاث وأربعمائة (٤٠٣)، فيكون عمره تسعة وسبعين عاما .

(١٤٧) المقرىء المجوِّد الصادق المحقق أبو القاسم على بن جعفر بن شيران الواسطى. كان موصوفا بالصدق والتحقيق .

ولد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة (٤٤١)، وتوفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة (٥٢٤)، فيكون عمره ثلاثة وثمانين عاما .

(١٤٨) الشاعر الفاضل حسن السَّمت أبو الرضا على بن زيد بن على الجذامى السعدى .

ولد سنة ست وخمسين وخمسمائة (٥٥٦)، وتوفى سنة سبع وعشرين وستمائة (٦٢٧) ، فيكون عمره إحدى وسبعين سنة .

(١٤٩) بدر بن جعفر بن عثمان الأميرى الشيخ الحسن المتدين الشاعر . نشأ بواسط ، وسكن بغداد ، وصار من شعراء الديوان ، ينشد فى التهانى والتعازى ، وكان شيخا حسنا متدينا ، ومن شعره :

عذيرى من جيل غدوا وصنيعُهم ... بأهل النُّهى والفضلِ شرُّ صنيعِ

ولؤم زمانٍ ما يزال موكَّلا ... بوضع رفيع ، أو برفع وضيع

سأصرف صرفَ الدهر عنى بماجد ... متى آته لا آته بشفيع !

ولد سنة سبع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٧) ، ومات سنة إحدى عشرة وستمائة (٦١١) ، فيكون عمره أربعة وسبعين عاما .

(١٥٠) الشاعر المطبوع العفيف اللغوى النحوى البارع عبد العزيز بن أبى سهل الحسنى ، كان بصيراً بالعلوم ، لم يُرَ كفيفٌ قط أطيبَ منه نفسا ، ولا أكثر حياء ، مع دين وعفة .

أخبر صلاح الدين الصفدى أنه قد أدركه وقد بلغ التسعين من عمره .

ومن شعره :

العين من وجهك فى لهوِ ... والقلب من صدِّك فى شجوِ

تناصفَ الحسن الذى حزته ... لم يفتقر عضو إلى عضو

ولم يُفِدْ منك محبٌّ سوى ... قلب شجٍ فى جسد نضو !

(١٥١) الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أول من رمى بسهم فى الإسلام ، وممن شهد بدرا ، وسائرَ المشاهد ، وهو فارس الإسلام المجاب الدعوات ، أسلم بعد ستة قبل أن تُفرض الصلاة ، وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة ، وأحد الستة الذين جعل عمر الشورى فيهم .

توفى سنة خمس وخمسين (٥٥) ، وله من العمر فوق خمسة وثمانين عاما .

(١٥٢) العلامة الحافظ النسّابة الشاعر الواعظ : الأشرف بن الأعز بن هاشم العلوى الرملى المعروف بتاج العلى ، وله كتب . « وقدح عينيه ثلاث مرات » ، وكانت العامة تطعن عليه .

ولد بالرملة سنة ثنتين وثمانين وأربعمائة (٤٨٢) ، وتوفى بحلب سنة عشر وستمائة (٦١٠) ، وعاش مائة وثمانية وعشرين عاما .

(١٥٣) الفقيه المفسر المحدث الواعظ إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الحيرى ، أحد أئمة المسلمين ، وله تصانيف مشهورة فى القرآن والحديث والوعظ .

ولد سنة إحدى وستين وثلاثمائة (٣٦١) ، وتوفى بعد سنة ثلاثين وأربعمائة (٤٣٠) ، فيكون عمره فوق السبعين .

(١٥٤) المحدث أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن موسى الكردى ، من شيوخ الحافظ الدمياطى ، وحدَّث بالقاهرة ودمشق .

ولد سنة أربع وسبعين وخمسمائة (٥٧٤) ، ومات سنة ثنتين وستين وستمائة (٦٦٢) ، فيكون عمره ثمانية وثمانين عاما .

(١٥٥) الشاعر المشهور بشار بن برد ، والحديث عنه مبسوط ، وقد

تكلمنا عنه فى موضع آخر[١] . وكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا ، وكان وجهه مشوّها بالجدرى .

مات سنة ثمان وستين ومائة (١٦٨) ، وقد بلغ نيفا وتسعين سنة .

(١٥٦) المقرىء الفقيه الأديب البارع ، المولَع بشعر أبى العلاء ، أبو سليمان داود بن أحمد الملهمى الداودى البغدادى ، وهو القائل :

إلى الرحمن أشكو ما ألاقى غداة غَدَوْا على هُوج النياقِ
نشدتكمُ بمن زمَّ المطايا أمرّ بكم أمرُّ من الفراق ؟
وهل داء أمرّ من التنائى وهل عيش ألذ من التلاقى ؟

توفى سنة خمس عشرة وستمائة (٦١٥) ، وقد قارب السبعين .

(١٥٧) الإمام الزاهد الشيخ جمال الدين يحيى بن يوسف اللغوى الأديب الناظم ، له شعر كثير فى مدح الرسول صلوات الله عليه ، وشعره جيد عالٍ ، وله اطلاع وتمكين ، ومن شعره فى مدح الرسول :

ياخاتمَ الرسل الكرام، وفاتح الخـــيراتِ ، يامتواضعا شمّاخا
يامن به الإسلامُ أصبح ظاهراً وبقهره الكفر المشقشق داخا[٢]
يامن رست وسمت قواعدُ دينه وبه هوى أسُّ الضلالِ وساخا
ياخير من شدَّ الرحالَ لقصده حادى المطىِّ ، وفى هواه أناخا
عطفا على عبد تعلق حبّكم طفلا ، وفى صدق المحبة شاخا
فامنن علىَّ بنظرة تجلو الصدى عنه ، وتنفى الهمَّ والأوساخا
واسأل لىَ اللهَ المهيمن عزمَ من فى الدين أضحى ثابتا رسّاخا

---

(١) انظر صفحة ٢٣٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) يقال : شقشق الفحل : هدر ، والعصفور صوت .

« دخل عليه التتار فى كائنة بغداد ، وكان ضريراً ، فطعن بعكازه بطنَ واحدٍ فقتله ، ثم إنه قتل شهيداً » .

وُلد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٥٨٨) ، وتوفى سنة ست وخمسين وستمائة (٦٥٦) ، فيكون عمره ثمانية وستين عاماً .

* * *

أعتقد أن فى هذا القدر من التراجم ما يكفى للاقتناع بما حاولت التدليل عليه ، وإن كنت أستحسن فى نفس الوقت أن ينهض المتخصصون فى شئون المكفوفين بمهمة وضع معجمٍ شامل للشخصيات التاريخية المكفوفة ، حتى يكون مرجعاً لكل باحث فى هذا المجال .

وليكن لنا عبرة وقدوة فيما يصنعه غيرنا من أبناء الغرب ؛ وفيما يقدمونه من جهود فى سبيل المكفوفين ، فمنذ أكثر من خمسين عاما ـ مثلا ـ أصدرت مدرسة (ماريلَنْد سكول) معجما خاصاً بالمكفوفين ، يتألف من ثمانية وأربعين مجلداً ، ويشتمل على تعاريف لأربعين ألف كلمة ، وهو أول معجم كامل أُلف وطبع لخدمة المكفوفين[1] .

ولاشك أن هناك كتبا ومعاجم أخرى صدرت بلغات غربية مختلفة ، تتعلق بشئون المكفوفين ، ونحن لازلنا نغط فى نومنا ، ولا نقوم بعمل علمى ذى قيمة من أجل هؤلاء المكفوفين . . .

إن لم نستطع الابتكار والسبق ، فلا أقل من التقليد والمتابعة ! . . .

(١) مجلة الضياء ، السنة السادسة ، ١٩٠٣ م ، ص ١٤٧ .

عبقرية مكفوفة

أبو العلاء المعرى يستغل مواهبه

هو حكيم المعرة الشاعر الموهوب الفيلسوف المكفوف الزاهد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن داود بن المطهَّر التنوخى ، المشهور بالمعرى ، وهو منسوب إلى مَعَرَّة النعمان ، وهى بليدة بين حماة وحلب من بلاد الشام (سوريا) أُضيفت إلى النعمان بن بشير الصحابى ، لأنه مرَّ بها فدفن فيها ولداً له وأقام بها ، وقد زرتُ هذه البلدةَ ، ورأيت قبر المعرى فيها ، وهو فى دار متواضعة ، وبجوار القبر مكتبة ، وكان ذلك فى صيف عام ١٩٥٢ م .

وُلد أبو العلاء يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، وتوفى يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ (٩٧٤ - ١٠٥٨ م) .

كان عبقريا فذا ، ومفكِّرا موهوبا ، ونابغة مثيرا للدهشة والإعجاب . يقول فيه ياقوت الحموى :

« كان غزيرَ الفضل ، شائعَ الذكر ، وافر العلم ، غايةً فى الفهم ، عالما باللغة ، حاذقا بالنحو ، جيِّد الشعر ، جزل الكلام ، شهرته تغنى عن صفته ، وفضله ينطق بسجيته »[١] .

ويقول الباخرزى : « مكفوف فى قيص الفضل ملفوف » .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ، ج ١ ص ١٠٨ .

وهو من بيت علم ورياسة ، فأبوه من العلماء ؛ وجدُّه ، وأبو جده ، وجدُّ جده تولوا قضاءَ المعرة ، وظلَّ القضاءُ فى أسرته بعد موته أربعين سنة .

وأصيب أبو العلاء بالجدرى وهو فى الرابعة من عمره فذهب ببصره : على أن كفَّ بصره لم يكن كليا فى أول الأمر ، بل ذهب الجدرى بعينه اليسرى ، وغشى اليمنى بياض ، ولم يفقد بصره تماما إلا بعد سنوات من إصابته ، ونالته دمامة فى وجهه بسبب الجدرى .

ويقول أبو العلاء : « لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنهم ألبسونى حين جُدرت ثوبا معصفَرا ، لا أعقل غير ذلك » .

وقد استعاض المعرى عن البصر بذكاء البصيرة ، فقد أجمع المؤرخون على قوة ذكائه وألمعيته ، وتقول دائرة المعارف الإسلاميةِ : « ويحق لنا أن ندهش من حافظته العجيبة التى مكَّنته - رغم ذلك النقص الِخلْقى - من أن يُظهر فى مؤلَّفاته هذا التنوعَ ، وتلك الدرايةَ الواسعة التى قلَّ أن نجد لها نظيراً عند غيره »[1] .

ولم يمنعه كفُّ بصره أن يكون فى الحياة عظيما ، فدرَس وتعلَّم ، ودرَّس وعلَّم ، ورحل فى سبيل العلم هنا وهناك ، وقال الشعرَ وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وألَّف ما يقرب من ثمانين كتابا ، ونَثَر وشعَر ، وخلَّف وراءه ثروةً من الحكمة والفلسفة والرأى لا تزال تشغل الباحثين ، وتستثير عَجَبَ الأدباء وإعجاب الشعراء . ومن قوله : « لم أقصد بعد العشرين أحداً لاجتداء علم » . وهى عبارة تدل على العبقرية والنبوغ .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، م ١ ص ٣٧٩ .

وكان أبو العلاء يحمد ربَّه على كفِّ بصره، فقد روى الدلنى أن أبا العلاء قال : « أنا أحمد اللهَ على العمى كما يحمده غيرى على البصر » .

ويقول أبو العلاء :

قالوا : العمى منظر قبيح قلتُ : بفقدانكم يهون
والله ما فى الأنام شىء تأسى على فقده العيون !

ويقول مخاطبا نفسَه :

أبا العلاء ، يا ابن سليمانا إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى ما أبصرت عيناك إنسانا !

* * *

ولم يكتف أبو العلاء بما سببه له كفُّ البصر من انقطاع عن بعض مجالات الحياة ، بل حبس نفسَه فى منزله معتزلاً الناس بعد رجوعه من رحلته إلى بغداد التى لم تطل ، واتبع فى عزلته طريقةَ الفلاسفة والزاهدين والمتقشفين ، وسمى نفسه « رهين المحبسين » . يعنى حبسَ نفسه فى المنزل وترك الخروج منه ، وحبسَ عينيه عن النظر إلى مشاهد الدنيا .

ويظهر أن السبب فى ذلك هو اضطراب عصره ، وكثرةُ الفتن فيه بين الروم والمسلمين ، بل وبين بعض المسلمين وبعض ، وكثرةُ العيوب التى كانت تبدو بين الأفراد والجماعات ؛ ويضاف إلى ذلك حالتُه النفسية الخاصة التى تسببت عن كف بصره وعن ضيقه بالناس .

ولكن هل أفلح أبو العلاء فى طلب العزلة ؟ ... هل استطاع أن ينقطع حقيقةً عن الناس ؟ ... هل قدر أن يحيا معتزلا مجهولا ، أو خاملا وانيا ،

أو فرداً عاديا ؟ ... هل جعلته العزلةُ محروما من المشاركة الواسعة فى الحياة واستغلالِ المواهب الأخرى ؟ ...

لم ينجح أبو العلاء فى ذلك ، فإن عزلته لم تقطعه عن الحياة والأحياء والإنتاج الواسع العريض . بل لعل هذه العزلةَ كانت سبباً فى حياة عبقرية عظيمة ، وظهورِ مواهبَ له رائعة .

إنه لم يتمكن من أن يعيش فى عزلة ، ولم يكُفَّ فى عزلته عن العمل ، والتعليم ، والمباحثة ، والتأليف ، والتفكير الفلسفى العميق ؛ حيث أنشأ اللزوميات ، وصنَّف أكثرَ كتبه ورسائله[١] .

وكان الطلاب يقصدونه من كل فجّ ، وتخرَّج على يديه أئمةٌ وقضاة ورؤساءُ فى العلم ؛ مثل أبى زكريا التبريزى ، وأبى المكارم الأبهرى ، وأبى تمام الأنصارى . وأبى طاهر الأنبارى ، وأبى القاسم التنوخى ، وغيرهم . . .

يقول ابن العديم : « وما زالت حرفةُ أبى العلاء فى علاء ، وبحرُ فضله مورداً للوزراء والأمراء ، وماعلمتُ أن وزيراً مذكوراً أو فاضلا مشهوراً ، مرَّ بمعرة النعمان فى ذلك العصر إلا قَصَدَه واستفاد منه » .

ولقد فقد أبوالعلاء بصَره بسبب لا يَدَ له فيه ، فهل عاقَه ذلك عن استغلال مواهبه ومَلَكاته وحواسِّه وطاقاته الماديةَ والمعنوية الأخرى ؟ . . . فلننظر . . .

استغل أبو العلاء يديه مع عقله ودقةِ ملاحظته ، فكان يلعب الشطرنج

(١) لأبى العلاء أربعة وسبعون كتابا ذكرها المرحوم أحمد تيمور فى كتابه عن المعرى .

والنَّرد (الطاولة) . ويقول الدلفى الشاعر فى ذلك : « لقيتُ بمعرة النعمان عَجَباً من العجب ، رأيتُ شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجِد والهزل ، يُكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمدالله على العمى كما يحمده غيرى على البصر » .

واستغل أبو العلاء رجليه مع جسمه ، فرحل وتنقَّل هنا وهناك ... رحل إلى حلب ، واللاذقية ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وبغداد ، وغيرها ؛ فاستمع وتعلم وخالط ، وأخذ عن العلماء والكبراء .

واستغل أبو العلاء لسانَه فى إنشاد الشعر ، وفى إملاء الرسائل والكتب ، وفى الحوار والمناقشة ، وفى الدفاع عن قومه لدى الحاكمين ، وفى التنبيه على أخطاء الناس وبلايا المجتمع ، وفى الدعوة إلى آرائه وأفكاره .

واستغل أبو العلاء صحتَه وسلامةَ بدنه ليقوى على العمل ، فكان لا يُسرف نفسَه بالأطعمة والأشربة والأغذية الثقيلة المضنية ، بل يقتصر فى عزلته على الفول والعدس والدِّبس (عسل التمر) والفاكهة ـ وخاصة التين ـ ويقتصر على النباتيات ، ولا يأكل اللحوم ؛ ولعل ذلك لسبب خاص عنده ، ولكن المهم أنه انتفع بسلامة بدنه بذلك الأسلوب .

واستغل أبو العلاء سمعه وإصغاءه وقوة حافظته ، بحيث كان هذا السمعُ له عينا وقلما وقرطاسا وضابطا مُراجِعا ؛ وله فى ذلك عجائب وغرائب نكتفى بذكر بعضها :

كان أبو زكريا التبريزى تلميذاً لأبى العلاء ، يقرأ عليه فى مسجده بمعرة النعمان ؛ فيذكر التبريزى أن أحد مواطنيه من الأعاجم جاء إلى المسجد . قال : فعرفتُه وفرحت ؛ فقال لى المعرى : إيش أصابك ؟ . قلتُ : إن جاراً لى

قد حضر ، وأنا لم أر أحداً من أهل بلدتى منذ سنين . فأذِنَ لى أن أقوم لأ كلِّمه ، فقمت وكلمته بلسان الأذرية (لسان أهل أذربيجان الأعجمى) شيئاً كثيراً إلى أن سألته عن كل ما أردت .

فلما رجعتُ قال لى المعرى : أىُّ لسانٍ هذا ؟ . قلت : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال لى : ما عرفتُ اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما . ثم أعاد علىّ اللفظ بعينه ، من غير أن ينقص منه أو يزيد عليه فى جميع ما قلت .

قال ياقوت الحموى يعلِّق على الخبر :

« وهذا غاية ليس بعدها شىء فى حسن الحفظ » !! ...

وكان لأبى العلاء جار مكفوف ، فغاب يوما ، وجاء أحد مواطنيه يسأل عنه ، فلم يجده ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته وهو يبلغها ، فجعل الرجل يتكلم الفارسية ، وقدم جاره ، فحكى عليه أبو العلاء ما قاله صاحبه ، فجعل الرجل يستغيث ويلطم ، لأن مواطنه قد أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله .

وسمع أبو العلاء رجلا يبيع السمن وهو يحاسب عميلا له فى رقاع كثيرة سجَّل فيها ما عليه ، وبعد مدة ضاعت الرقاع فجَزَع السَّمان ، فقال له أبو العلاء : أنا أعرف الحساب . وصار يملى عليه ما كان فى الرقاع رقعةً رقعة ، ثم وُجدت الرقاعُ بعد ذلك ، فوجدوها مطابِقةً لما أملاه ..

وكان يحفظ القصيدةَ الطويلة الغريبة الألفاظ من أول إلقاء لها ، ويحفظ الكراسة أوالكراستين من أول تلاوة .

* * *

واستغل أبو العلاء دقةَ إحساسه وتمييزه وشعوره ...

لقد كان أبو العلاء يُعجَب بقصيدة التهامى التى مطلعها :

حكمُ المنيــــة فى البرية جارى ما هذه الدنيــــا بدار قرار

وكان لا يزوره أحد من أهل العلم — غريباً كان أو قريباً — إلا ويطلب منه أن ينشده هذه القصيدة ؛ وذات يوم قدم عليه التهامى وأبو العلاء لا يعرف أنه هو ، فطلب منه أن ينشده القصيدة ، فبدأ ينشدها — وهو صاحبها ، وهى فى رثاء ابنه — فلما انتهى قال له المعرى : أنت التهامى !... قال : نعم ، وكيف عرفتنى ؟. قال : لأننى سمعتُها منك ومن غيرك ، فأدركت من حالك أنك تنشدها من قلب قريح[1] فعلمت أنك قائلها !...

واستغل أبو العلاء وقتَه وكتبه ورُفقته ومن يقرأون له :

دخل يوما على أبى القاسم المرتَضَى ، فعثَر فى طريقه برجل ، فقال الرجل : من هذا الكلب ؟... فقال أبو العلاء معرِّضا : الكلب يا هذا مَنْ لا يعرف للكلب سبعين اسما !!...

ومعنى هذا أنه يريدأن يقول لذلك الرجل : إنك الكلب لأنك لا تعرف للكلب سبعين اسما أعرفها أنا ... ولم يستطع أن يعرف أبو العلاء هذه الأسماءَ للكلب إلا بطلب العلم الموصول ، والاستماع المستمر لمفردات اللغة .

ولقد جاء الإمام السيوطى بعد أبى العلاء بقرون وقرون ، وحاول أن يجمع هذه الأسماء الكثيرة التى أشار إليها أبو العلاء ، فنظم قصيدةً جمع فيها ستين اسما من سبعين اسما !!...

---

(١) مقروح : مجروح .

ثم جاء المرحوم العلامة البحاثة أحمد تيمور وشرح هذه القصيدة في كتابه عن أبي العلاء المعرى ، وزاد عليها خمسة عشر اسما ...

* * *

واستغل أبو العلاء عواطفه النبيلة فى الرحمة والشفقة :

كان ينفق أغلبَ أمواله على الفقراء والمعوزين والمحتاجين ، ويكتفى هو بأقل الزاد .

ولما توجه الخطيب التبريزى إلى المعرى ليقرأ عليه دفع إليه صرة من ذهب ، وطلب من المعرى أن يعطيها لبعض من يختار ، ليشترى له منها ما يحتاج إليه مدةَ إقامته فى طلب العلم ؛ وعلم أبو العلاء أن هذا الطالب فقير ، فأخذ الصرةَ وخبأها ، وكلَّف وكيلَه بأن يقوم على خدمة الطالب وقضاء أموره مدة إقامته فى المعرة ، فلما انتهى التبريزى من الدروس وهمّ بالانصراف ودَّع الشيخ ، فدفع إليه أبو العلاء صرتَه بعينها ، ولما أصر التبريزى على رفضها قال له المعرى :

لا سبيل إلى رد الصرة ، وهذا ذهبك بعينه !!...

ولكن البعض يقول إن المعرى كان فقيراً ، له وقف لا يتجاوز إيرادُه الثلاثين دينارا ، يعطى نصفَه لخادمه . وللتوفيق بين الخبرين نقول : لعله كان فى أول أمره فقيراً ، ولكنه لمَّا رجع من بغداد وجلس للتعليم قصده الكبراء والأمراء ، فحسن حاله وكثر ماله ، فانبسطت يده بالعطاء والسخاء ...

وكان من رقته ورحمته وإشفاقه يحرِّم ذبح الحيوان ، محتجاً بقول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم» ، ويشبه الحِلَّ بالحرم ؛ وبالحديث : «أقروا الطيور فى وكناتها» . وفى استشهاده هذا نظر ، فتحريمُ

صيد الحرم لحكمة معروفة ، والحديث نهى عن إزعاج الطيور من أعشاشها للتطير بها أو التشاؤم منها .

وكان لا يأكل لحما ولا بيضا ، ويحرِّم إيذاء الحيوان ، وعاش شيئا وثمانين سنة ، لم يأكل اللحم خمسا وأربعين سنة منها !!...

ومرض مرةً فوصف له الطبيب الفَرُّوج (الدجاجة الصغيرة) ، فلما جيء به لمسه بيده ، فأباه وقال : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبلَ الأسد !!...

وكان يقتصر على ماتنبت الأرض ، ويلبس خشنَ الثياب ، فلباسه القطن ، وفراشه اللِّبْد ، وطعامه الفول والعدس ، وحلاوته التين ، ويكثر من الصوم .

وقد اعترض عليه بعضهم فى امتناعه عن اللحم . لقيه رجل فقال له : لم لا تأكل اللحم ؟ . قال أبو العلاء : أرحم الحيوان . قال : فماذا نقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان لذلك خالقٌ فما أنت أرأف منه ، وإن كانت الطبائعُ المحدِثةَ لذلك ، فما أنت أحذق منها ولا أتقن عملا .... فسكت أبو العلاء

وقال ابن الجوزى : « وقد كان يمكنه أن لا يذبح رحمةً ، وأما ماقد ذبحه غيره فأى رحمة بقيت » ؟ !...

***

واستغل أبو العلاء خياله وتفننه :

فهذه قصته « رسالة الغفران » نرى فيها عنصر الخيال الواضح ، لأنها تصوير لرحلة خيالية قام بها فى الجنة والنار ، وقد أخذ دانتى عن أبى العلاء

فى ملهاته « الكوميديا الإلهية » ، كما أخذ عنه الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى فى قصيدته : « ثورة فى الجحيم » .

وأبو العلاء يُكثر فى شعره من ذكر الضوارى والطيور ، فهو يتمثل بالذئب ، والضبع ، والأسد ، والأرقم ، والقطا ، والحمام ، والنعام ، والنسر ، والوعل ، والغراب .

ويكثر من ذكر النجوم ، والصباح ، والظلام ؛ ويكثر من التشبيهات الحسية الدقيقة ، والصور الخيالية العميقة ، ولعلنا نعرض لذلك فى بحث خاص . وله جملة قصائد فى الدروع تسمى « الدرعيات » ، ووصف الدروع يستدعى براعةً وقوة تخيل .

والبعض يرى أن تفنن المعرى فى التشبيهات يعتمد على السماع ، وينفى عنه لذلك براعتَه هنا ، والبراعة ثابتة حتى مع التسليم بهذا الرأى .

* * *

واستغل أبو العلاء جاهه ومكانته الاجتماعية :

يروى التاريخ أنه لما اشتد صالح بن مرداس على أهل المعرة أوفدوا إليه أبا العلاء للشفاعة ، فلما دخل عليه قال له الأمير : أنت أبو العلاء ؟ . قال : أنا ذلك . وكلمه فأعجبه ورفعه إلى جانبه ، وخاطبه المعرى فى أمر القوم والبلدة ، فقال الأمير : إنى قد وهبتها لك أيها الشيخ . وحقق ما أراد .

ويقول الشاعر الفارسى ناصر خسرو الذى رأى أبا العلاء وزاره : « إنه رجل ذو نفوذ عظيم فى بلدته ، وذو غنى ، ينفق على الفقراء والمعوزين ، مع أنه هو كان يعيش عيشة الزهد والتقشف » .

* * *

وأحسن أبو العلاء الانتفاع بنفسه وما فيها من نزعات :

كان أبيًّا لا يحتمل الإهانة ، فقد حدث عندما زار بغداد أن قصد أبا الحسن على بن عيسى الربعى ليقرأ عليـه ، فلما دخل أبو العلاء البيت قال الربعى : ليصعد الاصطبل ! . (والاصطبل فى لغة أهل الشام الأعمى) فـلم يحتملها أبو العلاء الطالب الأبى ، وخرج غاضباً ، ولم يعد إليه .

وكان جريئاً فى الصدع بكلمة الحق ، وهو القائل :

مُلَّ المقامُ ، فكم أعاشر أمةً   أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعيةَ ، واستجازوا كيدَها   وعَدَوْا مصالحها وهم أُجَراؤها !

وهو القائل :

قالوا : فلان جيِّــــد لصديقه   لا تـكذبوا ، ما فى البريةِ جيد
فأميرهم نال الإمــــارة بالخنا   وتقيُّهم بصلاته متصــــيِّدُ

ويقول أيضاً :

يسوسون الأمورَ بغير عقـل   فينفذ أمرهم ، ويقال : ساسه
فأفٍّ من الحياة ، وأف منِّى   ومن زمن رئاسته خساسه !

وكان لا يهاب كبيراً فى رأيه ، كما كان بارعاً فى غمزه من ينحرف ولو كان عظيماً . فقد كان الشريف المرتَضَى — أخو الشريف الرضى الشاعر المشهور — يكره أبا الطيب المتنبى ، ويتعصب ضده ، بينما كان المعرى يحبه ويتعصب له ؛ وذات يوم انتقد المرتضى شعر أبى الطيب وأبو العلاء حاضر ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبى من شعر إلا قصيدته : (لك يا منازل فى القلب منازل) لـكفى فضلا ! .

فغضب الشريف ، وأمر بسحب أبى العلاء من مجلسه ، وقال لمن بحضرته :
إن هذا الأعمى أراد بذلك قولَ المتنبى فى تلك القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل !

وقوة الانتباه هنا مشتركة بين المرتَضَى وأبى العلاء .

ومما يقرب من هذه الناحية رفضُ أبى العلاء التمدح بشعره . تقول دائرة المعارف الإسلامية : « ولكنه كان دائما سباقا إلى رفض كل دعوة إلى ذلك — أى المدح — مهما كان فيها من مغنم ، خشية أن تنزل بكبريائه وطبيعته الحساسة إلى المهانة التى لا تحتمل ، فقد قال فى مقدمة (سقط الزند) : لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلبا للثواب » !...

ولما مَلَكَ الفاطميون حلب بذل له المستنصر الفاطمى ما فى بيت مال المعرة من المال ، فأبى أبو العلاء أخذَه أنفةً وترفعا !...

* * *

ليت المكفوفين يحاولون أن يستغلوا مواهبَهم كما استغلها أبو العلاء ، وبذلك يسهمون فى الحياة ، ويزيلون عن أنفسهم كثيراً من ألوان التقصير التى يقعون فيها ؛ وكم من مواهب تختفى فى هؤلاء المكفوفين ، ولا يظهرها إلا الإيمان ، والإقدام ، والمحاولة ، وبذل الجهود ...

قصائِد في المكفوفين

هذه مجموعة من القصائد قيلت فى المكفوفين من طائفة من الشعراء فى مختلِف البيئات والعصور ؛ وقد تتبعناها فى مظانّها حتى استخلصناها بعد بحث طويل ومراجعة ممتدة فى عشرات من الدواوين الشعرية ، وفى مجموعات كثيرة من الصحف والمجلات الأدبية والاجتماعية ...

وبذلت فى ذلك وقتا وجهداً ! ...

وكم من دواوين راجعتُها آملاً أن أجد عند أصحابها شيئاً قالوه فى المكفوفين ، وكنت أنتهى من المراجعة بلا قصيدة أو مقطوعة أو بيت ؛ والملاحَظ أن شعراءنا لم يُعنوا بالقول فى شئون المكفوفين العنايةَ التى يرجوها الغُيُر على أمور المكفوفين ، أو المختصون بشئونهم ، ولذلك أعتبر المجموعةَ التالية مغنما نغنمه فى مجال بحوثنا عن المكفوفين ، ونأمل منه المزيد بعد المزيد ...

وقد سُقتُ المجموعةَ فيما يلى تباعا ، ونصصت على مصادرها ، ولم ألتزم فيها ترتيباً تاريخياً أو موضوعياً ، وفى نيتى أن أعود إلى هذه القصائد وأمثالها بشرح وتحليل فى مجال آخر بمشيئة الله تعالى ؛ فنحن على نية المواصلة لهذه البحوث ، إذا رُزقنا من الوهاب المعونةَ والتوفيق .

وهذه هى مجموعة القصائد :

١ — تمثال الأعمى

بسط الكفَّ ، وثنَّى بالقدمْ وابتغى السعىَ فأعيا فوجمْ !
وانحنى معتمدا عكازةً علَّها تهديه فى تلك الظُّلمَ
مرهفا أذنيه لو أسعدتا فاغراً فاه ، وهل يهديه فم ؟
مُجهدا عينيه من حملقةٍ فى ظلام مترامٍ مدلهم
عبثا يُمعن فى تلك الدجى وهو يدرى أنها لا تُخترم
جهدت سيماؤه فى هديه وتغشتها تباريحُ الألم
حُجب العالمُ عنه كلُّه بغشاء واهن لا يُسْتَنَم
عبثا يجهد فى استشفافه ويريغ النورَ أيان نجم
مُقْعِد من غير قيد خَطوَه هائضٍ عزمتَه عما اعتزم
لم يَسِرْ من خطوة فى إثرها خطوة إلا تأنَّى واستجم
عمره ليل طويل ، ماله كوكب يبدو ، ولا صبح يعُم
ليس يدرى الصبحَ إلا خبرا قد روَوه ، أو حديثا قد زُعم
هو فى شك ، وريب مُرمض حيث ولىَّ وعناءٍ حيث هم
أبدعت كفٌّ صناعٌ رقمت هذه السِيماءَ فى الصخر الأصم
صورت شتى المعانى ، وجلت لوعةَ الآلام فى وجه الصنم
يحسب الناظرُ إذ يبصره تحت ذاك الصدر قلبا يضطرم
وأرت فى وجهه ما غضَّت غدراتُ الدهر والخطب الملم
وجَلَتَ عينيه قد حدقتا دون جدوى فى الظلام المحتكم

تسألان الدهرَ سرا خالدا　　وهو لا يُفضى بسر مكتَتم

لم تكونا أمس أمضَى بصرا　　وهما بالأمس من لحم ودم[١]

فخرى أبو السعود

---

٢ — إلى موسيقية مكفوفة

إلى عزافة حان ألفتيا...

إذا ما طاف بالأرض شعاعُ الكوكب الفضى

إذا ما أنَّت الريحُ ، وجاش البرقُ بالومضِ

إذا فتَّح الفجرُ عيونَ النرجس الغضِّ

بكيتُ لزهرة تبكى ، بدمع غير منفضٍّ !

* * *

زواها الدهرُ لم تسعد من الإشراق باللمحِ

على جفنين ظمآنين للأنداء ، والصبح

أمهدَ النور ، ما لليـــل قد لفَّكَ فى جنح ؟

أضئْ فى خاطر الدنيا ، وصُبَّ النورَ فى جرحى

* * *

أَرِى الأقدارَ يا حسناءُ مثوى جرحك الدامى

أريها موضعَ السهم الذى سـدَّده الرامى

---

(١) مجلة الثقافة ، السنة الأولى ، العدد ٣٧ ، ص ٤٠ — ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٩ . وانظر صفحة ٢٥٩ من هذا الكتاب .

أنيلى مشرقَ الإصباح هذا الكوكبَ السامى
دعيه يرشف الأنوارَ من يَنبوعها الهامى

* * *

وخلِّى أدمعَ الفجر تقبِّلُ مغربَ الشمسِ
ولا تبكى على يومك ، أو تأسَىْ على الأمس
إليك الكونَ ، فاشتفِّى جمال الكون باللمس
خذى الأزهارَ فى كفيك ، فالأشواكُ فى نفسى !

* * *

إذا ما أقبل الليل ، وشاع الصمتُ فى الوادى
خذى القيثارَ ، واستوحى شجونَ سحابِه الغادى
وهُزِّى النجمَ إشفاقا لنجم غــير وقّاد
لعل اللحنَ يستدنى شعاعَ الرحمة الهادى

* * *

إذا ماسقسق العصفورُ فى أعشاشه الغُنِّ
وشق الروضَ بالألحان من غصن إلى غصن
أتتك خواطرى الغرافة ، الرفّافة اللحن
تغنيك بأشعارى ، وترعى عالم الحسن

* * *

إذا ماذابت الأنداءُ فوق الورق النضرِ
وصب العطرَ فى الأكمام إبريقٌ من التبر
دعوتُ شوادىَ الأطياف من فردوسِها السحرى
تذيب اللحنَ فى جفنيك ، والأشجان فى صدرى

* * *

عرفتِ الحبَّ ياحواءُ ، أم مازال مجهولا ؟
ألَمَّا تحملى قلبا عــــلى الأشواق مجبولا ؟
صفيه ، صفيه ، فرحانا ، ومحزونا ، ومخبولا
وكيف تعارف الروحان عند النظرة الأولى ؟

٭ ٭ ٭

ومَنْ آدمُك المحبوب ، أو ما صورة الصبِّ ؟
لقد أُلهمتِ ، والإلهامُ يا حواء بالقلب
هو القلب ، هو الحب ؛ وما الدنيا لدى الحب
سوى المجــــلوة الأسرار ، والمهتوكة الحجب !

٭ ٭ ٭

سلى القيثارَ بين يديك : أىَّ ملاحنٍ غنى
وأى صبابة سالت على أوتاره لحنا
حوى الآمالَ ، والآلام ، والفرحة ، والحزنا
حوى الآبادَ ، والأكوان ، فى لفظ وفى معنى !

٭ ٭ ٭

تعالى الحسنُ يا حسناء ، عن إطراق محسورِ
أيشكو الليلَ فى كونٍ من الأنوار مغمور ؟
وما جلاَّه من سوَّاه غير إلهه النــــور
وما سماه — إذ ناداه — غير الأعين الحور[1] ؟

علی محمود طه

---

(١) مجلة المقتطف ، عدد مارس سنة ١٩٣٥ .

٣ — أكملوا نقص المكفوفين

[فى حفل أقامته جمعية لبناء مدرسة المكفوفين الأحداث « بالأوبرا » فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ م]

إن حق الضرير عند ذوى الأبـ صار حقٌّ مستوجبُ التقديس
لم يضره فقدانُه نورَ عَيْنَيْـ ـهِ إذا اعتاض عنهما بأنيس
آنِسُوا نفسَه إذا أظلم العيـ شُ بعلم ، فالعلم أنس النفوس
وجِّهوه إلى الفـلاح يفدكم فوق ما يستفيده من دروس
أكملوا نقصَه يكن عبقريا مثل « طه » مُبَرِّزا فى الطروس
كم رأينا من أكمه لا يجارَى وضرير يرجَى ليوم عبوس
لم تقف آفةُ العيون حجازا بين وثبـاته وبين الشموس
عدم الحسَّ قائداً لحداه هدْىُ وِجدانه إلى المحسوس
مثل هذا إذا تعـلم أغنى عن كثير ، وجاءنا بالنفيس
ذاك أن الذكاء والحفظ حلاَّ فى جوار النهى بتلك الرؤوس
فعلى كل أكمـهٍ وبصير شكر أعضائكم وشكر الرئيس[١]

حافظ إبراهيم

٤ — قيمة المكفوف فى الأزهر

[من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى فى « الأزهر » . يقول فى شـأن المكفوفين بالأزهـر] :

نظراً وإحسانا إلى عُميـانه وكن المسيحَ مداويا ومجبِّرا
والله ما تدرى : لعل كفيفَهم يوما يكون أبا العلاء المبصرا

(١) ديوان حافظ إبراهيم ، ج ١ ص٣٠٦ ، الطبعة الثانية .

لو تشتريه بنصف مُلكك لم تجد غبنا، وجل المشترِى والمشترَى

إن فاتهم من نور وجهك فائت لم يعدموا لوجوه برك منظرا

لمسوا نداك كمن يشاهد مُزنةً ويد الضرير وراءها عينٌ ترى[1]

٥ — عاشقُ مكفوفة

قالوا : تعشقتَها عميا ؛ فقلتُ لهم :

ما شَانَها ذاك فى عينى ، ولا قَدَحا

بل زاد وجدىَ فيهـــا أنها أبدا

لا تبصر الشيبَ فى خدِّى إذا وَضَحا

إن يجرح السيفُ مسلولا فلا عجب

وإنما عجبى من مُغْمَدٍ جرَحا !

كأنمـــا هى بستان خلوتُ به

ونام ناظرهُ سكران قد طفحا

تفتّح الوردُ فيـه من كمائمه

والنرجسُ الغض فيه بعدُما انفتحا ![2]

البهاء زهير

٦ — الفتاة العمياء

[أنشدتها فتاة مكفوفة فى حفلة مدرسة «الحياة الجديدة» للبنات الكفيفات فى مصر]

سادتى ، إن فى الوجود نفوساً ظلمتها الأقدار[3] ظلما شديدا

---

(١) الشوقيات ، ج ١ ص ١٧٧ .

(٢) كتاب عن البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٧٨ .

(٣) هكذا...

هى تشقى من غير ذنب جنته ... ولكمْ مذنبٍ يعيش سعيدا
رحم الله أعيناً لم تشاهد ... منذ كانت إلا ليالىَ سُودا
تتمنى لو فُتّحت فتملت ... من جمال الوجود هذا الشهودا
تتناجى حمائمُ الروض صبحا ... لا نراها ، ونسمع التغريدا
ويكون الربيع منا قريبا ... فنظن الربيعَ منا بعيدا
حين ترنو إلى الورود عيونٌ ... ليت شعرى كم يستطيب الورودا
أبوىّ اللذين أوجدتمانى ! ... أتريدان شقوتى ؟ لن تريدا !
عشتما فى ظلال شمل جميع ... أنا وحدى وجدت شملى بديدا !
وإذا كنت قد وُلدت فقيدا ... ليتنى كنت قد فُقدت وليدا
سادتى ، إننا صبرنا امتثالا ... ما ضجرنا ، ولا شكونا الجدودا
فانظروا نظرةَ الكرام إلينا ... وارحموا أدمعا تخُدّ الخدودا[1]

ولى الدين يكن

٧ — أنّةُ طفل ضرير

يا أمّ ! ماشكل السماء ؟ وما الضياء ؟ وما القمرْ ؟
بجمالها تتحدثون ، ولا أرى منها الأثرْ
هل هذه الدنيا ظلام ، فى ظلام مستمر ؟
يا أمَّ ! مُدّى لى يديك ، عسى يُزايلُنى الضجر
أمشى أخاف تعثرا وسَط النهار ، أو السَّحَر
لاأهتدى فى السير ، إن طال الطريقُ ، وإن قصُر

---

(١) ديوان ولى الدين يكن ، ص ١١٤ ، الطبعة الأولى . ونشرتها مجلة الزهور ، السنة الثالثة ، ص ١٥٠ .

فالنور عندى كالظلام ، والاستطالةُ كالقِصَر
أمشى أحاذر أن يصادفنى ـ إذا أخطو ـ خطر
والأرض عندى يستوى منها البسائطُ والُحفَرْ
عكازتى هى ناظرى ؛ هل فى جمادٍ من بصر ؟ !
يجرى الصغار ، ويلعبون ، ويرتعون ، ولا ضررا
يتمتعون بما يرون من الجمال المُفْتَخَر
وأنا ضريرٌ قاعــد فى عُقرِ بَيْتِى مستقِر
وَيْلاه ! هل أقضى الحياة بغير عين ، أو نظر ؟
ماذا جنيت من الذنوب بها يعاكسنى القدر[1]
يا أمَّ ! ضاق بِىَ الفضَا ، وَمن العمى قلبى انكسر
يا أمَّ ! ضمّينى إليك ، فليس غيرُكِ مَنْ يَبَرّْ
يا أم ! لا تَبْكى عَلَّىَ ، رعاك من خَلَق البشر
اللهُ يلطف بِى ، ويصرف ما نقاسى من كدر[2]

٨ — الشاعر الأعمى

لقد أعمانى النور . . .
والشمسُ التى تضىء أيامَكم بشعاعها . . .
هى التى رمتنى فى ظلماتٍ أعمقَ من الأحلام !...
لذلك فأنا هارب من وجه الحياة . . .
بينما أنتم باقون حيث ولدتكم الحياة . . .

---

(١) هكذا . . .
(٢) عن كتاب القراءة الرشيدة .

الى أن يجئ الموت فيلدكم ولادةً ثانية
ورغما عن ذلك فأنا أفتش عن طريق
يقود خطواتى نابى وعكازى . . .
بينما أنتم تلهون (بطقطقات) مسبحاتكم.

* * *

وسأسير فى قلب الظلمات السوداء
بينما أنتم تخافون حتى من النور . . .
وسأغنى ! . . .
لن أضل طريقى . . .
ولو كانت مغلفة بالظلام
فالله يسدِّد خطواتى
ويرعانى فأنجو !!...
وإذا ما عثرت بى قدماى
فسترتفع أغانىَّ فوق الأثير

* * *

لقد أعمانى تحديقى الشديد
بالأرض والسماء . . .
ومَنْ مِنَّا لا يجود بعينيه
لنظرة من السماء والأرض ؟ !
من منا لا يطفىء سراجين ، صغيرين ، مرتعشين
ليتمتع بمرأى الفجر البسَّام ؟ ! . . .

* * *

تقولون : « مسكين ، لا يستطيع رؤية الكواكب
ولا الفراش فى الحقول » . . .
وأقول : « مساكين ، لا يمكنهم بلوغُ الكواكب
ولا سماع حفيف الفراش » ! . . .
مساكين ، لهم آذانٌ ، ولا يسمعون ! ! . . .
مساكين . . . مساكين . . . لهم حواس ، ولا يحسون[1] !! . . .

جبران خليل جبران

٩ — كفيف يقود بصيرا

[رأى الشاعر — وهو فى انجلترا — بصيرا يسلم زمامه إلى مكفوف ، ليقوده وسط الضباب الذى تتعذر فيه الرؤيا ، فقاده المكفوف بمهارة ، فقال الشاعر] :

أبصرتُ أعمى فى الضباب بلندن ... يمشى ، فلا يشكو ولا يتأوه
فأتاه يســـأله الهدايةَ مبصرٌ ... حيرانُ يخبط فى الظلام ويعمه
فاقتاده الأعمى ، فسار وراءه ... أنَّى توجَّه خطوُه يتوجه
وهنا بدا القدرُ المعربد[2] ضاحكا ... ومضى الضباب ولا يزال يقهقه !![3]

على الجارم

١٠ — الفنان الأعمى

أرته السماءُ أعاجيبَهـــا ... وروَّته من كل فن بديعْ
فضنَّ بلألاء هذا الجمال ... وخاف على كنزه أن يضيع

---

(١) ترجمة موسى سليمان ، مجلة الهلال ، أغسطس ١٩٣٧ .
(٢) هكذا ...
(٣) ديوان الجارم ، ج ١ ص ١٢٧ .

أَبَى أن يبدِّده الناظران فأطبق جفنيه مايستطيع
كما غلَّقت راحتا صيرفٍ على ماله بابَ كهف منيع !

* * *

تكفَّله الفنُّ فى مهده غريرَ الطفولة ، جمَّ النقاء
حبته الألوهة قلبا يرَى وينطق عنها بوحى السماء
يحس الخيالَ إذا ماسرى ويلمس مافى ضمير الخفاء
ويبتدر النجمَ فى أفقه فيرشفه قطرةً من ضياء

* * *

له محجران ، على ماوعى من الألَق الطُّهر مختومتانْ
ففى عقله حركات الزمان مصورة ، وحدود المكان
وفى قلبه أعين ثرَّة بها النار مشبوبة العُنْفوان
وفى كل خاطرة « نيزك » يشق سناه حجابَ الزمان
إذا ما هوت ورقاتُ الخريف أحس لها وخزاتِ السِّنان
وإن سكبت زهرةٌ دمعةً فمن قلبهما تحدرت دمعتان
ومن عجبٍ شدوُه للربيع وقد يُخطىء الطيرُ شدوَ الأوان
كقيثارة الريح ، ما لحنُها سوى الريح فى جفوةٍ أو حنان

* * *

عوالم جياشةٌ بالمنى ودنيا بأهوائها تضطربْ
من اللانهاية ألوانُها مُشعشَعة بالندى المنسكب
ففيها الصباح ، وفيها المساء وبينهما الشفقُ الملتهب
تطوف بها صدحاتُ الطروب وتسهو بها أنةُ المكتئب ! [١]

علي محمود طه

(١) مجلة الهلال ، عدد فبراير ١٩٣٥ م .

١١ — بين أعمى البصر وأعمى البصيرة

[كان يسير فى النهار المبصر شارد الفكر ، فصدم إنسانا كفيف البصر ، فقال له الرجل — وهو يضحك — : هل أنت أعمى ؟ . فأطربته هذه اللفتة ، فأقبل عليه مصافحاً متعذراً ، ورأى زيادة فى مجاملته أن يهدى إليه هذه الكلمة]

صدقتَ ، أنا الأعمى وإن كان لى نظرة ... تكاد ترى المخبوءَ فى باطن الحجرْ
وأنت بصيرٌ تلحظ الشىءَ واضحا ... بعينِ قطامىٍّ [١] ، وإن خانك البصر
وليس العمى أن تفقد العينُ نورها ... ولكنه نورُ العقول إذا استتر [٢]
وكائنْ [٣] ترى أعمى من الناس بيننا ... ومقلتُه لا تشتكى الطولَ والقصر

* * *

شهدت على نفسى بأنى أخو عمىً ... وإن فى كنتَ شك أتيتُك بالخبر
فلو لم أكن أعمى لمـا بتُّ واردًا ... مواردَ للآمال مذمومةَ الصَّدَر
ولو لم أكن أعمى لأدركتُ أننى ... أدور بسوق لا تروج بها الدُّرر
ولو لم أكن أعمى لمـا عشت ساخطا ... ولى من خيالى الزهرُ والكأسُ والوتر
وحولى عذارَى الشعر يسبحن فى السنا ... ويرقصن فى الوشى المنمنم والحِبَرْ [٤]
كواعبُ لا أرضى بهن كواعباً ... يَصُلن بسحر البدو ، أو فتنةِ الحَضَر

* * *

فيا أيها المحجوب عن رؤية الورى ... وعن رؤية الدنيا ، حُجبت عن الضرر
عزاءَكَ ! إن الله أعطاك فطنةً ... وأعطاك فكراً لم يشُب صفوَه كدر
وأعطاك نورا ، فى فؤادك نبعُه ... يريك وراءَ الغيب ما سطَّر القدر

---

(١) القطامى بفتح العين وضمها : الصقر .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »
(٣) كائن : كثير .
(٤) المنمنم : المزخرف المرقش ، والحبر : برود اليمن ، جمع حبرة كعنبة .

وأعطاك ألحاظاً تسمى « أناملا » سواءٌ لديهن الأصائلُ والبُكَر[١]

وأعطاك حسًّا رقَّ ، حتى كأنه دموعُ الهوى العُذرى، أو نسمة السحر

وغطَّى على عينيك أن تبصرا الذى به قَذَيت عيناى من هذه الصُّوَر

فرؤيةُ بعض الناس شرٌّ من العمى كأن الذى يلقاه يوخِز بالإبر

يعيش على الدنيا شقاءً لأهلها ويوم يقومُ الناس تشقى به «سقر»[٢]

* * *

أعيذك أن تأسى على ما فقدته فما هو إن روَّيت فيه بذى خطر[٣]

فربَّ ضرير قادَ جيلا إلى العلا وقائدُه فى السير عُودٌ من الشجر

وكم من كفيف فى الزمان مُشَهَّرٍ لياليه أوضاحٌ ، وأيامه غُرر[٤]

إذا حل نورُ الله فى قلب عبده فما فاته من نور عينيه محتقَر

لقد طبَّق الدنيا « المعرىُّ » شهرةً وسارت مسيرَ الشمس ذكراه والقمر

وعمِّر فيها مبصرون كأنهم هواناً على التاريخ ليسوا من البشر

فلا تحسب العينَ البصيرةَ مغنما لمن ليس ذا قلب ، وإن زانها الحور

أخى يا بصيرَ القلب ، خير تحية وغَفْرُ الأعمى القلب أذنب واعتذر[٥]

على الجندى

---

(١) يعرف المكفوفون بقوة اللمس .

(٢) يريد أن الجحيم تخمد من شدة برده .

(٣) روى : فكر بإنعام .

(٤) أوضاح ، جمع وضح بالفتح : الضوء والبياض والمراد الشهرة .

(٥) ديوان « ألحان الأصيل » ، ص ٣٤١ .

١٢ — الأعمى

هدَّه السيرُ ، وأضواه المطافُ فتولت هديَه الخمسُ اللطافُ[1]

واهن الخطوة لم تنهض به من عياء الجسم أطرافٌ ضِعافُ

راعنى منــــه جبينٌ شاحب كجبين الزهر أذواه القِطافُ

يدٌ من حوله حائرة دأبُها فى السير خَفْقٌ وارتجافُ

رهنُ كفيه السَّنا ، لكنما دون عينيه حجابٌ وسِجافُ

من رأى الظمآنَ يرجو رشفةً وعلى جنبيه رىٌّ وارتشاف

أو غريقا عاجزا فى موجـــه وعلى مرمى ذراعيه الضِّفاف ؟

* * *

يا مُطيفا لا تنى عزمتُــــه أين يرسو بك فى الأرض الطوافُ

رنَّحت عطفيك أوصابُ الضَّنى مثلما رنحت العِطْفَ السُّلافُ

وشَغَاف القلب أذواه الأسى فذوَى من طول ما يلقى الشغافُ

حولك الناس جموعٌ حُشدت ولهم عنك بِعادٌ وانصراف

لم يصافوا من خَلت راحتُه واحتفوا بالراحة الملأى وصافوا

فامض فى شأنك ، لا تحفل بهم أتجافَوْا عنك ، أم لم يتجافوا

لا ترجُّ النَّصْف ، أو تشكُ الأسى ليس بين الناس عدل وانتصاف

أرأيت النضوَ يشكو داءه لطبيب طبُّــــه سمٌّ زُعاف ؟

لو أتاه الناس طراً خُضَّعًا وافت الدنيا بنعماها ووافُوا

أوسعى المجـــدُ إليه ، وله بجنابيه اعتصـــام والتفاف

---

(١) يعنى أصابع كفه الخمس والطاف: الدقاق . وقد استعملها العرب ، ومنها قول أبى تمام فى وصف القلم :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافل

أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت لنجواه تقويض الخيــام الجحافل

لم يجد فيه غنًى عن عينه ... فرِغابُ المجد والدنيا زِياف

قسما لو زُفت الدنيـــا له ... فى مجاليها لما أجدى الزفاف

ليس يغنى الزهرَ فى منبته ... رائعُ الطلعة والجوُّ جفاف[1]

أحمد فتحى مرسى

١٣ — الأعمى

[أقامت جمعية رعاية العميان بمصر فى ١٥ أبريل سنة ١٩٣٧ بدار (الأوبرا) حفلا لحض المحسنين على مد يد الإحسان إلى هذه الطائفة البائسة ، لتتمكن الجمعية من توسيع نطاقها ، وتثقيف عدد كبير من هؤلاء المكفوفين ، ليستطيعوا العيش وحدهم ، وليستغنوا عن ذل السؤال ، وقد ألقيت هـــذه القصيدة فى هذا الحفل]

مَن مُجيرى من حالكاتِ الليالى ؟ ... نُوَبَ الدهر ! ما لـكن ومالِى ![2]

قد طوانى الظلامُ ، حتى كأنى ... فى دياجى الوجود طيفُ خيالِ

كلُّ ليل له زوالٌ ، وليلى ... دقَّ أطنابَه لغير زوال[3]

كل ليل له نجومٌ ، ولـكن ... أين أمثالهن من أمثالى ؟

تثب الشمسُ فى السماء ، وشمسى ... عُقلتْ دونها بألف عِقـال[4]

لا أرى حينما أرى غير حظى ... حالكَ اللون عابسَ الآمال

* * *

هو جُبّ أعيش فيه حزينا ... كاسفَ النفس ، دائمَ البلبال[5]

مارأت بسمةَ الشموس زوايا ... ه ، ولا داعبت شعاعَ الهلال

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة الخامسة ، المجلد الثاني ، العدد ٢١٢ ، ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧م .

(٢) الكلام على لسان المكفوف .

(٣) الأطناب : الأوتاد .

(٤) تثب : تتنقل فى السماء . وعقلت : حبست وقيدت والعقال : حبل يربط به البعير .

(٥) البلبال : الهم والهواجس المزعجة .

فإذا نمتُ فالظلام أمامى ... أو تيقظت فالسوادُ حيالى

أتقرى الطريقَ فيه بكفِّى ... بين شك ، وحيرةٍ ، وضلال[1]

وأحس الهواءَ ، فهو دليلى ... عن يمينى أسير ، أو عن شمالى

كلما رمت منه يوماً خلاصاً ... عجزت حيلتى ، ورثت حبالى[2]

عبثا أرسل الأنينَ من الُجبِّ ... إلى ساكنى القصور العوالى

* * *

مَن لسارٍ بليلة طولُها العمـ ... ـرُ ، يجوب الأوجالَ للأوجال[3]

مترَدٍ فى هاوياتٍ وهادٍ ... لاهثٍ فوق شامخات جبال[4]

عند صحراءَ للأعاصير ، فيها ... ضَحِكُ الجن ، أو نحيبُ السَّعَالى[5]

لم يَزُرْها وشْى الربيع ، ولكن ... لك ما شئت من نسيج الرمال[6]

ليس للطير فوقها من مطارٍ ... أو بنى الإنس حولها من مجال

خلق اللهُ قفرَها ، ثم سوَّى ... من ثراه أناملَ البخَّال

رهبةٌ تملأ الجوانحَ رعباً ... وأديمٌ وعرٌ كحدِّ النصال[7]

وامتدادٌ كأنه الأملُ الطا ... ئشُ ، ما ضاق ذرعه بمُحال

سار فيها الأعمى وحيداً شريدا ... خائرا بين وقفة وارتحال

فى هجير ما خفَّ حرُّ لظاه ... بنسيم ، ولا ببرد ظلال[8]

ملَّ عكازُه من الضرب فى الأر ... ض على خيبة ، ورقَّةِ حال

---

(١) أتقرى : أتتبع وأتلمس . (٢) رثت حبالى : تقطعت .

(٣) الأوجال : المخاوف . (٤) الوهاد : الأراضى المنخفضة .

(٥) الأعاصير : عصف الرياح وشدة هبوبها . والسعالى : جمع سعلاة وهى أنثى الغول .

(٦) وشى الربيع : نباته ذو الألوان المختلفة .

(٧) الجوانح : الأضلاع . الأديم : الوجه . (٨) الهجير : شدة الحر .

يرفع الصوتَ لايرى من مجيب ... أقفر الكونُ من قلوب الرجال

* * *

من لهاوٍ فى لجة هى دنيا ... ه ، وأيامُ بؤسِهِ المتوالى ؟

ظُلَمَ بعضُها يزاحم بعضا ... كليالٍ كَرَرْن إثر ليالى

يفتح الموجُ ماضغيه ، فيهوِى ... ثم يطفو محطَّمَ الأوصال[1]

لا ترى منه غير كفٍّ تنادى ... حينما عقه لسانُ المقال

والرياحُ الرياح تعصف بالمسكين ... عصفَ الأيام بالآجال

يسمع السفنَ حوله ماخراتٍ ... من يبالى بمثله ؟ من يبالى ؟[2]

يسمع الرقصَ والأهازيج تشدو ... بين وصل الهوى ووصل الدلال[3]

شُغل القومُ عنه بالقصف واللهـ ... ـو ، وهاموا بحب بنت الدوالى[4]

ما لهم والصريعَ فى غمرة اللجِّ ... يصـد الأهوالَ بالأهوال

لايريدون أن يُشاب لهم صفـ ... ـوٌ بنوح للبؤس أو إعوال[5]

هكذا تمحل القلوبُ ، وأنكى ... أن تباهى بذلك الإمحال

هكذا تُقبَرُ المروءةُ فى النا ... س ، ويُقضَى على كريم الخلال

* * *

من لهذا الأعمى يمد عصاه ... عاصبَ البطن ، لم يَبُحْ بسؤال[6]

من رآه يرى خليطاً من البؤ ... س ، هزيلا يسير فى أسمال[7]

---

(١) الأوصال : الأعضاء .
(٢) الماخرات : السفن الجاريات التى تشق الماء بصوت .
(٣) الأهازيج : الأغانى .
(٤) القصف : الإقامة فى لهو وأكل وشرب . وبنت الدوالى : الخمر .
(٥) يشاب : يخلط . (٦) عاصب البطن : يشده برباط من الجوع .
(٧) الأسمال : الثياب البالية .

هو فى ميعة الصِّبا ، وتراه مطرقَ الرأس فى خشوع الكِهال
ساكنا كالظلام ، يحسبه الرا ءون معنًى لليأس فى تمثَال
فقد الضوءَ والحياةَ ، وهل بعـ ـدَ ضياءِ العينين سلوى لسالى ؟
مطلته الأيامُ والناسُ حقا فقضى عيشَه شهيدَ المِطال

* * *

ما رأى الروضَ فى مآزره الُخضـ ـر يباهى بحسنها ويغالى
ما رأى صفحةَ السماء ، وما رُكِّب فيها من باهرات اللآلى
ما رأى النيلَ فى الخمائل يختا ل بأذياله العراض الطوال
ما رأى فضةَ الضُّحى فى سناها أو تملَّى بعسجد الآصال
فدعوه يشهدْ جمالاً من الإحـ ـسان إن فاته شهودُ الجمال
ودعوه يبصر ذُبالاً من الرحـ ـمة إن عقّه ضياءُ الذُّبال(١)
قد خبرتُ الدنيا فلم أر أزكى من يمينٍ تفتحت عن نوال(٢)

* * *

أيها الوادعون يمشون زَهْوًا بين جَبْرِية وبين اختيال(٣)
ينفقون القنطارَ فى ترف العيـ ـش ، ولا يحسنون بالمثقال
ويرون الأموالَ تُنثر فى اللهـ ـو ، فلا يجزعون للأموال
إن فى بلدة المعز جحوراً مُتْرَعات بأدمع الأطفال(٤)
كل جحر بالبؤس والفقر مملو ءٌ ، ولكنه من الزاد خالى !!
بسقت فيه للجراثيم أفنا نٌ ، تدلت بكل داء عضال(٥)

---

(١) ذبالا من الرحمة : أى شعاعا منها . عقه : امتنع عليه .
(٢) النوال : البذل والعطاء .
(٣) الوادعون : الناعمون بالعيش . الجبرية : الجبروت والعظمة .
(٤) بلدة المعز : القاهرة . (٥) بسقت : طالت وارتفعت . الأفنان : الأغصان .

لو رأيتَ الأشباحَ من ساكنيه لرأيت الأطلالَ فى الأطلال
يرهب النورُ أن يمر به مَرًّا وتخشى أذاه ريحُ الشمال
تحسب الطفلَ فيه فى كفن المو تى ، وقد ضمه الرداءُ البالى
أيها الأغنياء ، أين نَداكم ؟ بلغ السيلُ عالياتِ القلال ![1]
هم عيال الرحمن ، ماذا رأيتم أو صنعتم لهؤلاء العيال ؟

* * *

رُبَّ أعمى له بصيرة كشف نفذت من غياهب الأسدال[2]
أخذ الله منه شيئاً وأعطى وأعاض المكيالَ بالمكيال
يلمح الخطرةَ الخفيفة للنف س لها فى الصدور دبُّ النمال
ويرى الحقَّ فى جلالة معنا ه ، فيحيا فى ضوء هذا الجلال
كان شيخُ المعرة الكوكبَ السا طعَ فى ظلمة القرون الخوالى[3]
فأتى وهو آخر — مثلما قا ل — بما ندَّ عن عقول الأوالى[4]

* * *

أنقذوا العاجزَ الفقير ، وصونوا وجهَه عن مذلة وابتذال
علِّموه ، يطرقْ من العيش بابا وامنحوه مفاتح الأقفال
لا تضموا إلى أساه عمى الجه ل ، فيلقى النكالَ بعد النكال
كل شيء يطاق من نُوَبِ الأيا م إلا عماية الجهال[5]
علموه فالعلمُ مصباحُ دنيا ه ، ولا تكتفوا بصنع السِّلال[6]

---

(١) الندى : الكرم . والقلال : أعالى الجبال .
(٢) البصيرة : الفطنة . الغياهب : الظلمات . الأسدال : الحجب .
(٣) شيخ المعرة : أبو العلاء المعرى الشاعر الكفيف .
(٤) يشير إلى قول أبى العلاء : وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل .
(٥) نوب الأيام : مصائبها .
(٦) أى لا تكتفوا بتعليمه صناعة السلال . جمع سلة وهى معروفة .

إن جفاه الزمانُ والآل والصحـ ـب فكونوا لمثله خيرَ آل

زل الوحىُ فى الترفق بالأعمـ ـى وبسطِ اليدين للسُّؤّال[1]

سوف تتلو الأجيالُ تاريخَ مصر فأعدّوا التاريخَ للأجيال

بالأيادى الحسان يُمحَى دُجى البؤ س، وتسمو الشعوبُ نحو الكمال[2]

يذهب الفقرُ والثراء، ويبقى ما بنى الخيِّرون من أعمال[3]

على الجارم

١٤ — ناى الأعمى

تخذ النـــاىَ له أوفَى خدينْ جاعلاً شكواه من دنياه دينْ

فقد العينَ ، فلم يبق له غير مُشجى النوح فى الدنيا مُعين

نافخاً فى نايه من روحه ناشراً ذرّاتِها فى العالمين

تخذ الناىَ لســـانا وفما حيث يسطيعُ به بثَّ الأنين

لم يجـد أبلغَ من أناته مَنطقاً يُفصح عن شكوى الحزين

يشتكى كلٌّ إلى صاحبـــه همَّه، واليأ سُ ربحُ المشتكين

يوقظ الناىُ له فى لحنه ذكرياتٍ مبهمـــات للسنين

ضم فى الروح حنيناً صامتاً وغنا الناى صَدَى ذاك الحنين

فى حنين الروح نارٌ لو بدت تحرق الناىَ وروحَ السامعين

روحُه قد أُفرغت فى نايه فاستحالت زفرات ورنينْ

وكأن الناىَ قد رقَّ له فغدا يبكى بكاءَ الثاكلين

---

(١) يشير إلى سورة (عبس وتولى) .

(٢) الدجى : الظلمات .

(٣) ديوان الجارم ، ج ١ ص ٧٣ .

بثَّ بالألحان ما تعجز عن ... شرحه كلُّ لغات الناطقين
رتَّب الحزنُ له أنغـامَه ... دون أن يأخذها عن منشدين
وحباه البؤسُ فنـا رائعا ... عجزت عنه قلوبُ المترفين
خلته فوق ثقوب الناى إذ ... يضع الأنملَ وضعَ المدعين
رقَّ حتى رام إسكاتَ فمٍ ... فاعتلت شكوى الأسى من آخرين
يبصر النورَ ظلاما ، ويرى ... فى الغنا نورًا ، لنا ليس يبين
من عيون الناى أضحت عينُه ... تبصر الأكوان لا كالمبصرين
بعيون الناى تبكى عينُه ... بنشيج خانه الدمع والسخين
ترسمُ الأنغامُ إن رجَّعها ... صوراً تُعجز أيدى الراسمين
فيرى فى اللحن دنيا رحبةً ... تنجلى حينا ، وتخفى بعد حين
ذات أشباح كأشباح الرؤى ... أو كأوهام عقول الجاهلين
إن فى الألحان دنيا رحبةً ... عميت عنها عيونُ الناظرين[1]

أحمد الصافى النجفى

١٥ — أعمى الحجر[2]

ياباكيا مثلى عـــلى لُبنانه ... أكبِرْ به المأساةَ فى عميانه
كلُّ المصائب قد تهون وتنتهى ... إلا مصابَ الجفن فى إنسانه
لو خيَّروا الإنسانَ ما بين العمى ... والموتِ لم يختر سوى أكفانه

---

(١) مجلة الأديب (البيروتية) السنة الثالثة ، الجزء السابع ، تموز ١٩٤٤ ، ص ٥ . وكذلك نشرت بمجلة البيان العراقية ، العدد ٣١ و٣٢ أول محرم ١٣٦٦ هـ — ١٥ تشرين الثانى ١٩٤٧ — ص ٨١٥ .

(٢) نظمت سنة ١٩٣٣ لحفلة مأوى العميان الذى أنشأه المونسنيور أنطون عقل .

واحسرتاه لمن يعيش وليلُه ونهارُه سيان في أجفانه
هلا انتبهتم في الطريق لناعسٍ يستصرخ الرحمنَ في أحزانه
مستعطفا ذا الرفق من إخوانه وجميعُنا ياقوم من إخوانه
كم واحدٍ منا رثى لمصابه ورمى له بالشيء من إحسانه؟
كم واقف منا تأمل حاله ورأى قضاءَ الله في إنسانه ؟

* * *

يامن يمتِّع عينَه بنهاره متنقل النظرات في ألوانه
ارحم أخاك المبتلَى بأعزّما يحتاجه لهنائه وكيانه
واعطف عليه، ولاتخف أن تبتلَى كبلائه إن كنت من أعوانه
وامرر على المأوى المعَدِّ له، وخذ أمثولةً عن عطفه وحنانه
واعجب لمُنشئه الغيور، يديره متلهبا كالقِدْر في غليانه
لا يستقر ولاتنام جفونه عنه، ولا يصدا حسامُ لسانه
مستنجداً بالله في مشروعه كسَمِيِّه القدِّيس في إيمانه
ويعيذ لبنان العزيز بصائرا عميت عن المحسوس من سكانه
إن المصاب بناظريه أخف من أعمى الحجى ويلاعلى أوطانه [١]

شبلي ملاط

١٦ — أعمى

ظلامٌ ظلام ! ودنيا تنام !
وليل أبد بعيد الأمد
كثيف الغيوم بدون نجوم

---

(١) ديوان شبلي ملاط، الجزء الثاني، صفحة ٣٠٦، طبعة ربيع عام ١٩٥٢ .

وكيف يكون الضياء ؟ وصفو السماء ؟ والمساء ؟
وكيف تشع الزهور ؟ ويجرى العبير ؟ فى الأثير ؟
وكيف يُطل القمر ؟ ويصحو السحر ؟ فى الشجر !
سواء سواء دجىً وضياء !
وكل الوجود غمائم سود
ودنيا تنام بحضن الظلام[1]

غنطوس الرامى

١٧ — الصبى الأعمى

للشاعر : س . كيبر

آه ! حدِّثينى عن ذلك الشىء الذى يُدْعَى نورا . . .
الذى كُتب علىَّ أن لا أراه للأبد . . .
وعن البصر ، وعن نِعَمه . . .
نعم ، حدِّثى وَلدَكِ الصغيرَ الأعمى !! . . .

* * *

أسمعُك تتحدثين عن أشياء عجيبة يراها طرفَك ،
وتقولين : إن الشمس تتلألأ فى كبد السماء . . .
إنى أُحسُّ بحرارتها . . .
ولكن ، كيف تتم آية النهار وآيةُ الليل ؟!

* * *

(١) مجلة الأديب (البيروتية) ، السنة الثانية ، ج ١١ ، تشرين الثانى ١٩٤٣ ، ص ١٣ .

إنى أنسج بيدىَّ ثوبَىْ نهارى وليلى

كلما لعبتُ أو آويتُ إلى الفراش . . .

ولو أننى ظللت مستيقظاً للأبد لكان الوقتُ دائماً نهارا

* * *

كثيراً ما أسمعكِ ترسلين الزفراتِ الحارة ، وتندبين ما ابتليتُ به . . .

ولكن ثق أننى أستطيع أن أحمل فى صبر ذلك الخطبَ الذى لا أعرف مبلغَ فداحته .

* * *

إذن لا تدعِى مالا سبيل إلى نواله يُحَطِّم مسراتِ عقلى . . .

وأنا متى تغنيتُ أكون ملكا

ولو أننى طفل بائس أعمى[1] !! . . .

١٨ — الشاعر الأعمى

« أنا لا أبكى لانطفاء عينىّ ، بل أبكى دليلى . . . »

فحين كانت أمى حية ، كنت أعمىً يبصر . . . »

« شاعر برازيلى »

* * *

خُلقتُ أعمى ، وكان عندى   فى عين أمى ضوءٌ لعينى

فقدتُ أمى ، فحين ماتت   عميتُ يارب مرتين ![2]

شفيق المعلوف

---

(١) مجلة الجديد (المصرية) ، السنة الرابعة ، العدد ١٤ ، الاثنين ٢٠ إبريل ١٩٣١ ، ص ٩ .

(٢) مجلة العصبة (البرازيل) ، السنة التاسعة ، العدد الأول ، تموز ١٩٤٨ .

١٩ — سُرحوب الأعمى (١)

وو ثب الشيطانُ بى وثبةً غارَ لهـا السِّفحان والغابُ

هذا هو الطود ، شناخيبُه تبدو لعينىَّ وتنجاب

وذاك نهر الغىِّ من شاهقٍ يحدِّق بالطود وينساب

قام على ضفته ماردٌ له كجلد الحوت جلبابُ

أعمى ، بطئُ الخطو فى سيره مقلقَلُ الجنبين ، هيّاب

ينكمش الموطئ عن نعله كأنه بالنعل مرتاب

* * *

ذاك سُرحوب ، ومن وجهه فاض لنا بشرٌ وترْحاب

ألقى على اللجة عكاَّزَه فانفرجت كأنها بابُ

وبان ممتدا لنا خلفها من ظلمات القعر سرداب

فى السرداب

أو لجنـا سُرحوبْ غيــابةَ السردابْ

واندس فى دروبْ كثيرةِ الشِّعابْ

وكلما اشتد علينا الظُّلَمْ أسرع سرحوبُ وحثَّ القدمْ

فخلتنى لمـَّـا أمعنَ فى المسيرْ

أنى أنا الأعمى وهْوَ هُو البصير

وقال سرحوب : أنا من يرى فى حَلَكِ الظُّلمة ما لا يُرى

ذخرتُ نورَ الشمس فى ناظرى لعتمة الليل ، فقُل للورى :

---

(١) سرحوب شيطان أعمى يسكن المياه كما تقول الأساطير .

يا أيها الهاتونْ برؤية الأسحارْ
والمالئون العيونْ ببهجة الأنوارْ
ما كنتم تخبطون في لجة الآثامْ
لو أنكم تبصرونْ مثلىَ فى الظلامْ !![1]

شفيق المعلوف

٢٠ — لِمَ أغمضَ عينيه ؟!

ما أنتَ عثمان الضرير حقيقةً بل أنت ذو النورين فى أيامه
لكنما أغمضتَ عن هذا الورى كى لاترى ذا الجهل فوق مقامه[2]

الحورانى

٢١ — أغمض جفونك تبصر

إذا سماؤُك يوما تحجبتْ بالغيومْ
أغمضْ جفونَك تبصرْ خلفَ الغيوم غيوم

* * *

والأرض حولك إما توشحت بالثلوجْ
أغمضْ جفونَك تبصر تحت الثلوج مُرُوج

* * *

وإن بُليت بداءٍ وقيل : داءٌ عَيَاءْ
أغمض جفونك تبصر فى الداء كلَّ الدواء !

* * *

---

(١) من ديوان عبقر ، ص ١٨١ — دار الطباعة والنشر العربية بسان باولو (البرازيل) الطبعة الرابعة — ١٩٤٩ م .
(٢) مجلة الأديب ، السنة الثانية ، عدد شباط ١٩٤٣ ص٣٠ ، مقال (مملكة العيون) .

وعندما الموت يدنو   واللحـــدُ يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر   فى اللحد مهدَ الحياه[1]

ميخائيل نعيمة

٢٢ — حظوظ مقسومة

[والخلق قد مدُّوا أبصارَهم وآمالَهم ، وتحركوا طوعاً وكرهاً ، يَعْشُون إلى نور الله تعالى ، فمِنْ أعمى أصم لا يسمع ولا يبصر ، وأعمى فقط يجتزئ عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشىء شيئين ، والواحدَ اثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيب أحول   الشىء فى إدراكه شيئان
فيلوح فى عينىّ منه واحد   ويلوح فى عينيه منه اثنان
ياليته ترك الذى أنا مبصر   وهو المخيَّر فى الحبيب الثانى

وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر فى عينيه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة[2] :

سبحان من قسم الحظو   ظَ فلا عتاب ولاملامه
أعمى ، وأعشى ، ثم ذو   بصر ، وزرقاء اليمامه
لولا استقامة من هدا   ه لما تبينت العلامه
ومجاور الغرر المخيـ   ـف له البشارة بالسلامه][3]

---

(١) كتاب الشعر العربى فى المهجر ، ص ١٤٤ ، طبعة ١٩٥٥ .

(٢) زرقاء اليمامة امرأة تضربها العرب مثلا فى قوة الإبصار ، وقدزعموا أنها كانت تبصر الأشياء على مسافة سير ثلاثة أيام .

(٣) من كلام لسان الدين بن الخطيب ، نفح الطيب ، ج ٩ ص ١٣ ، طبعة سنة ١٣٦٩هـ .

كفيف يأبى الإبصار بعين مجرم

الحمد لله ، يرفع الطاهرين إلى ذرا الخير ومنابر الإحسان ، ويُركس الآثمين فى مهاوى الضلال والبهتان : « سيصيب الذين أجرموا صَغارٌ عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تؤيد المتقين وتخذل المبطلين ، وما الله بغافل عما يعملون ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أحب فيك وأبغض لك ، فقرّب من أطاعك ، وخاصم من أعرض عنك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وشيعته وأصحابه ، والمهتدين بضياء آدابه ، « فأولئك لهم الدرجات العُلى » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

لو أن كل فرد منا دقق النظرة وأطال الفكرة فيما يبدو له أو يُنقل إليه أو يتلى عليه ، لتفجرت ينابيع الحكمة والفهم ، ولاستطاع المرء أن يستنتج الكثير من الشيء القليل ؛ وذلك شأن الحكماء والعقلاء ، قد تشغلهم ذرة أو قطرة ، فيخرجون من بحثها بألف فائدة وفكرة ... وهذا خبر صغير يأتينا من الخارج مغموراً بغيره من أنباء العالم الكبرى ، ولكنه على الرغم من ذلك كبير مثير ، يستحق العناية والالتفات ، لما فيه لذوى الألباب من تهذيب : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

نشرت بعض الصحف أنه قد أنشىء فى عاصمة فرنسا « بنك » مهمته أن

يساعد فى تحويل العميان إلى مبصرين[1]، بمايقدم إليه من تبرع بالعيون، وأن هذا «البنك» قد عرض على رجل ضرير أن توضع له عينان من رجل محكوم عليه بالإعدام، لارتكابه جريمتين من جرائم القتل، فأبى الرجل الضرير ذلك فى عزم وإصرار، وقال: «إننى لا أقبل أبدا أن أبصر بعينى رجل قاتل» !!.... فترجم بذلك عن نفوره من الجريمة، واحتقاره للمجرم، وإبائه الشديد أن تكون له أية صلة بالمجرمين...

نحن لا تعنينا الناحية الطبية كثيراً فى هذا النبأ، فقد تكون تلك الناحية عبارةً عن محاولات لم يتقرر مصيرها بصفة نهائية بعد، وقد يكون هذا من باب قوله تعالى: «علَّم الإنسان ما لم يعلم». ولكن يعنينا أكثر من ذلك أن الخبر قد اشتمل على شطرين: الشطر الأول هو الاهتمام بشأن العميان، والشطر الثانى هو رفض ذلك الكفيف أن يبصر عن طريق عينى قاتل...

---

(١) كتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد صاحب «ما قل ودل» فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٥٥ مايلى: «السيد اللواء أركان الحرب محمد شكرى يكتب إلينا متأثراً بذلك النبأ الصغير الكبير الذى نشرته «الأهرام» من أيام عن ذلك الطفل الخالد الشهيد «جريجورى ماسترز» الذى رأى منذ شهرين فى برنامج تلفزيونى بنيويورك عملية نقل العيون، فقال لأمه: «عندما أموت لن تكون عيناى ذات فائدة لى، ولهذا أود نقلهما بعد موتى إلى طفل صغير لا يبصر».

وكأنما كان هذا الطفل النبيل، وهو فى السادسة من عمره، يحس قرب المنية، فقد صدمته من أيام سيارة وهو يلعب أمام منزله فقضى نحبه، ونفذ والداه وصيته، وقدما «عينيه» إلى بنك العيون فى بافالو.

هذا هو النبأ الذى تأثر به اللواء محمد شكرى فكتب إلينا يقول: «لفت نظرى بالأهرام خبر صغير فى كلماته، كبير فى مغزاه. ذلك هو تبرع طفل بعينيه بعد وفاته لطفل ضرير يرى بهما الحياة، فأكبرت هذا الطفل الشهم — رحمة الله عليه — وتمنيت لو جعلنا منه قدوة نتبعها، ونعمل على إنشاء بنك للعيون فى كل بلد كبير بالجمهورية المصرية، لننير منه الحياة لمن حرموا نعمة الإبصار».

ومثل هذه الدروس هى التى يجب ياسيدى أن تلقن فى مدارسنا، حتى يشب الجيل على مثل هذه المثل العليا».

أما العميان فأولئك قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فأصبحوا سجناء الظلام القاتم ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون من التجول فى الأرض ، والتطلع إلى آيات الله فى الكون ، وحُرموا كثيراً مما يتمتع به المبصرون ؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل جاء أكثر أولئك المبصرين فأساءوا الحكم والتصرف مع هؤلاء المكفوفين ، إذ اتخذوهم لعبة وملهاة ، فتطاولوا عليهم ، وسخروا منهم ، وتهكموا بهم ، وأهملوا حقوقهم ؛ ومع أننا أكثر بلاد الله عمياناً بفضل الفقر الشائع والمرض الذائع والقذارة الفاشية والإهمال البادى الذريع ، فإننا أيضاً أكثر بلاد الله تضييعاً لأولئك المكفوفين ... فبينما تبذل الأمم ماتبذل لتعليم مكفوفيها وتهذيبهم والارتفاع بمستواهم ، نرى المكفوفين عندنا كلاً مهملا ، بل ألعوبة نتندر عليها ، وإذا ما بدرت من أحدهم هفوة رفعنا عليه صيحاتنا المنكرة قائلين : حقاً ، إن كل ذى عاهة جبار .. مع أن المكفوف رجل له ما للبصر من حقوق وكرامة عند الله وعند خيار الناس ، وكم من كفيف كان لقومه نعم المستشار فى الملمات ، حتى يقول :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وكم من مبصر يتطاول على كفيف ببذاءته ووقاحته ، حتى يثقل ذلك المبصر ويسمج ، فيذكّرنا بذلك السخيف الذى تندر على أعمى قائلا : يافلان ، ما أذهب الله عينى مؤمن إلا عوضه خيراً منهما . فبم عوضك ؟ . فأجابه الكفيف : بعدم رؤية الثقلاء مثلك ... وهذه فرنسا الغربية المتحللة تعطى غيرها درساً بليغاً ، فتنشئ « بنكا » يرعى شئون المكفوفين ، ويبذل ما فى وسعه لردّ البصر إلى هؤلاء المحرومين من نور الحياة ؛ فاعتبروا يا أولى الأبصار ...

وأما الشطر الثانى من الخبر ، وهو رفض المكفوف أن يبصر بعينى المجرم

القاتل ، فإنه عظة زاجرة رادعة ، تعلمنا كيف نزن الحياة بميزان الفضيلة لا بميزان المنفعة ، فإن الملاحَظ فى الشعوب الضعيفة المهينة أن الطاغية من طغاتها ، أوالشق من أشقيائها ، قد يعيث فى الأرض فساداً ، ويهلك الحرث والنسل ، ويمتص دماء البلاد والعباد ، ويتفرعن ويتملعن ، حتى يضج الناس من فضائحه وجرائمه ، ويبذلوا جهدهم لإزالته من طريقهم ، وهم يقسمون أغلظ الأيمان أنه لن يكون لذلك الشق الأثيم عودة إلى البغى ، أو قيمة فى الاعتبار ، أو منزلة فى الاحترام ؛ ولكن اللئيم الخبيث يحتال فيبرع فى الاحتيال ...

إنه يفهم جيداً أن الجمهور الذليل المريض فى نفسيته ومعنويته سريع الغفلة عاجل النسيان ، ولكنه يحتاج فقط إلى تهدئة الشعور ، « وتطييب » الخاطر ، وإرضاء العاطفة الثائرة ، فيختفى المجرم الباغى حينا من الزمن عن أبصار الجمهور ، وينقطع عن ميادين الاجتماع والملأ ، وبعد فترة من الزمن ينسى الجمهور الغافل ما كان ، ويعود الشق الطاغية مرة أخرى إليه ، وقد جدد إهابه وغير ثيابه ، ولكنه لم يغير شيئا من ضلاله وإفساده ، فيلق المرتع الخصيب ويفوز بالتجلة والترحاب ؛ وإذا استطاع الذئب أن يخدع القطيع ، فيوهمه أكثر من مرة بأنه الراعى الشفيق ، فردِّد السلامَ على الأغنام ...

وأما الشعوب القوية الفتية فإنها تحرص على حقوقها ، وتحافظ على كيانها ، ولا تسمح بعبث العابثين فيها ، ولا تنسى إساءة المسيئين إليها ، مهما طال الأمد ، وتتابعت الآجال ... وهذا رجل مكفوف ، يراد له أن يبصر النور ، فيرفض ، لأن الطريقة التى ستوصله إلى ذلك غير مشرفة ، ولأن يعيش فى ظلمات العمى خير له من أن يبصر بعين ألفت الإجرام ، وهكذا فلتكن الأنفة والإباء .

ومن عجب أن هذا هو هدى الإسلام ، فالمجرم لا يقام له اعتبار أو ثواب إلا إذا تطهر فخلق بالتطهير خلقا جديدا عن طريق الحد أو القصاص ، أو عن طريق التوبة الصادقة النصوح ، وما أكثر ما تستلزم من شرائط وتبعات ؛ وأما المجرمون المصرّون فلهم الويل مما يصفون ، فالله يقول : « إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » ويقول : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » ويقول : « يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام » .

يا أتباع محمد عليه السلام ...

إن الأمة الجديرة بخلافة ربها فى كونه هى التى ترعى حق ضعيفها ، وتتعاون فيما بينها ، ولا تنسى إساءة من اعتدى على حرمتها وكرامتها ، فإن الأمة التى تنسى السيئة ولا تؤدب عليها ، لن تقدر النعمة حق قدرها ولن تستفيد بها ، ولذلك تتوالى عليها النقم ، وتتفلت من أيديها النعم ، فاذكروا دائما قول ربكم : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . وقوله : « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » . وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم[1] .

أحمد الشرباصى

---

(١) هذه خطبة منبرية ألقيتها فى مسجد الشامية بالقاهرة ، يوم الجمعة ١٢ جمادى الأولى ١٣٧١ هـ — ٨ فبراير ١٩٥٢ م .

المكفوفون ... هؤلاء الأشقاء[1] !!

لا يزال أكثر الشرقيين ـ مع شديد الأسف ـ يعتقدون أن الرجل المكفوف إنسانٌ فَقَدَ كلَّ أمله فى الحياة العاملة المنتجة ، وأنه حين فقد بصرَه قد فقد كلَّ قدرة وصلاحية ، فلا محل له ولا مكان ، إلا المنعطفات النائية ، أو مواطن العزلة والوحدة ، حيث يقضى حياته ساكنا ... وإن كان لا بد من أن يعمل عملا أو يشتغل وظيفةً ، فهو لا يتعدى ـ فى رأيهم وظنهم ـ هذه الأعمالَ القليلةَ اليسيرة التى لا تُظهر نشاطا ، ولا تتطلب عبقريةً أو موهبة أو مَلَكة قوية ، وليس ثمّةَ شيء وراء ذلك فى وهمهم .

وما أحوج هذه الاعتقادات الخاطئة المخطئة عند هذه الكثرة إلى التصحيح والتقويم ، وما أحوجنا إلى أن نقول لهم بكل لسان وبكل أسلوب : إن المكفوف كان فى الماضى ـ حقيقةً ـ كما تقولون ، وكانت حالة المكفوف هذه نتيجةً طبيعية لذلك الإهمال الشنيع من البيئة والمجتمع لشؤون المكفوفين ... ولذلك الجهل القطيع من الناس لما عند المكفوفين من ملكات ومواهب ...

وأما اليوم فقد عرف المهذبون المثقفون للمكفوفين حقوقَهم وأقدارهم . وقد ظهرت عند المكفوفين هذه الملكاتُ والمواهب ، فصار المكفوف الذى تثقف ثقافةً حديثة بالطرق الخاصة بتعليم المكفوفين وتدريبهم يستطيع أن يكتب ، وأن يقرأ ، وأن يتعلم الحسابَ والجغرافيا والرسم ، وأن يعزف بالآلات الموسيقية المختلفة ، وأن يمارس الكثير من الألعاب الرياضية ، وأن يساهم فى كثير من الأمور الفنية والعملية .

---

(١) نشرتها فى مجلة منبر الشرق ، عدد ١٥ شعبان ١٣٧٤ هـ ـ ٨ إبريل ١٩٥٥ م .

أعتقد أنه من واجب المشتغلين بشؤون المكفوفين أن يجلوا هذه الحقيقةَ واضحة سافرة للناس ، حتى يغيِّروا هذه الفكرةَ القديمة الخاطئة عن عجز المكفوفين ، فإنهم قد أسرفوا فى سوء الظن ، حتى صاروا يعبرون عن المكفوف بكلمة : « العاجز » ، مع أنه يوجد من المكفوفين من يفوقون المبصرين فى كثير من الشؤون .

وتصحيحُ هذه الفكرة يحتاج إلى سلاسلَ من المحاضرات ، والبحوث ، والمقالات ، والنشرات ، والإذاعات هنا وهناك ...

ويوم يؤمن المجتمع بمواهب المكفوفين وملكاتهم يستطيع هؤلاء المكفوفون أن يعيشوا بين مواطنيهم عاملين منتجين ، ولا يحسوا بأنهم طائفة خاصة ، أو فئة منعزلة ، أو جماعة متمايزة عن الناس بسبب كف البصر عندهم ، بل يحسون ـ كما يجب أن يكون ـ بأنهم من المجتمع ، وإلى المجتمع ، وأنهم أشقاء لمن فى هذا المجتمع من المواطنين ، وأنهم يستطيعون أن ينهضوا بما عليهم من الواجبات ، لينالوا مالهم من الحقوق .

لقد ظلم المجتمعُ المكفوفين ظلما بيِّناً واضحاً حينما أقام بينه وبينهم فى الماضى ذلك الحجابَ المقيتَ ، ولقد آن الأوان لكى يعود المكفوفون إلى مكانهم الطبيعى الكريم من ميدان هذه الحياة ! ...

وإن نظرةً فاحصة يلقيها الباحثُ على الجهود العظيمة الموصولة التى يبذلها الغربُ للمكفوفين فيه ، لتقنعه كلَّ الإقناع بأننا مفرِّطون أبلغ التفريط فى حقوق هؤلاء الأشِقَّاء المكفوفين بيننا ، فهناك فى الغرب هيئات ومؤسسات وجمعيات ومعاهد للمكفوفين فيها كل ما يمكن أن يقدَّم للمكفوفين من وسائل التدريب وفنون التعليم والتخريج ، حتى صار من مكفوفيهم من يشتغل

باللاسلكى ، والكهرباء ، والطب ، والرياضيات : ونحن هنا لانزال غافلين مهملين لحقوق المكفوفين ، اللهم إلا جهوداً قليلةً مشكورة تبذلها بعض الجمعيات التى أُنشئت لرعاية شؤون المكفوفين ، ومن الواجب أن تتضاعف جهودُ الدولة والجماعات والأفراد لخدمة المكفوفين ، حتى لا نُحرم من ملكاتهم ومواهبهم وعبقرياتهم ، وحتى لا نهضمهم حقا من حقوقهم ؛ ورحم الله أمير الشعراء شوقى يوم قال عن المكفوفين فى الأزهر الشريف :

والله ما تدرى ، لعلّ كفيفهم   يوماً يكون أبا العلاءِ المبصرا

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

القصاص فى الاسلام

[بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٥٥ نشرت جريدة (منبر الشرق) الكلمة التالية بقلم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق ، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر ، وعضو جماعة كبار العلماء عن كتاب (القصاص فى الإسلام)] :

«كتاب قيِّم ، استوفى فيه مؤلفه فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى مبحثَ القصاص فى الفقه الإسلامى ، وبيَّن فيه حكمةَ مشروعية القصاص فى القتل العمد العدوانى ، وأن عقوبة الإعدام لمن اقترف جريمة القتل ، واعتدى على أخيه الإنسان ، فأزهق روحه بغير حق ، ليست إلا جزاءً وفاقا وعقابا عادلا على جريمة شنعاء ، وزجرا لمن تحدِّثه نفسه باقترافها ، ففيها علاج ووقاية ، وفى توقيعها ردع وزجر ، وفى تشريعها حياة الأمة ، كما يشير إليه قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » .

وقد شرح المؤلف هذه الآية الكريمة البالغة حد الإعجاز ببيانه الممتع القوى ، وأسلوبه البليغ الجذَّاب . كما تضمن الكتاب مباحث القصاص التى ذكرها الفقهاء فيما يختص بمن له حق المطالبة به ، ومن له حقُّ استيفائه ، وآلة القصاص ، والعفو عنه ، وتقرير الدية والترغيب فى العفو ، وغير ذلك من المباحث القيِّمة المفيدة .

وقد عرفنا الأستاذ الشرباصى خطيباً مفوّهاً ، وأديباً رائع البيان ، قوى الأسلوب ، فإذا به وقد عُنى بهذا المبحث الفقهى ، فقيه قح يمتاز عن كثير بصياغته أحكام الفقه وحكمة التشريع واختلافات الفقهاء فى قالب أدبى رصين ، جمع بين الدقة فى بيان الأحكام ، والوضوح فى الأداء ، والجمال فى العبارة .

هذا إلى مباحث أخرى لا يسع الأديب أن يغفلها ، كالبحث فى ألفاظ الثأر والقتل والقصاص فى لغة العرب واستعمال القرآن ، والبحث فى الأسرار البلاغية لآية : « ولكم فى القصاص حياة » وبيان وجه إعجازها ، وروعة إيجازها ، وتصويرها المعنى الكريم ، فى أروع صورة وأقوى أسلوب .

* * *

ولست أقصد فى هذه الكلمة الثناء على المؤلف ، وتقدير جهوده فى بحثه ، فهو غنى بنفسه وفضله عن ذلك ، وإنما أقصد توجيه الباحثين إلى مطالعة هذا الكتاب القيم ، وخاصة الذين يقترحون إلغاء عقوبة الإعدام المقررة فى قانون العقوبات المصرى تقليداً لقصار النظر من الغربيين ، غير ملتفتين إلى الحِكم البالغة التى تضمنها تشريع هذه العقوبة فى الإسلام ، تهذيباً للنفوس ، وإصلاحا للمجتمع ، وتطهيراً له من رجس الجريمة النكراء ، وإنقاذاً له من جراثيم الفساد والفناء .

ولا أشك أنهم إذا استقصوا مباحث كتاب « القصاص فى الإسلام » اطمأنوا إلى منطقه القوى السليم ، ووقفوا على حكمة الله تعالى فى تشريع القصاص ، وثابوا إلى الرشد فى هذا الموضوع الخطير . جزى الله المؤلفَ خيرا ، ونفع بكتابه الناظرين » .

حسنين محمد مخلوف

النيل فى ضوء القرآن

[بتاريخ أول يونيه سنة ١٩٥٤ نشرت جريدة (الأهرام) للباحثة الجليلة الدكتورة بنت الشاطىء ضمن بحثها عن الكتب الجديدة الكلمة التالية عن كتاب (النيل فى ضوء القرآن)] :

« أما هذا الكتاب فمؤلفه فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر الشريف ، والذى قرأنا له من قبل مؤلفات شتى فى الدين والمجتمع والتاريخ الإسلامى ، اتسمت بطابع التحرر والمرونة ، والاتصال بالدنيا من حولنا .

وهو فى معركتنا الكبرى من أجل تحرير وادى النيل ، يقدم اليوم بحثاً طريفاً ، محاولا أن يبتعث ما لهذه الحركة من صدى مؤثر فى وجداننا ، وأن يلتمس لها أساساً دينياً من عقيدتنا ، لنتبين مكانة النيل فى نور قرآننا ، حتى يزداد إيماننا به ، وحرصنا عليه ، وتضحيتنا له .

وقدم فضيلته بين يدى البحث مقدمات هامة حول الموضوع ، ألمت بما جاء عن النيل فى اللغة ، والتاريخ ، ورجّعت قصائد الشعراء فيه ، وأناشيد المغنين .

ثم انتقل إلى المجال الدينى ، فتكلم عن النيل فى الحديث الشريف ، وفى القرآن الكريم ؛ حيث نراه يتتبع ما جاء فى الكتاب عن الماء والأنهار بعامة ، ثم عن النيل بخاصة ؛ حتى إذا تلا آية الزخرف : « ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم ، أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » وقف فضيلته عند هذه الآية طويلا ، ورأى فيها « وثيقة إلهية سماوية قرآنية ،

تنص على أن مصر يستطيل مُلْكها ، حتى يشمل النيل الممتد الموحَّد ...
وأن النيل بفروعه وروافده — وهو المعبَّر عنه فى الآية بقوله : الأنهار —
داخل فى صميم هذه الدولة ، فكأنها ليست دولةَ الشمال فحسب ، ولا دولة
الجنوب فحسب ، ولكنها دولة وادى النيل الموحَّدة من المنبع إلى المصب » .

وعلى هذا النَّسَق يمضى فضيلته فى دراسة موضوعه ، من غير اعتساف
فى التأويل ، حتى يبلغ غايته عند قوله تعالى : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة ،
وأنا ربكم فاتقون » .

وإذ نقدر للأستاذ سلامةَ المنهج فى تناوله موضوعا قرآنيا يتبعه فى
الكتاب الكريم ، ثم استجابته الطيبة لدعوة الداعين إلى وصل الدين بالحياة ،
نرجو أن يحقق البحثُ هدفَه المرجو ، من إمداده قضية وادى النيل بعنصر
قوى من العقيدة والوجدان » .

بنت الشاطىء
من الأمناء

أيام الـــــكويت

[فى عدد جمادى الأولى ١٣٧٤ (يناير ١٩٥٥) من مجلة (الحج) المكية كتب الأستاذ الجليل محمد سعيد العامودى رئيس تحريرها السطور التالية عن كتاب (أيام الكويت)] :

« مؤلف هذا الكتاب عالم أديب معروف فى الأوساط الإسلامية ، فلا نحسب أنه فى حاجة إلى تعريفه للقراء . وما من شك فى أن الأستاذ الكبير الشيخ أحمد الشرباصى فى الطليعة بين علماء الكتاب وكتاب العلماء ممن يُشار إليهم ... ثم هو فى الرعيل الأول بين كبار رجال الفكر الإسلامى ...

ويتميز الأستاذ الشرباصى بنشاط دائب مستمر فى ميادين الخطابة ، والمحاضرة ، والكتابة ، والتأليف . وهو فى هذا الكتاب الطريف يسجِّل رحلتَه إلى بلاد الكويت الشقيقة ، حينما ذهب إليها عام ١٩٥٣ م للتدريس فى مدارسها منتدبا من قبل الجامعة الأزهرية ...

وفى الحق إننا لنظلم هذا الكتاب الضخم — وقد زادت صفحاتُه على ٥٠٠ صفحة — إذا قلنا إنه عبارة عن مجرد وصف للرحلة التى قام بها المؤلف الفاضل فى ذلك القطر العربى الشقيق... فالكتاب لدى قراءته يتبين جليا لقارئه أنه أعم من كتاب رحلة ، لأن موضوعاته العلمية ، والأدبية ، والتاريخية ، وغيرها ، قد تجاوزت وصفَ الرحلة وما إليها ، إلى ما هو أشمل وأدسم ، وما هو أعمق إفادةً وإمتاعا للقارىء الأديب .

ويصف الأستاذُ المؤلف كتابَه فى المقدمة بقوله :

« هذا كتاب (أيام الكويت) ، جمعتُ فيه بين رواية التاريخ ، ووصف

المشاهدة ، ولمحة الذكرى ؛ وقد يكون فى هذه النواحى الثلاث قسط يشترك فى تقديره أو تصويره أكثرُ من كاتب ؛ ولا تثريب ، فليست شئون الأمم أو الموضوعات العامة مما ينفرد به كاتب أو مؤرخ .

وقد شاءت الأقدار أن لا أظهر كتابا عن الكويت - على الرغم من صلتى الأدبية القديمة بها وبأبنائها - إلا بعد أن أقضى فى ربوعها عاماً دراسياً ، هو عام ١٩٥٣ م ، حيث كنت مبعوثا للأزهر الشريف هناك ، ولعل هذا من الخير ، فأنباء الرواية والاستماع غير أنباء اللقاء والاجتماع » .

وقد ضم الكتابُ فى صفحاته الأولى نبذة تاريخية جامعة عن تلك البلاد ، فأشار إلى معنى كلمة الكويت ، وسبب هذه التسمية ... ثم متى تأسست الكويت ، وذكر تراجم موجزة لأمراء آل صباح ، ثم تكلم عن نهضة الكويت ، والتجارة فى الكويت ، وقصة اللؤلؤ ، وقصة النفط ، والمحاكم فى الكويت ، والمساجد فى الكويت ، ونهضة التعليم ، وغير ذلك من مختلف الموضوعات ...

ولعل من أمتع ما تقرأه فى هذا الكتاب - وكلٌّ مافيه ممتع - حديثَ الأستاذ المؤلف عن شعراء الكويت ... لقد أفاض الأستاذ فى حديثه هذا ، وحق له ذلك ، فليس أحب إلى النفس من الحديث عن الشعر ، والحديث عن الشعراء . ولعل ما كتبه الأستاذ الشرباصى عن نهضة الكويت الأدبية ، وعن مشاهير الشعراء هناك هو أوفى ما كُتب للآن فى هذا الموضوع . وفى الحق إن هذا الذى استوعبه الأستاذ الشرباصى عن الشعر والشعراء هناك يعطينا أوضحَ صورة عن مقدار تطور الشعر والأدب فى ذلك القطر الشقيق .

وبعد فإن كتاب الأستاذ الشرباصى هذا موسوعة فى موضوعه ، ونعتقد أنه لا يستغنى عنه أى قارىء من القارئين » .

غربة الإسلام

[وعدد جمادى الأولى ١٣٧٤ (يناير ١٩٥٥) من مجلة (الحج) المكية كتب فضيلة الأستاذ البحاثة الشيخ عبد المنعم النمر الـكلمة التالية عن كتاب (غربة الإســلام)] :

« هذا عنوان كتاب حقَّقه وعلَّق عليه وشرحه صديقُنا الفاضل الأستاذ الجليل الشيخ أحمد الشرباصى المدرس بالأزهر، والمعروف بنشاطه الدينى وتآليفه العديدة . والـكتاب يدور حول شرح حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود كما بدأ ، فطوبى للغرباء »؛ وقد تولى شرحَ هذا الحديث الإمامُ الحافظ شيخ الإسلام ابن رجب الحنبلى فى بحث عَنْوَنه باسم « كشف الـكربة بوصف حال أهل الغربة » .

وقد رأى زميلنا الفاضل أن يخرج للقراء هذا البحث ، وأعطى له هذا العنوان الجديد (غربة الإسلام) ؛ والحقُّ أن الأستاذ أضاف إلى بحث ابن رجب أبحاثاً وتعليقاتٍ عدة ، جعلت الـكتاب جديداً فى أبحاثه وموضوعاته ، وأضافت إلى البحث الأصلى أضعافاً مضاعفة من البحوث المتنوعة الشيقة .

فلقد جال الأستاذ فى معانى الحديث ، وأضاف معانى جديدة له ، وتحدَّث بما هو معروف عنه من غيرته وخبرته الإسلامية عن أحوال المسلمين ، وموقفهم من الإسلام الآن . ثم ترجم لابن رجب ترجمة وافية ، وأخذ فى ذلك ٥٩ صفحة من الـكتاب الذى يبلغ عدد صفحاته ١٤٨ صفحة .

ونراه بعد ذلك قدعنى بذكر ترجمات وافية لكل عَلَم وراوية ورد ذكرُه

فى كلام ابن رجب ، فبرز مجهوده واضحاً جلياً فى الكتاب ، وأصبح كموسوعة صغيرة ، يلم القارئ منها بكثير من المعلومات المتنوعة والتواريخ المختلفة .

ويكفى أن تعرف أنه ترجم لحوالى خمسين عَلَما من الأعلام ، تستطيع أن تتعرف عليهم بعد قراءتك لهذا الكتاب الدسم ، غير التعليقات الأخرى التى تتعلق بالحديث وشرحه . فجزى الله الزميل الفاضل خير ما يجزى به العاملين المخلصين » .

ثم تحدث فضيلة الشيخ النمر بعد ذلك عن كتاب (القصاص فى الإسلام) .

محاضرات الثلاثاء

[وهذه رسالة بعث بها عميد القصة العربية الأستاذ الكبير محمود تيمور إلى المؤلف عقب مطالعته لكتاب (محاضرات الثلاثاء] :

الزمالك فى ٣٠/١٠/١٩٥٣م

عزيزى الفاضل الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى

أبعث إلى فضيلتكم بأسمى التحية ، شاكراً لكم هديتكم الطريفَة : « محاضرات الثلاثاء » ؛ وإنى إذ أكتب لكم رأيى عن هذا الكتاب ، فإنما أكتبه عن يقين وإخلاص ؛ ولا أكتمكم سرورى الكبير الذى شملنى على أثر مطالعتى لهذا السِّفْر الطريف ، الذى دلَّ على روحكم العالية ، ونزعتكم فى الإصلاح ، متَّخذين الدين كأساس لهذا الغرض ، فى مرونة تساير روحَ المجتمع ، دون خروج عن مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة الغراء .

كل ذلك يجرى فى معالجة طريفة أخاذة ، وعرض رفيع رائع ، وأسلوب سامٍ رصين .

فأهنئ فضيلتكم تهنئة صادقة ، وأؤمل أن تواصلوا هذا النشاط الاجتماعى الدينى المشكور فى همتكم المعروفة ، فإننا فى مسيس الحاجة إلى مثل شخصيتكم فى معالجة هذه الأمور ، وإلى مثل موضوعاتكم القوية ، ليقرأها النشء ، فيستهدى بها ويستضئ .

وتحياتى الخالصة إليكم ، مشفوعة بتقديرى واحترامى ؟

المخلص

محمود تيمور

فهرس الكتاب

الموضوع — الصفحة

الإهداء ٤

نفحة من القرآن الكريم ٥

تقديم ٦

كلنا مكفوفون ٩

المكفوف فى نظر الإسلام : . . . . . ١٧ — ٣٧

الألفاظ التى تطلق على المكفوف ص ١٨ — تفضيل كلمة المكفوف ٢١ — ذم عمى القلب فى القرآن ٢٢ — من مواطن التيسير الإسلامى على المكفوف ٢٧ — ابن أم مكتوم ٢٨ — مكانة المكفوف فى نظر الفقهاء ٣٤ .

واجبنا الإسلامى نحو المكفوفين: . . . . ٣٩ — ٧٥

قيمة العين فى الإسلام ص ٤١ — القصاص فى العين ٤١ — أخطار العين ٤٣ — قطع السبيل على كف البصر ٤٤ — سمل العيون فى زمن الرسول ٤٥ — أكل المكفوف من بيوت الأهل والأصدقاء ٤٩ — عدم تجاهل المكفوف ٥٣ — احترام شخصيته ٥٥ — عدم السخرية منه ٥٧ — الاعتذار إليه ٦٠ — المعاونة على ترقيته ٦١ — الإيمان بقدرته ٦٤ — بلادنا أكثر مكفوفين ٧٠ — نستطيع الكثير للمكفوفين ٧٣ .

من أخلاق المكفوفين: . . . . . . ٧٧ — ١٠٢

الأخلاق تشغل المكفوفين ص ٧٨ — طابع المراقبة لله عندهم ٨٠ — الثقة فى رحمة الله ٨١ — خلق الوفاء ٨٤ — الأنفة وإباء الضيم ٨٧ — الجرأة والثبات ٨٨ — رقة الطباع ٩١ — تكييف الظروف وملاحظة المناسبات ٩٢ — التواضع ٩٥ — الاعتزاز بالنفس ٩٧ — الإحساس بجمال الفن ٩٧ — الثبات عند الابتلاء ٩٩ —

الموضوع | الصحفة

لماذا اقتصرنا على أخلاق الخير عند المكفوفين ١٠١ .

ذكاء المكفوفين: . . . . ١٠٣ — ١٣٤

التنويه بذكاء المكفوفين ص ١٠٤ — أمثلة لأذكيائهم ١٠٥ — تدريب المكفوف لحواسه ١٠٦ — اليقظة الدائمة ١٠٨ — بحوث عن دقة إحساسهم ١٠٨ — ذكاء المكفوف إذا فقد حاسة أخرى ١١١ — لورادوى بريد جمن ١١٤ — اعتماد المكفوف على حاسة الشم ١١٦ — الأذكياء من أجدادنا ١١٨ — زين الدين الآمدى ١١٩ — من الذى اخترع الكتابة البارزة للمكفوفين ١٢٠ — أبو الغنايم الشيبانى ١٢١ — اشتغال المكفوفين بالهندسة والبناء ١٢٢ — وصف المكفوف للمحسوسات ١٢٢ — ذكاء يتصل بعلم النفس ١٢٤ — ارنستو ماسويللى ١٢٤ — قوة الحفظ والذاكرة ١٢٥ — الذكاء فى الفكاهة ١٢٧ — أجوبة مسكتة ١٢٧ — أبو قحافة والد أبى بكر ١٢٩ — إدراك المكفوفين لذكائهم ١٣٢ — نماذج من الشعر على ذلك ١٣٢ .

التصوير الحسى والمعنوى فى شعر المكفوفين : . . ١٣٥ — ١٥٦

براعة المكفوف فى إدراك المحسوسات ص ١٣٥ — بشار ووصف الجيش ١٣٦ — القصبانى ووصف اللؤم ١٣٧ — العسقلانى ووصف المشيب ١٣٨ — الأسدى يصف فتاة ١٣٩ — القضاعى يصف بسمة ١٤٠ — أحد الفقهاء السبعة يصف الهوى ١٤١ — بشار يصور الكرم والبخل ١٤٣ — ابن الدهان يرسم صورة حية ١٤٤ — تفنن المكفوفين فى المحسنات اللفظية ١٤٥ — تناولهم مسائل فيها عمق ودقة ١٤٨ — نماذج من شعر المكفوفين فيها براعة تصوير ١٥٠ .

مواقف فى السيرة للمكفوفين: . . . . . ١٥٧ — ١٨٤

إشارة إلى ابن أم مكتوم ص ١٥٨ — زنيرة ١٥٩ — عبد الله بن الأرقم ١٥٩ — الاستسقاء بالعباس ١٦٠ —

الموضوع — الصفحة

عبدالله بن عباس ١٦٢ - سعيد بن يربوع ١٦٤ - حسان ابن ثابت ١٦٥ - أمية بن الأشكر ١٦٦ - فويك الصحابى ١٦٨ - قتادة بن النعمان ١٧٠ - أبو سفيان بن حرب ١٧٣ - عمير بن عدى ١٧٤ - عبدالله بن جحش ١٧٦ - صحابة أصيبوا بعجز حسى ١٧٧ - معاذ بن عمرو ١٧٧ - جندع بن ضمرة ١٧٨ - عمرو بن الجموح ١٨٠ - أبو محمد بن جحش وسعد بن أبى وقاص ١٨١ - جعفر بن أبى طالب ١٨٣.

كفيف يرتد بصيرا : . . . . . . ١٨٥ — ١٩٣

قصة يوسف وكف بصر يعقوب ص ١٨٥ - سبب كف بصره ١٨٧ - لم حزن يعقوب ١٨٨ - حقيقة القميص ١٨٩ - ريح يوسف ١٩٠ - هل يجوز كف البصر فى الأنبياء؟ ١٩١ - عطف كريم ١٩٤ - فى زيارة المكفوفين ١٩٥ .

عينا أرليت (قصة مترجمة): . . . . . . ١٩٧ — ٢٠١

الشاعر المكفوف أحمد الزين : . . . . . ٢٠٢ — ٢٣٤

حياة الشاعر ص ٢٠٢ - مكانته ٢٠٤ - أخلاقه ٢٠٥ - آثاره ٢٠٥ - دقة حسه وعاطفته ٢٠٧ - ضيقه من اختلال الأوضاع ٢٠٩ - ضيقه بالثناء الكاذب ٢١٢ - أنفته وإباؤه ٢١٤ - حديثه عن الأخلاق والسلوك ٢١٥ - وصفه الساعة ٢٢٠ - تصويره ابتسامة ٢٢١ - تصويره لواعج النفس ٢٢٣ - حديثه عن الفنون ٢٢٥ - اهتمامه بالحديث والاستماع ٢٢٥ - شغفه بالموسيقى والأوتار ٢٢٩ - ضيقه بالصوت القبيح ٢٣١ .

الفكاهة عند المكفوفين . . . . ٢٣٥ — ٢٥٥

ماهى الفكاهة ص ٢٣٦ - بشار وأبو العيناء ٢٣٧ - ترجمة أبى العيناء ٢٣٧ - فكاهة التوجيه ٢٤١ - فكاهة الذم والغمز ٢٤٥ - فكاهة التندر والسخرية ٢٤٦ - فكاهة الترويح

الموضوع الصفحة

عن النفس ٢٤٩ - ماذا نستفيد من الحديث عن فكاهة المكفوفين ٢٥٤ .

أسباب كف البصر: . . . . ٢٥٧ — ٣٣٦

قيمة العين ص ٢٥٨ - قصيدة فى حسناء عمياء ٢٥٩ - حكمة كف البصر ٢٦١ - أسباب كف البصر ٢٦٦ - الجدرى ٢٦٧ - العلل التى تسببها للعين العوامل الخارجية ٢٦٩ - الجهل المؤدى إلى ترك الوقاية والعلاج ٢٦٩ - عدم النظافة ، طب الركة ٢٧٠ - الاعتقادات الباطلة ، نوع التربة ٢٧١ - الرمد الحبيبي ٢٧٢ - حكمة أخرى لكف البصر ٢٧٤ - كان أعمى فأبصر ٢٧٦ - أكثر المكفوفين لم يولدوا مكفوفين ٢٨٠ - حوادث السمل ٢٨١ - كف البصر لا يعيب ٢٨٣ - طول أعمار المكفوفين ٢٨٤ - تراجم للمكفوفين الذين سملت عيونهم ٢٨٧ - تراجم لمكفوفين طرأ عليهم كف البصر ٢٩١ - تراجم لمكفوفين يغلب عليهم طول العمر ٢٩٤ - تراجم لمكفوفين فقدوا أبصارهم بسبب أعمال تشرفهم ٣٢٦ .

عبقرية مكفوفة . . . . ٣٣٨ — ٣٤٩

أبو العلاء المعرى يستغل مواهبه . . . . . .

ترجمته ص ٣٣٨ - كف بصره لم يمنعه التعلم ٣٣٩ - رهين المحبسين ٣٤٠ - لم يستطع العزلة ٣٤١ - استغلاله حواسه ٣٤٢ - دقة إحساسه ٣٤٠ - عواطفه النبيلة ٣٤٥ - استغلاله خياله ٣٤٦ - استغلاله مكانته الاجتماعية ٣٤٧ .

قصائد فى المكفوفين: . . . . ٣٥٠ — ٣٧٨

تمثال الأعمى لفخرى أبو السعود ص ٣٥١ - إلى موسيقية مكفوفة لعلى محمود طه ٣٥٢ - أكملوا نقص المكفوفين لحافظ إبراهيم ٣٥٥ - قيمة المكفوف فى الأزهر لشوقى ٣٥٥ - عاشق مكفوفة للبهاء زهير ٣٥٦ - الفتاة العمياء لولى الدين يكن ٣٥٦ - أنة طفل ضرير ٣٥٧ - الشاعر الأعمى لجبران

الموضوع	الصفحة
خليل جبران ٣٥٨ - كفيف يقود بصيراً لعلى الجارم ٣٦٠ - الفنان الأعمى لعلى محمود طه ص ٣٦٠ - بين أعمى البصر وأعمى البصيرة لعلى الجندى ٣٦٢ - الأعمى لأحمد فتحى مرسى ٣٦٤ - الأعمى لعلى الجارم ٣٦٥ - ناى الأعمى لأحمد الصافى النجفى ٢٧٠ - أعمى الحجر لشبلى ملاط ٣٧١ - أعمى اغنطوس الرامى ٢٧٢ - الصبى الأعمى للشاعر س . كيبر ٣٧٣ - الشاعر الأعمى لشاعر برازيلى واشفيق المعلوف ٣٧٤ - سرحوب الأعمى لشفيق المعلوف ٣٧٠ - لم أغمض عينيه ؟ للحورانى ٣٧٦ - أغمض جفونك تبصر لميخائيل نعيمة ٣٧٦ - حظوظ مقسومة للسان الدين بن الخطيب ٣٧٧ .	
كفيف يأبى الإبصار بعين مجرم	٣٧٨
المكفوفون هؤلاء الأشقاء	٣٨٣
القصاص فى الإسلام	٣٨٦
النيل فى ضوء القرآن	٣٨٨
أيام الكويت	٣٩٠
غربة الإسلام	٣٩٢
محاضرات الثلاثاء	٣٩٤

